بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجن

مكِّيَّةٌ في قول الجميع . وهي ثمان وعشرون آية

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ .

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي قل يا محمد لأمتك: أَوْحَى الله إليّ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ إليّ ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وما كان عليه السلام عالماً به قبل أن أوحى إليه. هكذا قال ٱبن عباس وغيره على ما يأتي. وقرأ ٱبن أبي عَبْلَة «أُحِيَ» على الأصل؛ يقال: أَوحَى إليه ووحَى، فقلبت الواو همزة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ [المرسلات: ١١] وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة. وقد أطلقه المازنيّ في المكسورة أيضاً كإشاح[1] وإسادة و «إِعَاءِ أَخِيهِ» ونحوه.

الثانية ـ وٱختُلِف هل رآهم النبيّ ﷺ أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وفي صحيح مسلم والترمذي عن ٱبن عباس قال:

[٦١١٥] ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين إلى قومهم؛ فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهب! قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فٱضربوا مشارق

[٦١١٥] صحيح. أخرجه مسلم ٤٤٩ والترمذي ٣٣٢٣ وابن حبان ٦٥٢٦ والطبري ٣٥٠٤٣ من حديث ابن عباس، وهو عند البخاري ٤٩٢١ دون صدره.

---

(١) أصله «وشاح» وهو أديم يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها.

الأرض ومغاربها، فٱنظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تِهامة وهو بنخلة عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر؛ فلما سمعوا القرآن ٱستمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ فأنزل الله عز وجل على نبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾. رواه الترمذي عن ٱبن عباس قال[1]: قول الجنّ لقومهم ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ قال: لما رأوه يصلّي وأصحابه يصلّون بصلاته فيسجدون بسجوده قال: تعجّبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح؛ ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجنّ ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رُمُوا بالشّهب. وكان المرميّون بالشّهب من الجنّ أيضاً. وقيل لهم شياطين كما قال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فإن الشيطان كل متمرّد وخارج عن طاعة الله. وفي الترمذي عن ٱبن عباس قال:

[٦١١٦] كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوَحْي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيها، فيكون باطلاً. فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنِعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا الأمر إلا من أمر قد حدث في الأرض! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلّي بين جبلين ـ أراه قال بمكة ـ فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحَدث الذي حدث في الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح. فدلّ هذا الحديث على أن الجنّ رموا كما رُميت الشياطين. وفي رواية السُّديّ: أنهم لما رُموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال: إيتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمّها فأتوه فشمّ فقال: صاحبكم بمكة. فبعث نفراً من الجنّ، قيل: كانوا سبعة. وقيل: تسعة منهم زَوْبعة. وروى عاصم عن زِرّ[2] قال: قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبيّ ﷺ. وقال الثُّماليّ:

[٦١١٦] صحيح. أخرجه الترمذي ٣٣٢٤ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٢٦ من حديث ابن عباس وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) هذه الزيادة للترمذي عقب الحديث المتقدم.
(٢) زر هو ابن حبيش تابعي كبير.

بلغني أنهم من بني الشَّيْصَبَان، وهم أكثر الجنّ عدداً، وأقواهم شوكة، وهم عامة جنود إبليس. ورَوى أيضاً عاصم عن زرّ: أنهم كانوا سبعة نفر؛ ثلاثة من أهل حَرَّان وأربعة من أهل نَصِيبين. وحكى جُويبر عن الضحاك: أنهم كانوا تسعة من أهل نَصِيبين (قرية باليمن غير التي بالعراق). وقيل: إن الجنّ الذين أتوا مكة جنّ نصِيبين، والذين أتوه بنخلة جنّ نِيْنَوَى، وقد مضى بيان هذا في سورة «الأحقاف». قال عِكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وقد مضى في سورة «الأحقاف» التعريف بٱسم النفر من الجنّ، فلا معنى لإعادة ذلك.

وقيل: إن النبيّ ﷺ رأى الجنّ ليلة الجنّ وهو أثبت؛ روى عامر الشّعبي قال:

[٦١١٧] سألت علقمة هل كان ٱبن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ؟ فقال علقمة: أنا سألت ٱبن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا ٱسْتُطير[1] أو ٱغتيل، قال: فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو يجيء من قبل حِرَاء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم؛ فقال: «أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن» فٱنطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة، فقال: «لكم كلُّ عَظْم ذُكر ٱسم الله عليه يقع في أيديكم أوْفَرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرة عَلفٌ لدوابكم ـ فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجُوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجنّ» قال ٱبن العربي: وٱبن مسعود أعرف من ٱبن عباس؛ لأنه شاهده وٱبن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة. وقد قيل: إن الجنّ أتوا رسول الله ﷺ دفعتين: إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ٱبن مسعود، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ٱبن عباس. قال البيهقيّ: الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبيّ ﷺ وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجنّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود. قال البيهقي: والأحاديث الصحاح تدل على أن ٱبن مسعود لم يكن مع النبيّ ﷺ ليلة الجنّ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجنّ وآثار

[٦١١٧] صحيح. أخرجه مسلم ٤٥٠ وابن أبي شيبة ١/ ١٥٥ وأبو داود ٨٥ والترمذي ١٨ و ٤٢٥٨ وأبو عوانة ١/ ٢١٩ وابن خزيمة ٨٢ وابن حبان ١٤٣٢ والبغوي في شرح السنة ١٧٨ من حديث ابن مسعود والسياق لمسلم.

---

(١) أي «ذُعِرَ».

نيرانهم. قال: وقد رُوي من غير وجه أنه كان معه ليلتئذ[1]، وقد مضى هذا المعنى في سورة «الأحقاف» والحمد لله. روي عن ٱبن مسعود أن النبيّ ﷺ قال:

[٦١١٨] «أمرت أن أتلو القرآن على الجنّ فمن يذهب معي؟» فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم قال عبد الله بن مسعود: أنا أذهب معك يا رسول الله، فانطلق حتى جاء الحَجُون عند شِعْب أبي دُبّ[2] فخطّ عليّ خطّا فقال: «لا تجاوزه» ثم مضى إلى الحَجُون فٱنحدر عليه أمثالُ الحَجَل يُحدرون[3] الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون في دُفوفهم كما تَقْرَع النِّسوة في دُفوفها، حتى غَشَوه فلا أراه، فقمت فأَوْمَى إليّ بيده أن أجلس، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم، فلما ٱنفتل إليّ قال: «أردتَ أن تأتيني»؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: «ما كان ذلك لك، هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يَستَطِيبَنّ أحدكم بعظم ولا بعر» قال عكرمة: وكانوا ٱثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل. وفي رواية:

[٦١١٩] ٱنطلق بي عليه السلام حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف خَطّ لي خطّاً، فأتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزط[4] وكأن وجوههم المَكَاكي[5]، فقالوا: ما أنت؟ قال: «أنا نبيّ الله» قالوا: فمن يشهد لك على ذلك؟ قال: «هذه الشجرة» فقال: «يا شجرة» فجاءت تجرّ عروقها، لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه، فقال: «على ماذا تشهدين» قالت: أشهد أنك رسول الله. فرجعت كما جاءت تجرّ بعروقها الحجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت. ثم روي:

[٦١١٨] مضىٰ في سورة الأحقاف آية ٢٩.

[٦١١٩] لم أقف عليه، وهو موضوع بهذا اللفظ، وقد ورد حديث الشجرة، وليس فيه ذكر الجن، راجع «المجمع» ٨/٢٩٢، وهو حديث حسن.

---

(١) راجع أواخر سورة الأعراف.

(٢) شعب أبي دبّ: يقال أن فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ.

(٣) يُحدرون الحجارة: يحطونها من علو إلى أسفل.

(٤) الزط: جنس من الهنود، لونهم ضارب إلى السواد.

(٥) المكاكي: جمع مكوك، هو طاس يشرب فيه، أعلاه ضيق ووسطه واسع، وهو أيضاً مكيال معروف لأهل العراق.

أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حِجر ٱبن مسعود فرقد ثم ٱستيقظ فقال: «هل من وضوء» قال: لا، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ. فقال: «هل هو إلا تمر وماء» فتوضأ منه[1].

الثالثة ـ قد مضى الكلام في الماء في سورة «الحجر» وما يستنجَى به في سورة «براءة» فلا معنى للإعادة.

الرابعة ـ وٱختلَف أهل العلم، في أصل الجنّ؛ فروى إسماعيل عن الحسن البصريّ: أن الجنّ ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب. فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو وليّ الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: أن الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين، وهم يؤمنون؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس. وٱختلفوا في دخول مؤمني الجن الجنة، على حسب الاختلاف في أصلهم. فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرّية إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم. ومن قال: إنهم من ذرّية إبليس فلهم فيه قولان: أحدهما ـ وهو قول الحسن يدخلونها. الثاني ـ وهو رواية مجاهد لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. حكاه الماورديّ. وقد مضى في سورة «الرحمن» عند قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٦] بيان أنهم يدخلونها.

الخامسة ـ قال البيهقي في روايته: وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة فقال: «لكم كلُّ عظم»[2] دليل على أنهم يأكلون ويَطْعَمون. وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجنّ، وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم؛ ٱجتراءً على الله وافتراء، والقرآن والسنة تردّ عليهم، وليس في المخلوقات بسيط مركب مزدوج، إنما الواحد الواحد سبحانه، وغيره مركب وليس بواحد كيفما تصرف حاله. وليس يمتنع أن يراهم النبيّ ﷺ في صورهم كما يرى الملائكة. وأكثر ما يَتَصوّرون لنا في صور الحيات؛ ففي الموطأ:

---

(١) مضىٰ في سورة الأحقاف.

(٢) راجع دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١ وهو عند مسلم ٤٥٠ دون لفظ «من الجزيرة» فإن مسلماً جعله من كلام الشعبي.

[٦١٢٠] أن رجلا حديث عهد بعُرس استأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله. . . الحديث، وفيه: فإذا حيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها. وذكر الحديث. وفي الصحيح أنه عليه السلام قال:

[٦١٢١] «إن لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئاً فحرِّجوا عليها ثلاثاً، فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر». وقال: «اذهبوا فادفنوا صاحبكم» وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة» وبيان التحريج عليهنّ. وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة؛ لقوله في الصحيح: «إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا»[1]. وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها. قلنا: هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها؛ لأنه لم يُعَلَّل بحرمة المدينة، فيكون ذلك الحكم مخصوصاً بها، وإنما عُلِّل بالإسلام، وذلك عامّ في غيرها ألا ترى قوله في الحديث مخبراً عن الجنّ الذي لقي: «وكانوا من جنّ الجزيرة»؛ وهذا بيِّن يَعضُده قوله: «ونَهَى عن عوامر البيوت»[2]، وهذا عامّ. وقد مضى في سورة «البقرة» القول في هذا فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١﴾ أي في فصاحة كلامه. وقيل: عَجَباً في بلاغة مواعظه. وقيل: عجباً في عظم بركته. وقيل: قرآناً عزيزاً لا يوجد مثله. وقيل: يعنون عظيماً. ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ أي إلى مراشد الأمور. وقيل: إلى معرفة الله تعالى؛ و «يَهْدِي» في موضع الصفة أي هادياً. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي فَآهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر، ثم رُمِي الجنّ بالشُّهب. وقيل لا نتخذ مع الله إلٰهاً آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية. وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجنّ بتدبرها القرآن. وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي آستمعوا إلى النبيّ ﷺ فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله. ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه. والنفر الرهط؛ قال الخليل: ما بين ثلاثة إلى عشرة. وقرأ عيسى الثّقفي «يَهْدِي إِلَى الرَّشَدِ» بفتح الراء والشين.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ كان عَلْقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائيّ

[٦١٢٠] صحيح. أخرجه مالك ٢/٩٧٦ ـ ٩٧٧ ومسلم ٢٢٣٦ من حديث أبي سعيد وتقدم.
[٦١٢١] صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٣٦ من حديث أبي سعيد وتقدم.

(١) هو بعض الحديث المتقدم.
(٢) مضىٰ في سورة البقرة.

وأبن عامر وخَلَف وحفص والسّلمي ينصبون «أَنَّ» في جميع السورة في أثني عشر موضعاً، وهو: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾، عطفاً على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، ﴿وأَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ لا يجوز فيه إلا الفتح؛ لأنها في موضع أسم فاعل «أُوحِيَ» فما بعده معطوف عليه. وقيل: هو محمول على الهاء في «آمَنَّا بِهِ» أي وبـ«أَنَّه تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا» وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف[1] الجار مع «أنّ». وقيل: المعنى أي وصدّقنا أنه جدّ ربنا. وقرأ الباقون كلّها بالكسر وهو الصواب، وأختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفاً على قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا﴾ لأنه كله من كلام الجنّ. وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، قالا: لأنه من الوحي، وكسرا ما بقي؛ لأنه من كلام الجنّ. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فكلهم فتحوا إلا نافعاً وشيبة وزرّ بن حُبيش وأبا بكر والمفضّل عن عاصم، فإنهم كسروا لا غير. ولا خلاف في فتح همزة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، ﴿وأَن قَدْ أَبْلَغُواْ﴾. وكذلك لا خلاف في كسر ما بعد القول؛ نحو قوله تعالى ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا﴾ و ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ [الجن: ٢٠] و ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾ و ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ﴾ [الجن: ٢١] وكذلك لا خلاف في كسر ما كان بعد فاء الجزاء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] و ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ لأنه موضع أبتداء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجدّ في اللغة: العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدّ في عيوننا[2]؛ أي عَظُم وجلّ. فمعنى: «جدُّ رَبِّنَا» أي عظمته وجلاله؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة. وعن مجاهد أيضاً: ذِكره. وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضاً: غناه. ومنه قيل للحظ: جَدٌّ، ورجل مجدود أي محظوظ؛ وفي الحديث:

[٦١٢٢] «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ» قال أبو عبيدة والخليل: أي ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة. وقال أبن عباس: قدرته. الضحاك: فعله. وقال القُرظيّ والضحاك أيضاً: آلاؤهُ ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة والأخفش: ملكه وسلطانه.

[٦١٢٢] صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٣٠ ومسلم ٥٩٣ من حديث المغيرة في أثناء حديث.

(١) كذا في الأصل، والظاهر أن الصواب «حذف» بدل «حرف».
(٢) تقدم.

وقال السديّ: أمره. وقال سعيد بن جُبير: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالى ربنا. وقيل: إنهم عَنَوا بذلك الجدّ الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجنّ. وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جَدّ، وإنما قالته الجنّ للجهالة، فلم يؤاخذوا به. وقال القشيريّ: ويجوز إطلاق لفظ الجدّ في حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن، غير أنه لفظ مُوهِم، فتجنُّبه أولى. وقراءة عِكرمة «جِدّ»، بكسر الجيم: على ضد الهزل. وكذلك قرأ أبو حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقع. ويروى عن ابن السَّمَيقع أيضاً وأبي الأشهب «جَدَا رَبِّنَا»، وهو الجدوى والمنفعة. وقرأ عكرمة أيضاً «جَدًّا» بالتنوين «رَبُّنَا» بالرفع على أنه مرفوع، بـ«تعالى»، و «جَدًّا» منصوب على التمييز. وعن عكرمة أيضاً «جَدٌّ» بالتنوين والرفع «رَبُّنَا» بالرفع على تقدير: تعالى جَدٌّ جَدُّ رَبِّنا؛ فجدّ الثاني بدل من الأوّل وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه. ومعنى الآية: وأنه تعالى جلال ربِّنا أن يتخذ صاحبة وولداً للاستئناس بهما والحاجة إليهما، والرّب يتعالى عن الأنداد والنظراء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ الهاء في «أَنَّهُ» للأمر أو الحديث، وفي «كَانَ» اسمها، وما بعدها الخبر. ويجوز أن تكون «كَانَ» زائدة. والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة. ورواه[1] أبو بُردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبيّ ﷺ. وقيل: المشركون من الجنّ، قال قتادة: عصاه سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس. والشطط والاشتطاط: الغلوّ في الكفر. وقال أبو مالك: هو الجَور. الكلبيّ: هو الكذب. وأصله البعد فيعبّر به عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق؛ قال الشاعر:

بأيّةِ حالٍ حكّموا فيك فاشتطُّوا ... وما ذاكَ إلا حيثُ يَمَّمَكَ الوَخْطُ[2]

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي حسبنا ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولداً، حتى سمعنا القرآن وتبيَّنا به الحقّ. وقرأ يعقوب

---

(١) باطل. أخرج الديلمي «في زهر الفردوس» ٤/١٦٦ عن أبي موسىٰ مرفوعاً: «السفيه إبليس» وإسناده ساقط فيه قيس بن الربيع الأسدي متروك، ولا يصح مرفوعاً، وإنما ورد عن قتادة من قوله وهو أشبه.

(٢) يمّمك: قصدك. الوخط: الطعن بالرمح، وقيل: الشيب.

والجحدريّ وابن أبي إسحق «أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ». وقيل: انقطع الإخبار عن الجنّ ها هنا فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله: «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ»، ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ: أعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه؛ فيبيت في جواره حتى يصبح؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما. قال مقاتل: كان أوّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم. وقال كَرْدَم بن أبي السائب:

[٦١٢٣] خرجت مع أبي إلى المدينة أوّلَ ما ذُكر النبيّ ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلا من الغنم، فقال الراعي: يا عَامر الوادي، أنا جارك. فنادى منادٍ يا سِرْحان أرسله، فأتى الحملَ يَشْتد[1]. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ أي زاد الجنُّ الإنس «رهقا» أي خطيئة وإثماً؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. والرهَق: الإثم في كلام العرب وغِشيان المحارم؛ ورجلٌ رَهِقٌ إذا كان كذلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] وقال الأعشى:

لا شَيءَ ينفعني مِن دونِ رؤيتِها ... هل يَشتفِي وامِقٌ ما لم يُصِب رَهَقَا

يعني إثماً. وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سبباً لها. وقال مجاهد أيضاً: «فَزَادُوهُم» أي إن الإنس زادوا الجنّ طغياناً بهذا التعوّذ، حتى قالت الجنّ: سُدنا الإنس والجنّ. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد: ازداد الإنس بهذا فَرَقاً وخوفاً من الجنّ. وقال سعيد بن جُبير: كفراً. ولا خفار أن الاستعاذة بالجنّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك. وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ؛ فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادي. قال القشيريّ: وفي هذا تحكُّم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس؛ أي وأن الجنّ ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم. الكلبيّ: المعنى: ظنت

[٦١٢٣] أخرجه الطبراني (١٩/ ١٩١) من حديث كردم بن أبي السائب، وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحق قاله في المجمع ١١٤٤١ ورد بمعناه روايات واهية، راجع الدر المنثور ٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(١) أي يعدو ويركض.

الجنّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيم به الحجة عليهم. وكل هذا توكيد للحجة على قريش؛ أي إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد، فأنتم أحقّ بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ هذا من قول الجنّ؛ أي طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾ قد ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ أي حَفَظة، يعني الملائكة. والحَرَس: جمع حارس ﴿وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ جمع شهاب، وهو ٱنقضاض الكواكب المحرقة لهم عن ٱستراق السمع. وقد مضى القول فيه في سورة «الحجر» و«الصافات». و«وَجَدَ» يجوز أن يقدّر متعدّياً إلى مفعولين، فالأوّل الهاء والألف، و«مُلِئَتْ» في موضع المفعول الثاني. ويجوز أن يتعدّى إلى مفعول واحد ويكون «مُلِئَتْ» في موضع الحال على إضمار قد. و«حَرَساً» نصب على المفعول الثاني بـ«ـمُلِئَتْ». و«شَدِيداً» من نعت الحرس، أي ملئت ملائكة شدادا. ووحد الشَّديد على لفظ الحرس؛ وهو كما يقال: السَّلَف الصالح بمعنى الصالحين، وجمع السَّلَف أسلاف وجمع الحرس أحراس؛ قال[1]:

«تجـاوزتُ أحراساً وأهـوالَ مَعْشَرٍ»

ويجوز أن يكون «حَرَساً» مصدراً على معنى حُرِست حراسةً شديدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾. «مِنْهَا» أي من السماء، و«مَقَاعِدَ»: مواضع يُقْعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء؛ يعني أن مَرَدة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدّم بيانه، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشُّهب المحرقة، فقالت الجنّ حينئذ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ يعني بالشهاب: الكوكب المحرِق؛ وقد تقدّم بيان ذلك. ويقال: لم يكن ٱنقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي ﷺ وهو آية من آياته. وٱختلف السَّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبيّ ﷺ؟ فقال الكلبي و[2] قوم: لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه: خمسمائة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبيّ ﷺ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، وحُرِست بالملائكة والشهب.

---

(١) القائل هو امرؤ القيس.

(٢) وقع في الأصل «وقال قوم» والتصويب عن بعض النسخ وهو الصواب.

قلت: ورواه عطية العوفي عن ٱبن عباس؛ ذكره البيهقي. وقال عبد الله بن عمر[و][1]: لما كان اليوم الذي نُبِّىء رسولُ الله ﷺ مُنعت الشياطين ورُموا بالشُّهب. وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بُعث محمد ﷺ حُرست السماء، ورُميت الشياطين بالشُّهب، ومُنعت عن الدنوّ من السماء. وقال نافع بن جُبير: كانت الشياطين في الفترة تَسمع فلا تُرمَى، فلما بُعث رسول الله ﷺ رُميت بالشُّهب. ونحوه عن أبيّ بن كعب قال: لم يُرمَ بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبِّىءَ رسول الله ﷺ فرمى بها، وقيل: كان ذلك قبل المبعث وإنما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذاراً بحاله؛ وهو معنى قوله تعالى: «مُلِئَتْ» أي زيد في حَرَسها؛ وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهليّ:

فَـانْقَـضَّ كـالـدُّرِّي يَتْبَعُـه نَقْـعٌ يَثـورُ تخـالُـه طُنُبـا

وهذا قول الأكثرين. وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال: كل شعر رُوِي فيه فهو مصنوع، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث. والقول بالرمي أصح؛ لقوله تعالى، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾. وهذا إخبار عن الجنّ، أنه زِيد في حرس السماء حتى ٱمتلأت منها ومنهم؛ ولما رُوي عن ٱبن عباس قال:

[٦١٢٤] بينما النبيّ ﷺ جالس في نفر من أصحابه إذ رُمِي بنجم، فقال: «ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبيّ ﷺ: «إنها لا تُرْمَى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً في السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه، فتتخَطَّف الجنُّ فيُرْمون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه». وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث. ورَوَى الزهريّ نحوه عن عليّ بن الحسين بن[2] عليّ بن أبي طالب عن ٱبن عباس. وفي آخره قيل للزهريّ: أكان يُرمَى في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ قال: غلُظت وشُدِّد أمرُها حين بُعث النبيّ ﷺ. ونحوه قال القتبيّ. قال ابن قتيبة: كان ولكن ٱشتدّت الحراسة بعد المبعث؛ وكانوا من قبلُ يسترقون ويُرمَون في

[٦١٢٤] تقدم في سورة الصافات.

(١) زيادة عن كتب التخريج.
(٢) في الأصل «عن» وهو خطأ.

بعض الأحوال، فلما بُعث محمد ﷺ مُنعت من ذلك أصلاً. وقد تقدم بيان هذا في سورة «والصافات» عند قوله؛ ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات: ٩] قال الحافظ[1]: فلو قال قائل: كيف تتعرض الجنّ لإحراق نفسها بسبب آستماع خبر، بعد أن صار ذلك معلوماً لهم؟ فالجواب: أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة، كما ينسَى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم، وأن الله تعالى قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝٣٥﴾ [الحجر: ٣٥] ولولا هذا لما تحقق التكليف. والرَّصَد: قيل من الملائكة؛ أي ورصداً من الملائكة. والرَّصَدُ: الحافظ للشيء والجمع أرصاد، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعاً كالحرس، والواحد: راصد. وقيل: الرصد هو الشهاب، أي شهاباً قد أرصد له، ليرجم به؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالخَبَط والنَّفَض.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ أي خيراً. قال آبن زيد: قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يُرسل إليهم رسولاً. وقيل: هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبيّ ﷺ. أي لا ندري أشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم، فإنهم يكذبونه ويهلِكون بتكذيبه كما هلك من كذَّب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا؛ فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبيّ ﷺ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم مُنعوا من السماء حراسة للوحي. وقيل: لا؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن آنصرفوا إليهم منذرين؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألاّ يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا: إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أمْ يؤمنون؟

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هذا من قول الجنّ، أي قال بعضهم لبعض لما دَعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وإنا كنا قبل آستماع القرآن منّا الصالحون ومنّا الكافرون. وقيل: «وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ» أي ومن دون الصالحين في الصلاح، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ أي فِرقاً شتّى؛ قاله السُّديّ. الضحاك: أدياناً مختلفة. قتادة: أهواءً متباينة؛ ومنه قول الشاعر:

القَابِضُ البَاسِطُ الْهَادِي بِطَاعَتِهِ ... في فِتْنَةِ النَّاسِ إذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ

(١) لم يتبين لي المراد بالحافظ، وهي المرة الأولىٰ التي يطلق المصنف لفظ «الحافظ».

والمعنى: أي لم يكن كل الجنّ كفاراً بل كانوا مختلفين: منهم كفّار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيّب: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس. وقال السّدّي في قوله تعالى: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ قال: في الجنّ مثلكم قَدَرية، ومُرْجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسُنّية. وقال قوم: أي وإنا بعد ٱستماع القرآن مختلفون: منّا المؤمنون ومنّا الكافرون. أي ومنّا الصالحون، ومنّا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح. والأوّل أحسن؛ لأنه كان في الجنّ من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وهذا يدلّ على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان. وأيضاً لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر. والطرائق: جمع الطريقة وهي مذهب الرجل، أي كنا فرقاً مختلفة. ويقال: القوم طرائق أي على مذاهب شتّى. والقِدد: نحوٌ من الطرائق وهو توكيد لها، واحدها: قِدّة. يقال: لكل طريق قِدّة، وأصلها من قَدّ السيور، وهو قطعها؛ قال لبيد يرثي أخاه أَرْبَد:

لم تَبْلُغ العينُ كلَّ نَهْمَتِها ... ليلةَ تُمْسي الجِيادُ كالقِدَدِ

وقال آخر[١]:

ولَقَدْ قُلْتُ وزَيدٌ حاسِرٌ ... يومَ وَلَّتْ خيلُ عَمْرو قِدَدَا

والقِدّ بالكسر: سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ؛ ويقال: ما له قِدٌّ ولا قِحْف؛ فالقِدُّ: إناء من جلد، والقِحف: من خشب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين، وهو خلاف الظنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ﴾ [الجن: ٥]، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ [الجن: ٧] أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله: أنّا في قبضته وسلطانه، لن نفوته بهرب ولا غيره. و﴿هَرَبًا ۝١٢﴾ مصدر في موضع الحال أي هاربين.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وبالله، وصدّقنا محمداً ﷺ على رسالته. وكان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس والجنّ. قال الحسن: بعث الله

(١) هو لبيد صاحب البيت الذي قبله.

محمداً ﷺ إلى الإنس والجنّ، ولم يبعث الله تعالى قطُّ رسولاً من الجنّ، ولا من أهل البادية، ولا من النساء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد تقدم هذا المعنى. وفي الصحيح:

[٦١٢٥] «وبُعثت إلى الأحمر والأسود» أي الإنس والجنّ. ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: لا يخاف أن يُنْقَص من حسناته ولا أن يزاد في سيئاته؛ لأن البخس النقصان، والرَّهَق: العدوان وغشيان المحارم؛ قال الأعشى:

لا شَـيْءَ يَنْفَعُنِـي مِـن دُونِ رُؤْيَتِهَـا ... هل يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقاً

الوامق: المحبّ؛ وقد وَمِقَه يَمِقه بالكسر أي أحبّه، فهو وامق. وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجِنّ؛ لقوّة إيمانهم وصحة إسلامهم. وقراءة العامة «فَلَا يَخَافُ» رفعاً على تقدير فإنه لا يخاف. وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم «فَلَا يَخَفْ» جزماً على جواب الشرط وإلغاء الفاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي وأنّا بعد استماع القرآن مختلفون، فمنّا من أسلم ومنّا من كفر. والقاسط: الجائر، لأنه عادل عن الحقّ، والمُقْسِط: العادل؛ لأنه عادل إلى الحق؛ يقال: قسط: أي جار، وأقسط: إذا عدل؛ قال الشاعر:

قـومٌ هُـمُ قتلـوا ابـنَ هِنـدٍ عَنْـوَةً ... عَمْـراً وهـم قَسَطُـوا علـى النُّعْمَـانِ

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخَّوه ومنه تحرّى القِبلةِ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن طريق الحقّ والإيمان ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ أي وَقوداً. وقوله: «فَكَانُوا» أي في علم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ هذا من قول الله تعالى. أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسّعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق. وهذا محمول على الوحي؛ أي أوحى إليّ أن لو استقاموا. ذكر ابن بحر: كل ما في هذه السورة من «إن» المكسورة المثقلة فهي حكاية لقول الجن الذين استمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكل ما

[٦١٢٥] تقدم مراراً.

فيها من أن المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسول الله ﷺ. وقال ابن الأنباري: ومن كسر الحروف وفتح «وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا» أضمر يميناً تامًّا، تأويلها: والله أن لو استقاموا على الطريقة؛ كما يقال في الكلام: والله أَنْ قمتَ لقمتُ، ووالله لو قمتَ قمتُ؛ قال الشاعر:

أَمَا واللَّهِ أَنْ لو كُنتَ حُرًّا   وما بِالحُرّ أنتَ ولا العتِيقِ

ومن فتح ما قبل المخففة نسَقها ـ أعني الخفيفة ـ على «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ»، «وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا» أو على «آمَنَّا بِهِ» وبأن لو استقاموا. ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى «أن» المخففة، أن يعطف المخففة على «أُوحِيَ إِلَيَّ» أو على «آمَنَّا بِهِ»، ويستغني عن إضمار اليمين. وقراءة العامة بكسر الواو من «لوِ» لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثّاب والأعمش بضم الواو. و﴿مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي واسِعاً كثيراً، وكانوا قد حُبِس عنهم المطر سبع سنين؛ يقال: غَدِقَتِ العينُ تَغدَق، فهي غَدِقة، إذا كثر ماؤها. وقيل: المراد الخلق كلُّهم أي ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾ طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي كثيراً ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم. وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى «لأَسْقَيْنَاهُمْ» لوسَّعنا عليهم في الدنيا؛ وضرَبَ الماء الغَدَق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] أي بالمطر. والله أعلم. وقال سعيد بن المسيّب وعطاء بن أبي رَبَاح والضحاك وقَتادة ومقاتل وعطية وعُبيد بن عمير والحسن: كان والله أصحاب النبيّ ﷺ سامعين مطيعين، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشيّ ففُتنوا بها، فوثبوا على إمامهم فقتلوه. يعني عثمان بن عفّان. وقال الكلبيّ وغيره: «وأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ» التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفاراً لوسّعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً لهم، حتى يَفتتنوا بها، فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة. وهذا قول قاله الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه والكلبيّ والثّمالي ويَمَان بن رئاب[1] وابن كيسان وأبو مِجْلَز؛ واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] الآية؛ والأوّل أشبه؛ لأن

(١) في الأصل «رباب» والتصويب عن كتب التراجم.

الطريقة معرّفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه:

[٦١٢٦] أن رسول الله ﷺ قال: «أخْوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زَهْرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بركات الأرض..» وذكر الحديث. وقال عليه السلام:

[٦١٢٧] «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَن قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلكَكم كما أهلكتهم».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ يعني القرآن؛ قاله ٱبن زيد. وفي إعراضه عنه وجهان: أحدهما عن القبول، إن قيل إنها في أهل الكفر. الثاني عن العمل، إن قيل إنها في المؤمنين. وقيل: «وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ» أي لم يشكر نعمه ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ قرأ الكوفيون وعيّاش عن أبي عمرو «يَسْلُكْهُ» بالياء وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لذكر ٱسم الله أوّلا فقال: «وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ». الباقون «نَسْلُكْهُ» بالنون. وروي عن مسلم بن جُندب ضم النون وكسر اللام. وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان، سلكه وأسلكه بمعنًى؛ أي ندخله. ﴿عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ أي شاقًّا شديداً. قال ٱبن عباس: هو جبل في جهنم(١). الخدري: كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت. وعن ٱبن عباس: أن المعنى مشقة من العذاب. وذلك معلوم في اللغة أن الصَّعَد: المشقة، تقول: تصَعَّدني الأمر: إذا شقّ عليك؛ ومنه قول عمر: ما تَصعَّدني شيء ما تَصعدتني خُطبة النكاح، أي ما شقّ عليّ. وعذاب صَعَدٌ أي شديد. والصَّعَد: مصدر صَعِد؛ يقال: صَعِدَ صَعَداً وصُعوداً، فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذّب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. وقال أبو عبيدة: الصَّعَد مصدر؛ أي عذاباً ذا صَعَدٍ، والمشي في الصَّعود يشقّ. والصَّعود. العقبة الكؤود. وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يُكلَّف صعودها؛ فإذا ٱنتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم. وقال الكلبيّ: يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلاً في النار من صخرة ملساء، يُجذب من أمامه بسلاسل، ويُضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها،

[٦١٢٦] صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٢٧ ومسلم ١٠٥٢ وأحمد ٣/ ٩١ وعبد الرزاق ٢٠٠٢٨ والنسائي ٥/ ٩٠ وابن ماجه ٣٩٩٥ وابن حبان ٣٢٢٥ و ٣٢٢٦ من حديث أبي سعيد بأتم منه.

[٦١٢٧] صحيح. أخرجه البخاري ١٣٤٤ و ٣٥٩٦ و ٦٤٢٦ ومسلم ٢٢٩٦ وأبو داود ٣٢٢٣ والنسائي ٤/ ٦١ وأحمد ٤/ ١٥٤ وابن حبان ٣٢٢٤ واستدركه الحاكم ١/ ٣٦٦ كلهم من حديث عقبة بن عامر. في حديث مطول وهذا عجزه.

---

(١) راجع «تفسير الماوردي» ٥/ ١١٨ و «البحر لأبي حيان» ٨/ ٣٤٥.

ولا يبلغ في أربعين سنة. فإذا بلغ أعلاها أُحْدِر إلى أسفلها، ثم يكلّف أيضاً صعودَها، فذلك دأبه أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ «أَنَّ» بالفتح، قيل: هو مردود إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي قل أوحى إليّ أن المساجد لله. وقال الخليل: أي ولأن المساجد لله. والمراد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة. وقال سعيد بن جبير: قالت الجنّ كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي بُنيت لذكر الله وطاعته. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبيّ ﷺ، يقول:

[٦١٢٨] «أينما كنتم فصلّوا» «فأينما صليتم فهو مسجد»(١) وفي الصحيح:

[٦١٢٩] «وجعلت ليَ الأرض مسجداً وطَهوراً». وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه؛ يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، فتجحد نعمة الله. قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها. وفي الصحيح عن ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ قال:

[٦١٣٠] «أمرت أن أسجد على سبعة أعظُم: الجبهة ـ وأشار بيده إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين». وقال العباس قال النبيّ ﷺ:

[٦١٣١] «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب(٢)». وقيل: المساجد هي الصلوات؛ أي لأن السجود لله. قاله الحسن أيضاً. فإن جعلت المساجد المواضع

[٦١٢٨] هو بعض حديث أخرجه البخاري ٣٣٦٦ و ٣٤٢٥ ومسلم ٥٢٠ من حديث أبي ذر بأتم منه.
[٦١٢٩] متفق عليه وتقدم مراراً.
[٦١٣٠] متفق عليه مضىٰ تخريجه.
[٦١٣١] تقدم كسابقه.

---

(١) هو بعض الحديث المتقدم.
(٢) آراب: أعضاء مفردها «إِرْب» بالكسر ثم السكون.

فواحدها مسجِد بكسر الجيم، ويقال بالفتح؛ حكاه الفراء. وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مَسجَد بفتح الجيم. وقيل: هو جمع مَسجَد وهو السجود، ويقال: سجدت سجوداً ومَسجَداً، كما تقول: ضربت في الأرض ضَرْباً ومَضرَباً بالفتح: إذا سرت في ٱبتغاء الرزق. وقال ابن عباس: المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسمّيت مكة المساجد؛ لأن كل أحد يسجد إليها. والقول الأوّل أظهر هذه الأقوال إن شاء الله، وهو مروي عن ٱبن عباس رحمه الله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم، ثم خصّ بالذكر منها البيت العتيق فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]. وقال عليه السلام:

[٦١٣٢] «لا تُعمَل المَطِيّ إلا إلى ثلاثة مساجد» الحديث خرجه الأئمة. وقد مضى الكلام فيه. وقال عليه السلام:

[٦١٣٣] «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». قال ٱبن العربي: وقد روي من طريق لا بأس بها أن النبيّ ﷺ قال:

[٦١٣٤] «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا» ولو صح هذا لكان نَصّاً.

قلت: هو صحيح بنقل العدل عن العدل حَسْب ما بيناه في سورة «إبراهيم».

الثالثة: المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفاً؛ فيقال: مسجد فلان. وفي صحيح الحديث:

[٦١٣٥] أن النبيّ ﷺ سابقَ بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأَمدُها ثَنيّة الوَدَاع، وسابق بين الخيل التي لم تضمّر من الثنيّة إلى مسجد بني زُريق. وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها في قبلتهم، وقد تكون بتحبيسهم، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن ٱختلفوا في تحبيس غير ذلك.

[٦١٣٢] تقدم.

[٦١٣٣] تقدم تخريجه.

[٦١٣٤] تقدم تخريجه.

[٦١٣٥] تقدم تخريجه.

الرابعة: مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال. ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل. ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عرِي عن الباطل. وقد مضى هذا كله مبيناً في سورة «براءة». و«النور» وغيرهما.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام. وقال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها. يقول: فلا تشركوا فيها صنماً وغيره مما يعبد. وقيل: المعنى أفرِدوا المساجد لذكر الله، ولا تتخذوها هزواً وَمتّجراً ومجلساً، ولا طرقاً، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً. وفي الصحيح:

[٦١٣٦] «من نَشَد ضالّة في المسجد فقولوا لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا» وقد مضى في سورة «النور» ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله.

السادسة: روَى الضحاك عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ:

[٦١٣٧] كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى. وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مَزور حقّ وأنت خير مَزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار» فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى؛ وقال: «اللهم صُبَّ عليَّ الخير صبًّا ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كَدًّا، واجعل لي في الأرض جَدًّا» أي غِنًى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾.

[٦١٣٦] متفق عليه وتقدم.

[٦١٣٧] ذكره الماوردي في تفسيره ٦/ ١٢٠ بدون إسناد عن الضحاك عن ابن عباس وقال مخرجه لم أجده اهـ وهو ضعيف بكل حال فإن الضحاك لم يلق ابن عباس والراوي عن الضحاك غالباً هو جويبر وهو متروك الحديث. وقد صح أذكار غير هذا في دخول المسجد عند الخروج منه، راجع الأذكار للنووي ص ٦١ برقم ٦٧ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ وعمل اليوم والليلة لابن السني ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ و ٨٩. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ يجوز الفتح؛ أي أوحى الله إليه أنه. ويجوز الكسر على الاستئناف. و«عبد الله» هنا محمد ﷺ حين كان يصلّي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، حَسْب ما تقدّم أوّل السورة. ﴿يَدۡعُوهُ﴾ أي يعبده. وقال ٱبن جُريج: «يَدْعُوهُ» أي قام إليهم داعياً إلى الله تعالى. ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ قال الزبير بن العوّام: هم الجنّ حين ٱستمعوا القرآن من النبيّ ﷺ. أي كاد يركب بعضهم بعضاً ٱزدحاماً ويسقطون، حرصاً على سماع القرآن. وقيل: كادوا يركبونه حرصاً؛ قاله الضحاك. ٱبن عباس: رغبة في سماع الذكر. وروى بُرْد عن مكحول[1]: أن الجنّ بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة وكانوا سبعين ألفاً، وفرغوا من بيعته عند ٱنشقاق الفجر. وعن ٱبن عباس أيضاً: إن هذا من قول الجنّ لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبيّ ﷺ وٱئتمامهم به في الركوع والسجود. وقيل: المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضاً، حَرداً على النبيّ ﷺ. وقال الحسن وقتادة وٱبن زيد: يعني ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ محمد بالدعوة تَلبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، وأَبَى الله إلا أن ينصره ويتم نوره. وٱختار الطبريّ أن يكون المعنى: كادت العرب يجتمعون على النبيّ ﷺ، ويتظاهرون على إطفاء النور الذي جاء به. وقال مجاهد: قوله «لِبَداً» جماعات وهو من تَلَبُّد الشيء على الشيء أي تجمع، ومنه اللِّبْد الذي يفرش لتراكم صوفه، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً فقد لبّدته، وجمع اللِّبدة لِبَد مثل قِربة وقِرب. ويقال للشَّعر الذي على ظهر الأسد لِبدة وجمعها لِبد؛ قال زهير:

لَدى أَسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لــه لِبَــدٌ أَظْفَــارُهُ لــم تقلَّــمِ

ويقال للجراد الكثير: لِبد. وفيه أربع لغات وقراءات؛ فتح الباء وكسر اللام، وهي قراءة العامة. وضم اللام وفتح الباء، وهي قراءة مجاهدوٱبن مُحَيْصن وهشام عن أهل الشام، واحدتها لُبْدة. وبضم اللام والباء، وهي قراءة أبي حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبي الأشهب العُقَيلي والجَحْدري واحدها لَبْد مثل سَقْفٍ وسُقُفٍ ورَهْن ورُهُن. وبضم اللام وشدّ الباء وفتحها، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجَحْدري أيضاً واحدها لابِد؛ مثل راكِع ورُكَّع، وساجِد وسُجَّد. وقيل: اللُّبَد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم؛ ومنه قيل لنَسر لقمان لُبَد لدوامه وبقائه؛ قال النابغة:

* أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ *

---

(١) هذا مرسل، ومع إرساله فيه برد بن سنان ضعفه علي المديني ولينه أبو حاتم.

القشيريّ: وقرىء «لُبُدا» بضم اللام والباء، وهو جمع لَبِيد، وهو الجَوْلَق[1] الصغير. وفي الصحاح: وقوله تعالى ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: ٦] أي جَمًّا. ويقال أيضاً: الناس لُبَد أي مجتمعون، واللُّبَد أيضاً الذي لا يسافر ولا يبرح منزله. قال الشاعر[2]:

مِن ٱمرىءٍ ذِي سَماحٍ لا تَزالُ لَهُ بَـزْلاءُ يَعْيَا بِهـا الجَثّـامَـة اللبَـدُ[3]

ويروى: اللِّبِد. قال أبو عُبيد: وهو أشبه.

والبزلاء: الرأي الجيّد. وفلان نهاض ببزلاء: إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام؛ قال الشاعر:

إنِّـي إذا شَغَلَـتْ قـومـاً فُـرُوجُهُـمُ رَحْـبُ المَسَـالِـكِ نَهَّـاضٌ بِبَـزْلاَءِ

ولُبَد: آخر نسور لقمان، وهو ينصرف؛ لأنه ليس بمعدول. وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلما أهلكوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بَعَرات[4] سُمْر، مِن أَظْب[5] عُفْرٍ، في جبلٍ وعر، لا يَمسها القَطْر؛ أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نَسر خلف بعده نَسر، فٱختار النُّسور، وكان آخر نُسوره يسمى لُبَدا، وقد ذكرته الشعراء؛ قال النابغة:

أَضْحَت خَلاَءً وأَمْسَى أَهْلُها ٱحْتَمَلوا أَخْنَى عليها الّذي أَخْنَى على لُبَدِ

وَاللّبِيد: الجُوَالق الصغير؛ يقال: ألبدت القِربة جعلتها في لَبيد. ولبِيد: ٱسم شاعر من بني عامر.

قوله تعالى: ﴿قالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ أي قال ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾ وكذا قرأ أكثر القرّاء «قَالَ» على الخبر. وقرأ حمزة وعاصم «قُلْ» على الأمر. وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فٱرجع عن هذا فنحن نجيرك؛ فنزلت.

---

(١) الجولق: وعاء صغير اهـ مختار الصحاح.

(٢) الشاعر هو: الراعي.

(٣) البزلاء: الحاجة التي أحكم أمرها. الجثامة: الذي لا يبرح من محله وبلدته.

(٤) قال شارح القاموس: هو بالعين المهملة، ويوجد في بعض نسخ الصحاح «بقرات» بالقاف، والذي في القاموس هو الأشبه، إذا لا تتولد البقر من الظباء.

(٥) أي ظباء.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق لكم خيراً. وقيل: ﴿ لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ﴾ أي كفراً ﴿ وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ أي هدًى، أي إنما عليّ التبليغ. وقيل: الضرَّ: العذاب، والرَّشد النعيم. وهو الأوّل بعينه. وقيل: الضر الموت، والرشد الحياة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي لا يدفع عذابه عني أحد إن ٱستحفظته؛ وهذا لأنهم قالوا ٱترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك. وروى أبو الْجَوْزاء عن ٱبن مسعود قال:

[٦١٣٨] ٱنطلقت مع النبيّ ﷺ ليلة الجنّ حتى أتى الحجون فخطّ عليّ خطًّا، ثم تقدّم إليهم فٱزدحموا عليه، فقال سيّد لهم يقال له وَرْدان: أنا أَزجُلُهم(١) عنك؛ فقال: ﴿ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ ذكره الماورديّ. قال: ويحتمل معنيين. أحدهما لن يجيرني مع إجارة الله لي أحد. الثاني لن يجيرني مما قدره الله تعالى عليّ أحد. ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي ملتجأ ألجأ إليه؛ قاله قتادة. وعنه: نصيراً ومولىً. السّديّ: حِرزاً. الكَلْبي: مَدْخلاً في الأرض مثل السَّرَب. وقيل: وليًّا ولا مولًى. وقيل؛ مذهباً ولا مسلكاً. حكاه ٱبن شجرة، والمعنى واحد؛ ومنه قول الشاعر:

يا لَهْفَ نفسي ولَهْفِي غيرُ مجديةٍ عَنِّي وما مِن قَضاءِ اللّهِ مُلْتَحَدُ

﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة؛ قاله الحسن. وقال قتادة: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فذلك الذي أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما. فعلى هذا يكون مردوداً إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ أي لا أملك

[٦١٣٨] ضعيف. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ من حديث ابن مسعود، وإسناده ضعيف لانقطاعه بين ابن مسعود وأبي الجوزاء.

---

(١) أي أدفعهم.

لكم إلا أن أبلغكم. وقيل: هو استثناء منقطع من قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ أي إلا أن أبلغكم أي لكن أبلغكم ما أرسلت به؛ قاله الفراء. وقال الزجاج: هو منصوب على البدل من قوله: «مُلْتَحَداً» أي ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته؛ أي ومن رسالاته التي أمرني بتبليغها. أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته، فآخذ نفسي بما آمر به غيري. وقيل هو مصدر، و«لا» بمعنى لم، و«إن» للشرط. والمعنى لن أجد من دونه ملتحداً: أي إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في التوحيد والعبادة. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ كسرت إن؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ نصب على الحال، وجمع «خَالِدِينَ» لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أوّلاً للفظ «مَن» ثم جمع للمعنى. وقوله ﴿أَبَدًا ٢٣﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وقيل: هو المعاصي غير الشرك، ويكون معنى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو. وقد مضى هذا المعنى مبيّناً في سورة «النساء» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ «حَتَّى» هنا مبتدأ، أي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من عذاب الآخرة، أو ما يوعدون من عذاب الدنيا، وهو القتل ببدر ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾ أهم أم المؤمنون. ﴿وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾ معطوف.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا؛ أي لا أدري فـ«إن» بمعنى «ما» أو «لا»؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله. و«ما» في قوله: «مَا يُوعَدُونَ»: يجوز أن يكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ويقدّر حرف العائد. ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ أي غاية وأجلاً. وقرأ العامة بإسكان الياء من ربي. وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ «عَالِمُ» رفعاً نعتاً لقوله «رَبِّي». وقيل: أي

هو ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ والغيب ما غاب عن العباد. وقد تقدّم بيانه في أوّل سورة «البقرة» ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات؛ وفي التنزيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وقال ٱبن جُبيرُ: «إلاَّ مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» هو جبريل عليه السلام. وفيه بعدٌ، والأوْلى أن يكون المعنى: أي لا يظهر على غيبه إلا من ٱرتضى أي ٱصطفى للنبّوة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه: ليكون ذلك دالاً على نبوّته.

الثانية: قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب وٱستأثر به دون خلقه، كانْ فيه دليل على أنه لا يعلم الغيبَ أحدٌ سواه، ثم ٱستثنى مَن ٱرتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوّتهم. وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ٱرتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفترٍ عليه بحدسه وتخمينه وكذبه. قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على ٱختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم الملك والسُّوقة، والعالم والجاهل، والغنيّ والفقير، والكبير والصغير، مع ٱختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم؛ فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله: إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على ٱختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبداً في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقي ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم. وفيه ٱستحلال دمه على هذا التنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

حَكم المنجّمُ أن طالعَ مولِدِي يقضِي عليّ بميتةِ الغَرقِ
قُلْ لِلْمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطُّوفَانِ هَلْ وُلِد الْجَمِيعُ بكَوْكَبِ الْغَرَقَ

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال رضي الله عنه: فأين قمرهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فٱنظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الردّ على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم. وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين! لا تسر في هذه الساعة وسِرْ في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فقال له علي رضي الله عنه: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت.

فقال عليّ رضي الله عنه: ما كان لمحمد ﷺ مُنَجِّم، ولا لنا من بعده ـ في كلام طويل يَحتجُّ فيه بآيات من التنزيل ـ فمن صدّقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن ٱتخذ من دون الله نِدًّا أو ضدّاً، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك. ثم قال للمتكلم: نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلاّ ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر؛ وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، واللَّهِ لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيتَ وبقيتُ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان. ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها، ولقي القوم فقتلهم وهي وقعة النَّهْرَوَان الثابتة في الصحيح لمسلم. ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد ﷺ منجّم ولا لنا مِن بعده، فتح الله علينا بلاد كِسرى وقيصر وسائر البُلدان ـ ثم قال: يا أيها الناس! توكلوا على الله وثِقوا به؛ فإنه يكفي ممن سواه. ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان؛ فيحفظ الوحي من ٱستراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطان في صورة المَلَك قالوا: هذا شيطان فٱحذره. وإن جاءه المَلَك قالوا: هذا رسول ربّك. وقال ٱبن عباس وٱبن زيد: «رَصَداً» أي حَفَظة يحفظون النبيّ ﷺ من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين. قال قتادة وسعيد بن المسيّب: هم أربعة من الملائكة حفظة. وقال الفراء: المراد جبريل؛ كان إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنّ الوحي، فيلقوه إلى كهنتهم، فيسبقوا الرسول. وقال السديّ: «رَصَداً» أي حفظة يحفظون الوحي، فما جاء من عند الله قالوا: إنه من عند الله، وما ألقاه الشيطان قالوا: إنه من الشيطان. و«رَصَداً» نصب على المفعول. وفي الصحاح: والرَّصَدَ القوم يرصُدون كالحرس، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصاداً. والراصد للشيء الراقب له؛ يقال: رَصَدَه يَرْصُده رَصْداً ورَصَداً. والتَّرصد الترقب والمَرْصَد موضع الرّصد.

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ قال قتادة ومقاتل: أي ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة. وفيه حذف يتعلق به اللام؛ أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم

أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحقّ والصدق. وقيل: ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه؛ قاله ٱبن جبير. قال: ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة بلّغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم الرسول أيُّ رسول كان أن الرسل سواه بلّغوا. وقيل: أي ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وٱستراق أصحابه. وقال ٱبن قتيبة: أي ليعلم الجنّ أن الرسل قد بلّغوا ما نزل عليهم ولم يكونوا هم المبلّغين بٱستراق السمع عليهم. وقال مجاهد: ليعلم من كذّب الرسل أن المرسلين قد بلّغوا رسالات ربهم. وقراءة الجماعة «لِيَعْلَمَ» بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه. وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وحُميد ويعقوب بضم الياء أي لِيُعْلِم الناس أنّ الرسل قد أبلغوا. وقال الزجاج: أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] المعنى: ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط علمه بما عندهم، أي بما عند الرسل وما عند الملائكة. وقال ٱبن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم، فيبلّغوا رسالاته. ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ أي أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء. و«عَدَداً» نصب على الحال، أي أحصى كل شيء في حال العدد، وإن شئت على المصدر، أي أحصى وعدّ كل شيء عدداً، فيكون مصدر الفعل المحذوف. فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء. وقد بينا جميعه في الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى. والحمد لله وحده.

سورة المزمل

وهي سبع وعشرون آية. مَكِّيَّةٌ كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر

وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي تليها؛ ذكره الماورديّ. وقال الثعلبيّ: قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ إلى آخر السورة؛ فإنه نزل بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤)﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١)﴾ قال الأخفش سعيد: «المُزَّمِّل» أصله المتزمل؛ فأدغمت التاء في الزاي وكذلك «المدثّر». وقرأ أُبيّ بن كعب على الأصل «الْمُتَزَمِّل»و «المتدثّر». وسعيد: «الْمُزَّمِّل». وفي أصل «المزَّمِّل» قولان: أحدهما أنه المتحمل؛ يقال: زَمَل الشيء إذا حمله، ومنه الزَّاملة؛ لأنها تحمل القُمَاش. الثاني أن المزَّمِّل هو المتلفِّف؛ يقال: تزمل وتدثّر بثوبه إذا تغطى. وزمَّل غيره إذا غطّاه، وكل شيء لُفِّف فقد زمل ودثر؛ قال امرؤ القيس:

* كبِيرُ أنـاسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّـلِ *

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١)﴾ هذا خطاب للنبيّ ﷺ، وفيه ثلاثة أقوال: الأوّل قول عكرمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١)﴾ بالنبوّة والملتزم للرسالة. وعنه أيضاً: يا أيها الذي زُمِّلَ هذا الأمر أي حُمِّله ثم فتر، وكان يقرأ «يَاأَيُّهَا المُزَمِّلُ» بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك «المُدَثِّر» والمعنى المزمِّل نفسه والمدثِّر نفسه، أو الذي زَمَّله غيره. الثاني «يا أيها الْمُزَّمِّل» بالقرآن، قاله ابن عباس. الثالث المزمل بثيابه، قاله قتادة وغيره. قال النخعي: كان متزملاً بقطيفةِ عـائشـة[1]: بِمرطٍ طوله أربعة عشر

(١) لا أصل له عن عائشة، فالسورة مكية من أوائل ما نزل، والثعلبي يروي الموضوعات.

ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيّ ﷺ وهو يصلّي، واللّهِ ما كان خَزًّا ولا قَزًّا ولا مِرعِزاءَ ولا إبرِيسما ولا صُوفاً، كان سَداه شَعراً، ولُحمته وَبَراً، ذكره الثعلبيّ.

قلت: وهذا القول من عائشة يدلّ على أن السورة مَدَنِيّة؛ فإن النبيّ ﷺ لم يَبْن بها إلاّ في المدينة. وما ذُكر من أنها مكية لا يصحّ. والله أعلم. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه، فاشتد عليه فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾. وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال: «زمّلوني دثروني»[1] روي معناه عن ابن عباس. وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزمّل والمدّثر في أوّل الأمر؛ لأنه لم يكن بعد ادّثر شيئاً من تبليغ الرسالة. قال ابن العربي: واختلف في تأويل «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّل» فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له: يا من تلفّف في ثيابه أو في قطيفته قم؛ قاله إبراهيم وقتادة. ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل له: يا من تزمل بالنبوّة؛ قاله عكرمة. وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدّدة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما هو بلفظ الفاعل فهو باطل.

قلت: وقد بينا أنها على حذف المفعول: وقد قرىء بها، فهي صحيحة المعنى. قال: وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه قد قدّمنا أنه لا يحتاج إليه.

الثالثة: قال السُّهَيْلي: ليس المزمّل باسم من أسماء النبيّ ﷺ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدُّوه في أسمائه عليه السلام، وإنما المزمّل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثّر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما الملاطفة؛ فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه، باسم مشتق من حالته التي هو عليها؛ كقول النبيّ ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له: «قم يا أبا تراب»[2] إشعاراً له أنه غير عاتب عليه، وملاطفةً له. وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة: «قم يا نومان» وكان نائماً ملاطفةً له، وإشعاراً لِترك العتب والتأنيب. فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُم» فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه. والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع

(١) مضىٰ في سورة المدَّثر.

(٢) تقدم تخريجه في سورة الأحزاب.

المخاطب كل من عمل ذلك العمل وٱتصف بتلك الصفة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف. وحكى الفتح لخفته. قال عثمان بن جنّي: الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من ٱلتقاء الساكنين، فبأي حركة تحرّكت فقد وقع الغرض. وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدّية إلى مفعول، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدّى إليه إلا بواسطة؛ لا تقول: قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار. وقد قيل: إن «قم» هنا معناه صَلِّ؛ عبّر به عنه وٱستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الاستعمال.

الخامسة: «ٱلَّيْلَ» حدّ الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقد تقدّم بيانه في سورة «البقرة» وٱختلف: هل كان قيامه فرضاً وحتماً، أو كان ندباً وحضًّا؟ والدلائل تقوى أن قيامه كان حتماً وفرضاً؛ وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت. وأيضاً فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي. وٱختلف أيضاً: هل كان فرضاً على النبيّ ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال: الأوّل قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثاني قول ٱبن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبيّ ﷺ وعلى الأنبياء قبله. الثالث قول عائشة وٱبن عباس أيضاً وهو الصحيح؛ كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوْفَى:

[٦١٣٩] أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله. . . الحديث، وفيه: فقلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: ألست تقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قلت: بلى! قالت فإن الله عز وجل ٱفترض قيام الليل في أوّل هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله عز وجل خاتمتها ٱثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد فريضة. وذكر الحديث. وذكر وكيع ويَعْلَى قالا: حدّثنا مِسْعر عن سِماك الحنفي قال: سمعت ٱبن عباس يقول: لما أنزل أوّل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرُها، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة. وقال سعيد بن جبير: مكث النبيّ ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ

[٦١٣٩] أخرجه مسلم وغيره وتقدم.

﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ فخفّف الله عنهم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ ٱستثناء من الليل، أي صلّ الليل كله إلا يسيراً منه؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن، فٱستثنى منه القليل لراحة الجسد. والقليل من الشيء ما دون النصف؛ فحكي عن وهب بن منبّه أنه قال: القليل ما دون المعشار والسدس. وقال الكلبي ومقاتل: الثلث. ثم قال تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ فكان ذلك تخفيفاً إذ لم يكن زمان القيام محدوداً، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ﴾. وقال الأخفش: «نِصْفَهُ» أي أو نصفَه؛ يقال: أعطه درهما درهمين ثلاثة، يريد: أو درهمين أو ثلاثة. وقال الزجاج: «نِصفَه» بدل من الليل و﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ ٱستثناء من النصف. والضمير في «منه» و«عليه» للنصف. المعنى: قم نصف الليل أو ٱنقص من النصف قليلاً إلى الثلث أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين؛ فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن «نِصْفَهُ» بدل من قوله «قَلِيلاً» وكان مخيراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه؛ كأن تقدير الكلام: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

[٦١٤٠] «يَنزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوّل، فيقول أنا الملِك أنا الملِك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر». ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعاً وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى شطر الليل ـ أو ثلثاه ـ ينزل الله»... الحديث. رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك. وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا:

[٦١٤١] قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شَطْر الليل الأوّل، ثم يأمر منادياً يقول: هل من داعٍ يُستجاب له؟ هل من مستغفر يُغفر له؟ هل من

[٦١٤٠] صحيح. أخرجه مالك ١/ ٢١٤ والبخاري ١١٤٥ و ٦٣٢١ و ٧٤٩٤ ومسلم ٧٥٨ وأبو داود ١٣١٥ والترمذي ٤٤٦ وأحمد ٢/ ٢٨٢ وابن أبي عاصم ٤٩٢ والنسائي في اليوم والليلة ٤٨٠ و ٤٨٣ و ٤٨٤ وابن حبان ٩٢٠ و ٩٢١ من طرق كلهم من حديث أبي هريرة.

[٦١٤١] أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» ١٠٣١٦ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد معاً بهذا اللفظ. وصححه عبد الحق فيما ذكر القرطبي رحمه الله. لكنه غريب شاذ، حيث رواه الشيخان بخلاف لفظ النسائي.

سائل يُعطَى؟»؟ صحّحه أبو محمد عبد الحقّ؛ فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل. وخرّج ٱبن ماجه من حديث ٱبن شهاب، عن أبي سَلَمة وأبي عبد الله الأغر، عن أبي هريرة:

[٦١٤٢] أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخِر كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيَه؟ من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرني فأغفرَ له؟ حتى يطلع الفجر». فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوّله. قال علماؤنا: وبهذا الترتيب ٱنتظم الحديث والقرآن، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة. وفي الموطأ وغيره من حديث ٱبن عباس:

[٦١٤٣] بتُّ عند خالتي ميمونة حتى إذا ٱنتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ٱستيقظ رسول الله ﷺ، فقام إلى شَنّ معلق فتوضأ وضوءاً خفيفاً. وذكر الحديث.

السابعة: ٱختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل؛ فعن ٱبن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ المزمل: ٢٠] إلى آخر السورة. وقيل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]. وعن ٱبن عباس أيضاً: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠]. وعن عائشة أيضاً والشافعيّ ومقاتل وٱبن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل: الناسخ لذلك قوله تعالى: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ قاموا حتى ورِمَت أقدامهم وسُوقهم، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. قال بعض العلماء: وهو فرض نُسخ به فرض؛ كان على النبيّ ﷺ خاصة لفضله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

قلت: القول الأوّل يعم جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس. وقد ذهب الحسن وٱبن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلْب شاة. وعن الحسن أيضاً أنه قال في هذه الآية: الحمد لله تطوّع بعد الفريضة. وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لما جاء في

[٦١٤٢] صحيح. أخرجه ابن ماجه ١٣٦٦ من حديث أبي هريرة وإسناده صحيح على شرطهما.

[٦١٤٣] متفق عليه وتقدم في آخر سورة آل عمران.

قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

[٦١٤٤] كنت أجعل للنبيّ ﷺ حصيراً يصلّي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم كره ذلك، وخشي أن يُكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضَب، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال: «يا أيها الناس ٱكْلَفوا من الأعمال ما تُطِيقون، فإن الله لا يَمَلّ من الثواب، حتى تَمَلُّوا من العمل، وإن خيرَ العمل أدومُه وإن قلّ». فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ فكُتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة، حتى إن كان أحدُهم ليَربُط الحبل فيتعلقُ به، فمكثوا ثمانية أشهر، فرحمهم الله وأنزل: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوّعوا به.

قلت: حديث عائشة هذا ذكره الثعلبيّ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله: «وإن قَلّ»[1] وباقيه يدل على أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون. وقد تقدّم عنها في صحيح مسلم: حولاً[2]. وحكى الماورديّ عنها قولاً ثالثاً وهو ستة عشر شهراً، لم يذكر غيره عنها. وذكر عن ٱبن عباس أنه كان بين أوّل المزّمل وآخرها سنة؛ قال: فأما رسول الله ﷺ فقد كان فرضاً عليه. وفي نسخهِ عنه قولان: أحدهما: أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى. الثاني: أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته. وفي مدّة فرضه إلى أن نسخ قولان: أحدهما: المدّة المفروضة على أمته في القولين الماضيين، يريد قول ٱبن عباس حولاً، وقول عائشة ستة عشر شهراً. الثاني: أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف، ليميزه بفعل الرسالة؛ قاله ٱبن جبير.

قلت: هذا خلاف ما ذكره الثعلبيّ عن سعيد بن جبير حَسْب ما تقدّم فتأمله. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ أي لا تعجل بقراءة القرآن بل ٱقرأه

[٦١٤٤] غريب بهذا اللفظ. وقد تفرد به الثعلبي وهو عند البخاري ٧٣٠ ومسلم ٧٨٢ وأبي داود ١٣٦٨ وابن ماجه ٩٤٢ وابن حبان ٢٥٧١ من حديث عائشة دون ذكر سبب النزول ودون لفظ «يتنحنحُون ويتفلون» فإنه منكر باطل.

---

(١) تقدم مع الذي قبله.

(٢) تقدم برقم: ٦١٣٩.

في مَهَل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: أقرأه حرفاً حرفاً. وقال مجاهد: أحبّ الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه. والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل، بكسر العين وفتحها: إذا كان حسن التنضيد. وتقدّم بيانه في مقدّمة الكتاب. وروى الحسن أن النبيّ ﷺ مرّ برجل يقرأ آية ويبكي، فقال:

[٦١٤٥] «ألـم تسمعـوا إلـى قـول الله عـز وجـل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ هـذا الترتيل». وسمع عَلْقَمةُ رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رتّل القرآن، فِداه أبي وأمّي، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبَّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبَك بفهم معانيه، وسرَّك بالإقبال عليه. وروى عبد الله بن عمرو قال:

[٦١٤٦] قال النبيّ ﷺ: «يؤتَى بقارىء القرآن يوم القيامة، فيوقف في أوّل درج الجنة ويقال له اقرأ وارْتقِ ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» خرجه أبو داود وقد تقدّم في أوّل الكتاب. وروى أنس أن النبيّ ﷺ كان يمدّ صوته بالقراءة مدّاً[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ هو متصل بما فُرض من قيام الليل، أي سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله؛ لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بِحَمْل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيلٌ واللّهِ فرائضُهُ وحدوده. مجاهد: حلاله وحرامه. الحسن: العمل به. أبو العالية: ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلاً على المنافقين. وقيل: على الكفار، لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم، والكشف عما حرفه أهل الكتاب. السُّديّ: ثقيل بمعنى كريم؛ مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أي يكرم عليّ. الفرّاء: «ثقِيلاً» رزيناً ليس بالخفيف السَّفْساف لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل: ثَقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة.

[٦١٤٥] أخرجه ابن أبي شيبة كما في الدر ٦/٤٤٢ عن الحسن مرسلاً. ومع إرساله مراسيل الحسن ضعيفة.

[٦١٤٦] تقدم في المقدمة.

---

(١) مضىٰ في سورة الفاتحة.

وقيل: «ثَقِيلاً» أي ثابتاً كثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبداً. وقيل: هو القرآن نفسه؛ كما جاء في الخبر:

[٦١٤٧] أن النبيّ ﷺ كان إذا أوحِيَ إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها[1] ـ يعني صدرها ـ على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه. وفي الموطأ وغيره:

[٦١٤٨] أنه عليه السلام سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيُفصِم عنّي وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفصِم عنه وإن جبينه ليتَفصَّد عرقاً. قال ٱبن العربيّ: وهذا أولى؛ لأنه الحقيقة، وقد جاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال عليه السلام:

[٦١٤٩] «بُعِثت بالحنيفية السَّمْحة». وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إلٰه إلا الله؛ إذ في الخبر: خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان؛ ذكره القشيريّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل أي أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أوّلاً فأولاً؛ يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ٱبتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشيء وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله؛ فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨] والمراد إن ساعات الليل الناشئة، فٱكتفى بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى قيام الليل

[٦١٤٧] أخرجه البيهقي في الدلائل ٧/٥٣ وأحمد ٦/١١٨ من حديث عائشة، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/٢٥٧ وقال: ورجاله رجال الصحيح اهـ.

[٦١٤٨] صحيح. أخرجه البخاري (٢) و ٣٢١٥ ومسلم ٢٣٣٣ ومالك ١/٢٠٢ ـ ٢٠٣ وأحمد ٦/٢٥٧ وابن سعد ١/١٩٨ والترمذي ٣٦٣٨ والنسائي ٢/١٤٦ وابن حبان ٣٨ من حديث عائشة «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي...» الحديث.

[٦١٤٩] تقدم مراراً.

---

(١) الجران: باطن العنق، أي مدّت عنقها من التعب.

كالخاطئة والكاذبة؛ أي إن نشأة الليل هي أشدّ وطأ. وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ٱبن مسعود: الحَبَشة يقولون: نشأ أي قام. فلعله أراد أن الكلمة عربية، ولكنها شائعة في كلام الحبشة، غالبة عليهم، وإلا فليس في القرآن ما ليس في لغة العرب. وقد تقدّم بيان هذا في مقدّمة الكتاب مستوفًى.

الثانية - بيّن تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن، أعظم للأجر، وأجلب للثواب.

وٱختلف العلماء في المراد بناشئة الليل؛ فقال ٱبن عُمر وأنس بن مالك: هو ما بين المغرب والعشاء، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطي الابتداء، فكان بالأولية أحقّ؛ ومنه قول الشاعر:

ولــولا أَنْ يُقــالَ صَبَــا نُصَيــبٌ   لَقلــتُ بِنفسِــيَ النَّشَــأ الصِّغــارُ

وكان عليّ بن الحسين يصلّي بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل. وقال عطاء وعِكرمة: إنه بدء الليل. وقال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار، وهو الذي ٱختاره مالك بن أنس. قال ٱبن العربيّ: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة. وقالت عائشة وٱبن عباس أيضاً ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم. ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام ناشئة. فقال يَمان وٱبن كَيْسان: هو القيام من آخر الليل. وقال ٱبن عباس: كانت صلاتهم أوّل الليل. وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وفي الصحاح: وناشئة الليل أوّل ساعاته. وقال القُتَبيّ: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. وعن الحسن أيضاً: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهريّ.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وٱبن أبي إسحاق ومجاهد وحُميد وٱبن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حَيْوة «وِطَاء» بكسر الواو وفتح الطاء والمدّ، وٱختاره أبو عبيد. الباقون: «وَطأً» بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، وٱختاره أبو حاتم؛ من قولك: ٱشتدت على القوم وطأة سلطانهم. أي ثقل عليهم ما حمَّلهم من المُؤَن، ومنه قول النبيّ ﷺ:

[٦١٥٠] «اللهم ٱشدد وطأتك على مُضَر» فالمعنى أنها أثقل على المصلّي من ساعات النهار. وذلك أن الليل وقت منام وتودّع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل

[٦١٥٠] متفق عليه وتقدم.

المشقة العظيمة. ومن مدّ فهو مصدر واطأت وِطاء ومواطأة أي وافقته. ٱبن زيد: واطأته على الأمر مواطأة: إذا وافقته من الوِفاق، وفلان يواطىء ٱسمه ٱسمي، وتواطأوا عليه أي توافقوا؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لانقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وٱبن أبي مُلَيكة وغيرهما. وقال ٱبن عباس بمعناه، أي يواطىء السمع القلب؛ قال الله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي ليوافقوا. وقيل: المعنى أشد مِهاداً للتصرف في التفكر والتدبر. والوِطاء خلاف الغِطاء. وقيل: «أَشَدُّ وَطْأً» بسكون الطاء وفتح الواو أي أشد ثباتاً من النهار؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله، فيكون ذلك أثبت للعمل وأنفى[1] لما يلهي ويشغل القلب. والوطء الثبات، تقول: وطئت الأرض بقدَمي. وقال الأخفش: أشد قياماً. الفراء: أثبت قراءة وقياماً. وعنه: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت فراغ عن ٱشتغال المعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبي: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي أشد نشاطاً للمصلّي؛ لأنه في زمان راحته. وقال عبادة: «أَشَدُّ وَطأً» أي نشاطاً للمصلّي وأخفّ، وأثبت للقراءة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي القراءة بالليل أقوم منها بالنهار؛ أي أشد ٱستقامة وٱستمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أي أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. وقال أبو علي: «أَقْوَمُ قِيلاً» أي أشد ٱستقامة لفراغ البال بالليل. وقيل: أي أعجل إجابة للدعاء. حكاه ٱبن شجرة. وقال عِكرمة: عبادة الليل أتم نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة. وعن زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقّه في القرآن. وعن الأعمش قال: قرأ أنس بن مالك «إن نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلاً» فقيل له: «وَأَقْوَمُ قِيلاً» فقال: أقوم وأصوب وأهيأ سواء[2]. قال أبو بكر الأنباريّ: وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال: من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب، إذا لم يخالف معنًى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له، وٱحتجوا بقول أنس هذا. وهو قول لا يُعرَّج عليه ولا يلتفت إلى قائله؛ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها وٱشتملت على عامتها، لجاز أن يقرأ في موضع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]: الشكر للباري ملك المخلوقين، ويتسع الأمر في هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن، ويكون التالي له مفترياً على الله عز وجل، كاذباً على رسوله ﷺ، ولا حجة لهم في قول

(١) في الأصل «وأتفى».
(٢) أخرجه الطبري ٣٥٢٢٥ عن الأعمش عن أنس، وفيه عنعنةُ الأعمش، وهو مدلس.

ٱبن مسعود: نزل القرآن على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدكم: هَلُمّ وتعال وأقبل؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبيّ ﷺ إذا ٱختلفت ألفاظها، وٱتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في هلمّ، وتعال، وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي ﷺ وأصحابه وتابعوهم رضي الله عنهم، فإنه من أورد حرفاً منه في القرآن بهت ومال وخرج من مذهب الصواب. قال أبو بكر: والحديث[1] الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم؛ لأنه مبني على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به، من قِبَل أن الأعمش رأىٰ أنساً ولم يسمع منه.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة؛ أي تصرُّفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً. والسَبْح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديد الجري؛ قال ٱمرؤ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى ... أَثَرْنَ الغُبارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[2]

وقيل: السبح الفراغ؛ أي إن لك فراغاً للحاجات بالنهار. وقيل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا﴾ أي نوماً، والتسبح التمدّد؛ ذكره الخليل. وعن ٱبن عباس وعطاء: «سَبْحاً طَوِيلاً» يعني فراغاً طويلاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك. وقال الزجاج: إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ الاستدراك.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل «سَبْخا» بالخاء المعجمة. قال المهدويّ: ومعناه النوم؛ روي ذلك عن القارئين بهذه القراءة. وقيل: معناه الخفة والسَّعة والاستراحة؛ ومنه قول النبيّ ﷺ لعائشة وقد دعت على سارق ردائها:

[٦١٥١] «لا تُسبِّخِي عنه بدعائك عليه». أي لا تخَفِّفي عنه إثمه؛ قال الشاعر:

فَسَبِّخْ عليكَ الْهَمَّ وٱعلم بِأنَّهُ ... إذا قَدَّرَ الرحْمنُ شيئاً فَكَائِنُ

الأصمعيّ: يقال سَبَّخ اللَّهُ عنك الحُمَّى أي خفّفها. وسَبَخ الحَرُّ: فتر وخَفَّ.

[٦١٥١] تقدم تخريجه، وهو حديث ضعيف.

---

(١) ورد عن أنس من قوله كما تقدم قبل أسطر وليس بمرفوع وهو منقطع بين أنس والأعمش.

(٢) المسحّ: معناه يصب الجرى صبا.
الونى: الفتور والكلال. الكديد: الموضع الغليظ. المركل: الذي يركل بالأرجل.

والتَّسبِيخ النوم الشديد. والتَّسبيخ أيضاً توسيع القطن والكَتَّان والصوف وتنفيشها؛ يقال للمرأة: سبخي قطنك. والسَّبيخُ من القطن ما يسبَّخ بعد النَّدْف، أي يُلفّ لتغزله المرأة، والقطعة منه سَبِيخة، وكذلك من الصوف والوبر. ويقال لقطع القطن سبائخ؛ قال الأخطل يصف القُنَّاص والكلاب:

فأَرسَلُوهُنَّ يُذْرِينَ التّرابَ كما يُذْرِي سَبَائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارِ

وقال ثعلب: السَّبْخ بالخاء التردّد والاضطراب، والسَّبْخ أيضاً السكون؛ ومنه قول النبي ﷺ:

[٦١٥٢] «الحُمّى من فيح جهنم، فسبِّخوها بالماء» أي سكِّنوها. وقال أبو عمرو: السَّبْخ: النوم والفراغ.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، وتكون بمعنى السبح، بالحاء غير المعجمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي أدعه بأسمائه الحسنى، ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة. وقيل: أي أقصد بعملك وجه ربك. وقال سهل: أقرأ باسم الله الرحمن الرحيم في أبتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك، وتقطعك عما سواه. وقيل: أذكر أسم ربك في وعده ووعيده لتَوَفَّر[1] على طاعته وتعدل عن معصيته. وقال الكلبيّ: صلّ لربك أي بالنهار.

قلت: وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار؛ إذ هو قسيمه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] على ما تقدّم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ التبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل؛ أي أنقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيره. يقال: بتلت الشيء أي قطعته، ومنه قولهم. طلقها بَتّةً بَتلة، وهذه صدقة بتة بتلة؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها؛ أي قُطِع ملكه

[٦١٥٢] صحيح. لكن بلفظ «فأبردوها» ورواية «فأطفئوها» بدل «فسبخوها» حيث أخرجه البخاري ٣٢٦٤ و ٥٧٢٣ ومسلم ٢٢٠٩ وأحمد ٢/٢١ وابن أبي شيبة ٨/٨١ وابن حبان ٦٠٦٦ و ٦٠٦٧ من حديث ابن عمر وكرره مسلم ٢٢١٢ من حديث أبي رافع و ٢٢١٠ من حديث عائشة و ٢٢١١ من حديث أسماء بنت أبي بكر وله شواهد.

(١) عند الماوردي ٦/١٢٨ «لتتوفر».

عنها بالكلية؛ ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى، ويقال للراهب متبتّل؛ لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة. قال:

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كأنَّهَا مَنارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ[1]

وفي الحديث النهي عن التبتل[2]، وهو الانقطاع عن الناس والجماعات. وقيل: إن أصله عند العرب التفرد؛ قاله ابن عرفة. والأوّل أقوى لما ذكرنا. ويقال: كيف قال: تَبْتِيلاً، ولم يقل تَبتُّلاً؟ قيل له: لأن معنى تَبتَّل بَتَّل نفسه، فجيء به على معناه مراعاة لحقّ الفواصل.

الثالثة ـ قد مضى في «المائدة» في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] كراهة لمن تبتَّل وانقطع وسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية. قال ابن العربيّ: وأما اليوم وقد مَرِجت عهودُ الناس، وخفّت أماناتهم، واستولى الحرام على الحُطام، فالعزلة خير من الخُلْطة، والعُزْبة أفضل من التأهُّل، ولكن معنى الآية: انقطِعْ عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله، وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلص له العبادة، ولم يرد التَّبتُّل، فصار التبتل مأموراً به في القرآن، منهيّاً عنه في السنة، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي، فلا يتناقضان، وإنما بعث ليبيِّن للناس ما نزل إليهم؛ فالتبتّل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥] والتبتُّل المنهيّ عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خيرُ مال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعف الجبال ومواقع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ أهل الحرمين وابن مُحَيْصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص «رَبُّ» بالرفع على الابتداء والخبر ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وقيل: على إضمار «هو». الباقون «رَبِّ» بالخفض على نعت الربّ تعالى في قوله تعالى:

(١) البيت لامرىء القيس.

(٢) ورد من حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه أحمد ١٧٦/١ والنسائي ٥٨/٦ وهو حديث صحيح وقد تقدم. ومن حديث سمرة بن جندب أخرجه أحمد ١٧/٥ ومن حديث عائشة أخرجه النسائي ٥٩/٦ وفي الباب أحاديث كثيرة تقدم أكثرها في غير موضع.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ «رَبِّ الْمَشْرِقِ»، ومن علم أنه ربّ المشارق والمغارب ٱنقطع بعمله وأمله إليه. ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ أي قائماً بأمورك. وقيل: كفيلاً بما وعدك.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي من الأذى والسبّ والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ أي لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك؛ قاله قتادة وغيره. وقال أبو الدرداء: إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقلْيهم أو لتلعنهم.

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي أرض بي لعقابهم. نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين. وقال مقاتل: نزلت في المطعِمين يوم بدر وهم عشرة. وقد تقدّم ذكرهم في «الأنفال». وقال يحيى بن سلاّم: إنهم بنو المغيرة. وقال سعيد بن جُبير: أخبرت أنهم ٱثنا عشر رجلاً. ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي أولي الغنى والترفّه واللذة في الدنيا ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ يعني إلى مدّة آجالهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر. وقيل: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ يعني إلى مدة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢﴾ الأنكال: القيود. عن الحسن ومجاهد وغيرهما. واحدها نِكْل، وهو ما منع الإنسان من الحركة. وقيل سمّي نِكلاً، لأنه يُنكَّل به. قال الشعبيّ: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا ٱسْتَفَلت بهم. وقال الكلبيّ: الأنكال: الأغلال، والأوّل أعرف في اللغة؛ ومنه قول الخنساء:

دَعَـــاكَ فَقَطَّعْـــتَ أَنْكَـــالَـــهُ ... وقَـــدْ كُـــنَّ قَبْلَـــكَ لا تُقْطَـــعُ

وقيل: إنه أنواع العذاب الشديد؛ قاله مقاتل. وقد جاء أن النبيّ ﷺ قال:

[٦١٥٣] «إن الله يحبّ النَّكَل على النَّكَل» بالتحريك، قاله الجوهريّ. قيل: وما

[٦١٥٣] ذكره الماوردي في تفسيره ٦/ ١٣٠ بدون إسناد وقال مخرجه: لم أهتد إلىٰ تخريجه اهـ وذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٤٣٧ والزمخشري في الفائق ٤/ ٢٣ بدون إسناد أيضاً. فالظاهر أنه لا أصل له، والله أعلم.

النَّكَل؟ قال: «الرجل القويّ المجرَّب، على الفرس القويّ المجرَّب» ذكره الماورديّ. قال: ومن ذلك سمي القيد نِكْلاً لقوته، وكذلك الغُلّ، وكل عذاب قوي فٱشتد. والجحيم النار المؤجَّجة. ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي غير سائغ؛ يأخذ بالحلق، لا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغِسلِين والزُّقوم والضّريع؛ قاله ٱبن عباس. وعنه أيضاً: أنه شوك يدخل الحلق، فلا ينزل ولا يخرج. وقال الزجاج: أي طعامهم الضّريع؛ كما قال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية: ٦] وهو شوك كالعَوْسَج. وقال مجاهد: هو الزَّقوم، كما قال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٤]. والمعنى واحد. وقال حُمْران بن أَعْيَن:

[٦١٥٤] قرأ النبيّ ﷺ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ فصعق. وقال خُلَيد بن حسان: أمسي الحسن عندنا صائماً، فأتيته بطعام فعرضتْ له هذه الآية ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ فقال: ٱرفع طعامك. فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت له هذه الآية، فقال: ٱرفعوه. ومثله في الثالثة؛ فٱنطلق ٱبنه إلى ثابت البُنَاني ويزيدَ الضَّبيّ ويحيى البكّاء فحدّثهم، فجاؤوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سَوِيق. والغُصَة: الشَّجا، وهو ما يَنشَبُ في الحلق من عَظْم أو غيره، وجمعها غُصَصٌ. والغَصَصُ بالفتح مصدر قولك: غَصِصْتَ يا رجل تَغَصّ، فأنت غاصّ بالطعام وغصّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصّ بالقوم أي ممتلىء بهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي تتحرّك وتضطرب بمن عليها. وٱنتصب «يوم» على الظرف أي ينكل بهم ويعذّبون ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ . وقيل: بنزع الخافض؛ يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال. وقيل: العامل «ذَرْنِي» أي وذرني والمكذبين يوم ترجُف الأرض والجبال. ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ أي وتكون. والكثيب الرمل المجتمع ـ قال حسان:

عَـرَفْـتُ دِيـار زَيْنَـبَ بـالْكَثِيـبِ ... كَخَطِّ الْوَحْيِ في الْوَرَقِ الْقَشِيبِ(1)

والمَهِيل: الذي يمرّ تحت الأرجل. قال الضحاك والكلبيّ: المهيل: هو الذي إذا

[٦١٥٤] ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٣٥٢٦٨ عن حمران بن أعين مرسلاً ومع إرساله حمران هذا ضعيف قال عنه ابن معين: ليس بشيء. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢/٤٣٦ عن حمران عن أبي حرب بن أبي الأسود به وصوب كونه عن حمران فحسب وهو مرسل وضعفه به. وهو شبه موضوع.

---

(١) الوحي هنا بمعنى: الكتابة ـ القشيب: الجديد. شبه الشاعر آثار الديار بالسطور.

وطئته بالقدم زلّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله ٱنهال. وقال ٱبن عباس: «مَهِيلاً» أي رملاً سائلاً متناثراً. وأصله مَهْيول وهو مَفْعول من قولك: هِلْت عليه التراب أَهِيله هيلاً: إذا صببته. يقال: مَهِيل ومَهْيول، ومَكِيل ومَكْيول، ومَدِين ومَدْيون، ومَعِين ومَعْيون؛ قال الشاعر(١):

قد كان قَوْمُك يَحْسَبونَكَ سَيِّداً وإخَالُ أنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

وفي حديث النبيّ ﷺ أنهم شكوا إليه الجدُوبة؛ فقال:

[٦١٥٥] «أتكيلون أم تَهِيلون» قالوا: نَهِيل. قال «كِيلوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه». وأَهَلْت الدقيق لغة في هِلْت فهو مُهال ومَهِيل. وإنما حذفت الواو، لأن الياء تثقل فيها الضمة، فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يريد النبيّ ﷺ أرسله إلى قريش ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ وهو موسى ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي كذب به ولم يؤمن. قال مقاتل: ذكَر موسى وفرعون؛ لأن أهل مكة ٱزدرَوا محمداً ﷺ وٱستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ٱزدرى موسى؛ لأنه ربّاه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]. قال المهدويّ: ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدّم ذكره؛ ولذلك ٱختير في أوّل الكتب سلام عليكم، وفي آخرها السلام عليكم. ﴿وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي ثقيلاً شديداً. وضَرْبٌ وبيل وعذاب وبيل: أي شديد؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد. ومنه مطر وابل أي شديد؛ قاله الأخفش. وقال الزجاج: أي ثقيلاً غليظاً. ومنه قيل للمطر وابل. وقيل: مُهلكاً والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة قال:

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى وجَدْتِ مَرَارةَ الْكَلأ الْوَبِيلِ

واستوبل فلان كذا: أي لم يَحمَد عاقبته. وماء وبيل: أي وخيم غير مريء، وَكَلأٌ مستَوْبَل وطعام وبيل ومُستَوبَلٌ: إذا لم يُمْرِئ ولم يُسْتَمْرأ؛ قال زهير:

[٦١٥٥] ذكره ابن الأثير في النهاية ٥/٢٨٨ هكذا بدون إسناد، ولفظ «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه» أخرجه البخاري ٢١٢٨ وابن ماجه ٢٢٣٢ والقضاعي ٦٩٨ وأحمد ٥/٤١٤ من حديث المقدام بن معدي كرب.

---

(١) هو عباس بن مرداس.

فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثم أَصْدَرُوا　　إِلَى كَلأٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ

وقالت الخنساء:

لَقَدْ أَكَلَتْ بَجِيلَةُ يومَ لاَقَتْ　　فَوَارِسَ مَالِك أَكْلاً وَبِيلاً

والوبيل أيضاً: العصا الضخمة؛ قال:

لوَ اْصْبَحَ في يُمْنى يَدَيَّ زِمامُها　　وفي كَفِّيَ الأُخْرى وَبِيلٌ تُحاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر الباء، والمَوْبِلة أيضاً: الحُزْمة من الحطب، وكذلك الوَبِيل، قال طَرفة:

* عَقِيلَةُ شَيْخ كالوَبِيلِ يَلَنْدَد[1] *

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ هو توبيخ وتقريع، أي كيف تتقونَ العذاب إن كفرتم. وفيه تقديم وتأخير، أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم. وكذا قراءة عبد الله وعطية. قال الحسن: أي بأي صلاة تتقون العذاب؟ بأي صوم تتقون العذاب؟ وفيه إضمار، أي كيف تتقون عذاب يوم. وقال قتادة: واللّهِ ما يتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء. و «يَوْماً» مفعول بـ«ـتَتَّقُونَ» على هذه القراءة وليس بظرف، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول «كَفَرْتُمْ». وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله: ﴿كَفَرْتُمْ﴾ والابتداء «يَوْماً» يذهب إلى أن اليوم مفعول «يجعل» والفعل لله عز وجل، وكأنه قال: يجعل الله الولدان شيباً في يوم. قال ٱبن الأنباري: وهذا لا يصلح؛ لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدّة هوله. المهدويّ: والضمير في «يجعل» يجوز أن يكون لله عز وجل، ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف؛ كأنه قال: يوماً يجعل الله الولدان فيه شيباً. ٱبن الأنباريّ: ومنهم من نصب اليوم بـ «ـكفرتم» وهذا قبيح؛ لأن اليوم إذا عُلّق بـ «ـكفرتم» ٱحتاج إلى صفة؛ أي كفرتم بيوم. فإن ٱحتج محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها، ٱحتججنا عليه بقراءة عبد الله «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْماً».

قلت: هذه القراءة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير. وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ«ـيوماً» مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها؛ أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء. وقرأ أبو السَّمَّال قَعْنَب «فكيف تتقونِ» بكسر

---

(١) يلندد: شديد الخصومة.

النون على الإضافة. و ﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾ الصبيان. وقال السُّدي: هم أولاد الزنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصح؛ أي يشيب فيه الصغير من غير كبر. وذلك حين يقال: «يا آدم قم فٱبعث بَعْث النار»[1]. على ما تقدّم في أوّل سورة «الحج». قال القُشيريّ: ثم إن أهل الجنة يغيّر الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد. وقيل: هذا ضربُ مَثَل لشدّة ذلك اليوم وهو مجاز؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه وِلدان، ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لَشابَ رأسه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن يُنْفَخ في الصور نفخة الصعْق؛ فالله أعلم. الزمخشريّ: وقد مّر بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثَّغامة[2]، فقال: أرِيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيّب.

قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ أي متشققة لشدّته. ومعنى «بِهِ» أي فيه؛ أي في ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مُثْقَلة به إثقالاً يؤدّي إلى ٱنفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقيل: «بِهِ» أي له، أي لذلك اليوم؛ يقال: فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام وفي: متقاربة في مثل هذا الموضع؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] أي في يوم القيامة. وقيل: «بِهِ» أي بالأمر أي السماء مُنْفطر بما يجعل الولدان شِيباً. وقيل: منفطر بالله، أي بأمره. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها السقف؛ تقول: هذا سماء البيت؛ قال الشاعر:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إلَيْهِ قوماً ... لَحِقْنا بالسَّماءِ وبالسَّحابِ

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال الفراء: السماء يذكر ويؤنث. وقال أبو علي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: ٢٠]. وقال أبو عليّ أيضاً: أي السماء ذات ٱنفطار؛ كقولهم: ٱمرأة مرضع، أي ذات إرضاع، فجرى على طريق النسب. ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ أي بالقيامة والحساب والجزاء ﴿مَفۡعُولًا ١٨﴾ كائناً لا شك فيه ولا خُلْف. وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كلّه.

---

(١) تقدم في سورة الحج.

(٢) الثغامة: شجرة تبيض كأنها الثلج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عِظَة. وقيل: آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ أي طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب، فقد أمكن له؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل. ثم قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عَبَس: ١٢] قال الثعلبيّ: والأشبه أنه غير منسوخ.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ كما تقدّم، وهي الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدّم. «تَقُومُ» معناه تصلّي و ﴿أَدْنَىٰ﴾ أي أقلّ. وقرأ ٱبن السَّمَيْفَع وأبو حَيْوة وهشام عن أهل الشام ﴿ثُلْثَيِ﴾ بإسكان اللام. ﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفاً على «ثُلُثَي»؛ المعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه. وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه. وقرأ ٱبن كثير والكوفيون «ونِصْفَهُ وَثُلُثَه» بالنصب عطفاً على «أَدْنَى» التقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفَه وثلثَه. قال الفراء: وهو أشبه بالصواب؛ لأنه قال أقلّ من الثلثين، ثم ذكر نفس القِلّة لا أقلّ من القلّة. القُشَيْري: وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفي الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه، وينقصون منه. ويحتمل أنهم أُمروا بقيام نصف الليل، ورُخّص لهم في الزيادة والنقصان، فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين، وفي النصف إلى الثلث. ويحتمل أنهم قدّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفي بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نُسخ عنهم. وقال قوم: إنما ٱفترض الله عليهم الربع، وكانوا ينقصون من الربع. وهذا القول تحكُّم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحرّي والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ. ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به. وقيل: أي لن تطيقوا قيام الليل. والأوّل أصح؛ فإنّ قيام الليل ما فُرض كله قطّ. قال مقاتل وغيره: لما نزلت ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ شقّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطيء، فٱنتفخت أقدامهم، وٱنْتُقِعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفّف عنهم؛ فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ﴾ و «أَنْ» مخفّفة من الثقيلة؛ أي علم أنكم لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، وٱحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم في ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي فتاب عليكم من فرض القيام إذْ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عُسْر إلى يُسْر. وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرّي، فخّفف عنهم ذلك التحرّي. وقيل: معنى ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يخلقهما مقدَّرين؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]. ٱبن العربي: تقدير الخلقة لا يتعلّق به حكم، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ فيه قولان: أحدهما أن المراد نفس القراءة؛ أي فٱقرؤوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم. قال السّديّ: مائة آية. الحسن: من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كُتب من القانتين. وقال سعيد: خمسون آية.

قلت: قول كعب أصح؛ لقوله عليه السلام:

[٦١٥٦] «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المُقْنطِرين» خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو. وقد ذكرناه في مقدّمة الكتاب والحمد لله. القول الثاني: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي فصلّوا ما تيسّر عليكم، والصلاة تسمى قرآناً؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي صلاة الفجر. ٱبن العربي: وهو الأصح؛ لأنه عن

[٦١٥٦] ضعيف. تقدم في المقدمة.

الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

قلت: الأوّل أصح حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الثاني مجاز؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله.

الخامسة ـ قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ نَسخَ قيام الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه. ثم ٱحتمل قول الله عز وجل: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معنيين أحدهما أن يكون فرضاً ثانياً؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره. والآخر أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩] فاحتمل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي يتهجد بغير الذي فُرِض عليه مما تيسّر منه. قال الشافعيّ: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسُّنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس.

السادسة ـ قال القُشيريّ أبو نصر: والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حقّ الأمة، وبقيت الفريضة في حقّ النبيّ ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فالهدى لا بدّ منه، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل، ولكن فُوّض قدره إلى ٱختيار المصلّي، وعلى هذا فقد قال قوم: فَرْض قيام الليل بالقليل باقٍ؛ وهو مذهب الحسن. وقال قوم: نسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً؛ وهو مذهب الشافعي. ولعل الفريضة التي بقيت في حقّ النبيّ ﷺ هي هذا، وهو قيامه، ومقداره مفوّض إلى خِيرتِه. وإذا ثبت أن القيام ليس فرضاً فقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معناه ٱقرؤوا إن تيسّر عليكم ذلك، وصلّوا إن شئتم. وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرّر في حقّ النبيّ ﷺ أيضاً، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه. وقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ محمول على حقيقة النفل. ومن قال: نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ [الروم: ١٧]، ما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع. وقيل: وقع النسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ والخطاب للنبيّ ﷺ وللأمة، كما أنّ فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ كانت عامة له ولغيره. وقد قيل: إن فريضة الله ٱمتدّت إلى ما بعد الهجرة، ونسخت بالمدينة؛

لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإنما فرض القتال بالمدينة؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة، فقيام الليل نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ نَسَخ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ وجوبَ صلاة الليل.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ الآية؛ بيّن سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخَلْق منهم المريض، ويشّق عليهم قيام الليل، ويشقّ عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفّف الله عن الكل لأجل هؤلاء. و «أَنْ» في «أَنْ سَيَكُونُ» مخففة من الثقيلة؛ أي علم أنه سيكون.

الثامنة ـ سَوّى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله. وروى إبراهيم عن علقمة قال:

[٦١٥٧] قال رسول الله ﷺ: «ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقال ابن مسعود: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء. وقرأ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وقال ابن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحبّ إليّ من الموت بين شعبتي رَحْلِي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض. وقال طاوس: الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله. وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهز سفينة حِنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بِعِ الطعام يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غدٍ؛ فوافق سعةً في السعر؛ فقال التجار للوَكيل: إن أخرته جمعةً ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدّق به على فقراء

[٦١٥٧] ضعيف. ذكره الزمخشري في الكشاف ٦٤٣/٤ عن ابن مسعود موقوفاً فقال الحافظ في تخريجه: أخرجه الثعلبي من رواية فرقد السبخي عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفاً وفرقد ضعيف، ووصله ابن مردويه بذكر علقمة، عن ابن مسعود رفعه ا هـ. فالخبر واهٍ والراجح الوقف ومداره علىٰ فرقد وهو واهٍ.

البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كَفافاً لا عليّ ولا لي. ويروى أن غلاماً من أهل مكة كان ملازماً للمسجد، فافتقده ٱبن عمر، فمشى إلى بيته، فقالت أمه: هو على طعام له يبيعه؛ فلقيه فقال له: يا بنيّ! مالك وللطعام؟ فهلاّ إبلاً، فهلاّ بقراً، فهلاّ غنماً! إن صاحب الطعام يحب المَحْل، وصاحب الماشية يحب الغيث.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي صلّوا ما أمكن؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدّم. قال ٱبن العربي وقد قال قوم: إن فرض قيام الليل سُنَّ في ركعتين من هذه الآية؛ قاله البخاريّ وغيره، وعقد باباً ذكر فيه حديث:

[٦١٥٨] «يَعقِدُ الشيطانُ على قافية[1] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب على كل عُقْدَة مكانها: عليك ليل طويل فٱرقد. فإن ٱستيقظ فذكر الله ٱنحلت عُقْدة، فإن توضأ ٱنحلت عُقْدة، فإن صلّى ٱنحلت عُقَده كلّها، فأصبح نشيطاً طيّب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» وذكر حديث سَمُرة بن جُنْدُبَ عن النبيّ ﷺ في الرؤيا قال:

[٦١٥٩] «أما الذي يُثْلَغ[2] رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه[3]، وينام عن الصلاة المكتوبة». وحديث عبد الله بن مسعود قال:

[٦١٦٠] ذكر عند النبيّ ﷺ رجل ينام الليل كلّه فقال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه» فقال ٱبن العربيّ: فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة؛ فيحمل المطلق على المقيد لاحتماله له، وتسقط الدعوى ممَّن عيَّنه لقيام الليل. وفي الصحيح واللفظُ للبخاري: قال عبد الله بن عمرو:

[٦١٦١] وقال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل» ولو كان فرضاً ما أقره النبيّ ﷺ، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان

[٦١٥٨] مضىٰ برقم: ٢/٢٣.

[٦١٥٩] صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٧ وابن حبان ٦٥٥ وأحمد ٥/٨ و ٩ من حديث سمرة بن جندب مطولاً.

[٦١٦٠] مضىٰ تخريجه.

[٦١٦١] متفق عليه، وتقدم مراراً.

---

(١) قافية الرأس: مؤخره، وقيل: وسطه والمراد: أنه يريد تثقيله بالنوم وإطالته.

(٢) الثلغ: الضرب لشيء رطب بشيء يابس حتى ينشدخ.

(٣) يرفضه: يتركه.

يذمه غاية الذمّ، وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر قال:

[٦١٦٢] كان الرجل في حياة النبيّ ﷺ إذا رأى رؤيا قصّها على النبيّ ﷺ، وكنت غلاماً شابًّا عَزَباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطويّة كطيّ البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. قال: ولقينا مَلَك آخر، فقال لي: لم تُرَعْ[1]. فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال: «نِعْمَ الرجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل»، فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً؛ فلو كان تَرْكُ القيام معصية لما قال له المَلَك: لم تُرَعْ. والله أعلم.

العاشرة - إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض، وأن قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾؛ ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة، فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة؛ فقال مالك والشافعيّ: فاتحة الكتاب لا يجزىء العدول عنها، ولا الاقتصار على بعضها، وقدّره أبو حنيفة بآية واحدة، من أيّ القرآن كانت. وعنه ثلاث آيات؛ لأنها أقلّ سورة. ذكر القول الأوّل الماورديّ والثاني ٱبن العربيّ. والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعيّ، على ما بيّناه في سورة «الفاتحة» أوّل الكتاب والحمد لله. وقيل: إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة؛ قال الماورديّ: فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولاً على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب. وهذا قول الأكثرين؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأ لوجب عليه أن يحفظه. الثاني أنه محمول على الوجوب؛ ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه؛ لأن حِفظ القرآن من القُرَب المستحبة دون الواجبة. وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال: أحدها جميع القرآن؛ لأن الله تعالى يسره على عبادِه؛ قاله الضحاك. الثاني ثلث القرآن؛ حكاه جويبر. الثالث مائتا آية؛ قاله السديّ. الرابع مائة آية؛ قاله ٱبن عباس. الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة؛ قاله أبو خالد الكنانيّ.

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس

[٦١٦٢] صحيح. أخرجه البخاري ١١٢١ و ١١٢٢ و ٣٨٣٨ و ٣٨٣٩ و ٧٠٣٠ و ٧٠٣١ ومسلم ٢٤٧٩ وأحمد ٢/١٤٦ والدارمي ٢/١٢٧ وابن حبان ٧٠٧٠ من طرق عن ابن عمر مرفوعاً.

---

(١) لم ترع: أي لا روع ولا خوف عليك بعد ذلك.

لوقتها. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم؛ قاله عكرمة وقتادة. وقال الحارث العُكْلي: صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك. وقيل: صدقة التطوّع. وقيل: كل أفعال الخير. وقال ٱبن عباس: طاعة الله والإخلاص له.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيّب. وقد مضى في سورة «الحديد» بيانه. وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل. وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وروي عن عمر بن الخطاب أنه ٱتخذ حَيْساً ـ يعني تمراً بلبن ـ فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه. فقال بعضهم: ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر: لكن رب المسكين يدري ما هو. وكأنه تأوّلَ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ أي مما تركتم وخلفتم، ومن الشّح والتقصير. ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ قال أبو هريرة: الجنة؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجراً؛ لإعطائه بالحسنة عشراً. ونصب «خيرا وأَعْظَم» على المفعول الثاني لـ «تَجِدُوهُ» و «هو»: فصل عند البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب. و «أَجْرَاً» تمييز. ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان قبْلَ التوبة ﴿رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ لكم بعدها؛ قاله سعيد بن جبير. ختمت السورة [والحمد لله][1].

(١) زيد من بعض النسخ.

سورة المدثر

مكية في قول الجميع. وهي ست وخمسون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ أي يا ذا الذي قد تدثّر بثيابه، أي تغشّى بها ونام، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقرأ أبيّ «الْمُتَدثّر» على الأصل. وقال مقاتل: معظم هذه السورة في الوليد بن المغيرة. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله ﷺ كان يُحدِّث ـ قال:

[٦١٦٣] قال رسول الله ﷺ وهو يحدّث عن فَترة الوحي ـ قال في حديثه: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض». قال رسول الله ﷺ: «فجُئِثْتُ[1] منه فَرَقاً، فرجعت فقلت زمّلوني زمّلوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ »في رواية ـ قبل أن تفرض الصلاة ـ وهي الأوثان قال: «ثم تتابع الوحي». خرجه الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن صحيح. قال مسلم: وحدّثنا زهير بن حرب، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا الأوزاعيّ قال: سمعت يحيى يقول:

[٦١٦٤] سألت أبا سلمة: أيُّ القرآن أنزل قبلُ؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ فقلت: أو «ٱقرأ». فقال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبلُ؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾

[٦١٦٣] صحيح. أخرجه البخاري (٤) و٣٢٣٨ و٤٩٢٥ و٤٩٢٦ و٤٩٥٤ و٦٢١٤ ومسلم ١٦١ من وجوه، والترمذي ٢٣٢٥ وابن حبان ٣٤ و٣٥ كلهم من حديث جابر بألفاظ متقاربة واللفظ لمسلم.

[٦١٦٤] تقدم مع ما قبله.

---

(١) أي ذُعرت وخفت.

فقلت: أو «ٱقرأ» فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أَرَ أحداً، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل ﷺ - فأخذتني رَجْفةٌ شديدةٌ، فأتيت خديجة فقلت دثِّروني، فدثَّروني فصبُّوا عليّ ماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ خرجه البخاريّ وقال فيه: «فأتيت خديجة فقلت دثَّروني وصُبُّوا عليّ ماءً بارداً، فدثَّروني وصَبُّوا عليّ ماءً بارداً فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾. ٱبن العربيّ: وقد قال بعض المفسرين: إنه جرى على النبيّ ﷺ من عُقْبة بن ربيعة أمر، فرجع إلى منزله مغموماً، فقَلِق وٱضطجع، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ وهذا باطل. وقال القشيريّ أبو نصر: وقيل: بلغه قولُ كفار مكة أنت ساحر، فوجِد من ذلك غمًّا وحُمَّ، فتدثَّر بثيابه، فقال الله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي لا تفكر في قولهم، وبلغهم الرسالة. وقيل: ٱجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأميّة بن خلف والعاص بن وائل ومُطعِم بن عديّ وقالوا: قد ٱجتمعت وفود العرب في أيام الحج، وهم يتساءلون عن أمر محمد، وقد ٱختلفتم في الإخبار عنه؛ فمن قائل يقول مجنون، وآخر يقول كاهن، وآخر يقول شاعر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسمّوا محمداً باسم واحد يجتمعون عليه، وتسميه العرب به، فقام منهم رجل فقال: شاعر؛ فقال الوليد: سمعت كلام ٱبن الأبرص، وأمية بن أبي الصَّلْت، وما يشبه كلامُ محمدٍ كلاَم واحد منهما؛ فقالوا: كاهن. فقال: الكاهن يَصدُق ويكذِب وما كَذَب محمد قطّ؛ فقام آخر فقال: مجنون؛ فقال الوليد: المجنون يَخنُق الناس وما خَنَق محمد قطّ. وٱنصرف الوليد إلى بيته، فقالوا: صبأ الوليد بن المغيرة؛ فدخل عليه أبو جهل وقال: مالك يا أبا عبد شمس! هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونكه، زعموا أنك قد ٱحتجت وصبأت. فقال الوليد: مالي إلى ذلك حاجة، ولكني فكرت في محمد، فقلت: ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرق بين الأب وٱبنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلتُ: إنه ساحر. شاع هذا في الناس وصاحوا يقولون: إن محمداً ساحر. ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته محزوناً فتدثر بقطيفة، ونزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾[1]. وقال عكرمة: معنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ أي المدَّثر بالنبوّة وأثقالها. ٱبن العربي: وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ٨٤٢ والدر المنثور ٦/٤٥٤ و ٤٥٥. وتفسير ابن كثير ٤/٥٢٣ وأصل الخبر له شواهد كثيرة.

بعد. وعلى أنها أوّل القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثاني ما نزل.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾: ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبّر عنه بصفته، ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم في سورة «المزمل». ومثله قول النبيّ ﷺ لعليّ إذ نام في المسجد: «قم أبا تراب»[1] وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها فسقط رداؤه وأصابه ترابه؛ خرجه مسلم. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق: «قم يا نَوْمان»[2] وقد تقدّم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي خوّف أهل مكة وحذّرهم العذاب إن لم يُسلِموا. وقيل: الإنذار هنا إعلامهم بنبوّته؛ لأنه مقدمة الرسالة. وقيل: هو دعاؤهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها. وقال الفراء: قم فصلّ وأمر بالصلاة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي سيّدك ومالكك ومصلح أمرك فعظّم، وصِفْه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد. وفي حديث أنهم قالوا: بِم تُفتتَح الصلاة؟ فنزلت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي وصفه بأنه أكبر. قال ابن العربيّ: وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير والتقديس والتنزيه، لخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليّاً غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له، ولا نعمة إلا منه. وقد روي أن أبا سفيان قال يوم أُحد: اُعلُ هُبَل؛ فقال النبيّ ﷺ: «قولوا الله أعلى وأجّل»[3] وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذاناً وصلاة وذكراً بقوله: «الله أكبر» وحمل عليه لفظ النبيّ ﷺ الوارد على الإطلاق في موارد؛ منها قوله:

[٦١٦٥] «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم» والشرع يقتضي بعرفه ما يَقْتضي بعمومه، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصاً له من الشِّرك، وإعلاناً باسمه في النُّسك، وإفراداً لما شرع منه لأمره بالسَّفْك.

قلت: قد تقدّم في أوّل سورة «البقرة» أن هذا اللفظ «الله أكبر» هو المتعبد به في الصلاة، المنقول عن النبيّ ﷺ. وفي التفسير: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾

[٦١٦٥] تقدم تخريجه، وهو حديث قوي.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم في آل عمران.

قام رسول الله ﷺ وقال: «الله أكبر» فكبّرت خديجة، وعلمت أنه الوحي من الله تعالى؛ ذكره القشيريّ[1].

الخامسة ـ الفاء في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في «فَأَنْذِرْ» أي قم فأنذر وقم فكبر ربك؛ قاله الزجاج. وقال ٱبن جنّي: هو كقولك زيداً فاضرب؛ أي زيداً ٱضرب، فالفاء زئداة.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدهما أن المراد بالثياب العمل. الثاني القلب. الثالث النفس. الرابع الجسم. الخامس الأهل. السادس الخلق. السابع الدين. الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر. فمن ذهب إلى القول الأوّل قال: تأويل الآية وعملك فأصلح؛ قاله مجاهد وٱبن زيد. وروى منصور عن أبي رَزِين قال: يقول وعملك فأصلح؛ قال: وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلاناً خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلاناً طاهر الثياب؛ ونحوه عن السُّديّ. ومنه قول الشاعر:

لا هُـمَّ إنّ عـامـرَ بـن جَهْـمِ ... أَوْذَمَ حَجّـاً فـي ثِيـابٍ دُسْـمِ[2]

ومنه ما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦١٦٦] «يُحشَر المرءُ في ثوبيه اللذين مات عليهما» يعني عمله الصالح والطالح؛ ذكره الماورديّ. ومن ذهب إلى القول الثاني قال: إن تأويل الآية وقلبك فطهِّر؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن جُبير؛ دليله قول ٱمرىء القيس:

*** فَسُلِّي ثيابـي مـن ثيابـك تَنْسُـلِ ***

أي قلبي من قلبك. قال الماوردي: ولهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما ـ معناه وقلبك فطهّر من الإثم والمعاصي؛ قاله ٱبن عباس وقتادة. الثاني ـ وقلبك فطهر من الغدر؛ أي لا تغدر فتكون دنس الثياب. وهذا مرويّ عن ٱبن عباس، وٱستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفيّ:

فـإنـي بحمـد الله لا ثـوبَ فـاجـر ... لبِسْـتُ ولا مِـن غَـدْرَةٍ أَتَقنَّـعُ

[٦١٦٦] غريب هكذا، وأخرجه أبو داود ٣١١٤ والحاكم ١/ ٣٤٠ عن أبي سعيد أنه لما حضرهُ الموت دعا بثياب جدد فلبسها، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه الذي يموت فيها» وإسناده صحيح، وصححه الحاكم علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي، وهو يعارض ما تأوله الماوردي.
وانظر التذكرة للقرطبي ١/ ٢٦١.

---

(١) لم أره مسنداً، والقشيري يورد الموضوعات.
(٢) ثياب دسم: متلطخة بالذنوب. أوذم الحج: أوجبه.

ومن ذهب إلى القول الثالث قال: تأويل الآية ونفسك فطهر؛ أي من الذنوب. والعرب تكني عن النفس بالثياب؛ قاله ٱبن عباس. ومنه قول عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القنا بِمُحَرَّمِ

وقال ٱمرؤ القيس:

* فَسُلِّي ثيابِي من ثيابِك تَنْسُلِ *

وقال:

ثِيابُ بَني عوفٍ طَهارَى نقيَّةٌ وأوْجُهُهُمْ بيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

أي أنفس بني عوف. ومن ذهب إلى القول الرابع قال: تأويل الآية وجسمك فطهر؛ أي عن المعاصي الظاهرة. ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى، وذكرت إبلاً:

رموها بأثْيابِ خِفافٍ فلا تَرَى لها شَبَهاً إلاَّ النَّعامَ المُنَفَّرَا

أي ركبوها فرموها بأنفسهم. ومن ذهب إلى القول الخامس قال: تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب؛ والعرب تسمي الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً؛ قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. [البقرة: ١٨٧]. الماورديّ: ولهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما ـ معناه ونساءك فطهر، باختيار المؤمنات العفائف. الثاني ـ الاستمتاع بهنّ في القبل دون الدبر، في الطهر لا في الحيض. حكاه ٱبن بحر. ومن ذهب إلى القول السادس قال: تأويل الآية وخلقك فحسِّن. قاله الحسن والقُرَظي؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله ٱشتمال ثيابه على نفسه. وقال الشاعر:

ويَحْيَى لا يُلامُ بسوء خُلْقٍ ويَحْيى طَاهِرُ الأثوابِ حُرُّ

أي حسن الأخلاق. ومن ذهب إلى القول السابع قال: تأويل الآية ودينك فطهر. وفي الصحيحين عنه عليه السلام قال:

[٦١٦٧] «ورأيت الناس وعليهم ثياب، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجرّه». قالوا: يا رسول الله فما أوّلت ذلك؟ قال: «الدِّين». وروى ٱبن وهب عن مالك أنه قال: ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا في الصلاة

[٦١٦٧] صحيح. أخرجه البخاري ٢٣ و ٣٦٩١ و ٧٠٠٨ ومسلم ٢٣٩٠ وأحمد ٣/٨٦ والدارمي ٢/١٢٧ والترمذي ٢٢٨٦ وعبد الرزاق ٢٠٣٨٥ وأبو يعلىٰ ١٢٩٠ وابن حبان ٦٨٩٠ من حديث أبي سعيد وصدره «رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قُمُصٌ منها ما يبلغ الثديين ومنها ما هو أسفل من ذلك...».

والمساجد لا في الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين. وقد روى عبد الله بن نافع عن أبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي لا تلبسها على غَدْرة؛ ومنه قول أبي كَبشة:

ثِيَابُ بني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَّانُ

يعني بطهارة ثيابهم: سلامتهم من الدناءات، ويعني بغرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم في الخلقة أو كليهما؛ قاله ابن العربي. وقال سفيان بن عيينة: لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم؛ قاله عِكرمة. ومنه قول الشاعر:

* أَوْذَمَ حَجّاً في ثياب دُسْمِ *

أي قد دنّسها بالمعاصي. وقال النابغة:

رِقَاقُ النِّعَالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ[(1)]

ومن ذهب إلى القول الثامن قال: إن المراد بها الثياب الملبوسات، فلهم في تأويله أربعة أوجه: أحدهما ـ معناه وثيابك فأنقِ؛ ومنه قول امرىء القيس:

* ثيابُ بني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ *

الثاني ـ وثيابك فشمِّرْ وقصِّرْ، فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة، فإذا انجرَّت على الأرض لم يُؤْمَن أن يصيبها ما ينجسها؛ قاله الزجاج وطاوس. الثالث ـ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ من النجاسة بالماء؛ قاله محمد بن سيرين وابن زيد والفقهاء. الرابع ـ لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام. وعن ابن عباس: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طاهر. ابن العربي وذكر بعض ما ذكرناه: ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهي تتناول معنيين: أحدهما ـ تقصير الأذيال؛ لأنها إذا أرسلت تدنست، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخياً: ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى. وقد قال النبيّ ﷺ:

[٦١٦٨] «أُزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين،

[٦١٦٨] صحيح. أخرجه أبو داود ٤٠٩٣ وابن ماجه ٣٥٧٣ من حديث أبي سعيد بإسناد على شرط مسلم كما قال الحافظ في «الفتح» ١٠/٢٥٦ وأصله عند البخاري ٥٨٨٧ من حديث أبي هريرة.

---

(١) أراد برقاق النعال: أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم وبطيب حجزاتهم عفتهم. والسباسب يوم «الشعانين» وهو يوم عيد عند النصارى.

وما كان أسفل من ذلك ففي النار» فقد جعل النبيّ ﷺ الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعّد ما تحته بالنار، فما بال رجال يرسلون أذيالهم، ويطيلون ثيابهم، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم، وهذه حالة الكِبْر، وقائدة العُجْب، وأشدّ ما في الأمر أنهم يَعصُون وينجسون ويُلْحِقون أنفسهم بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه. قال النبيّ ﷺ:

[٦١٦٩] «لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء» ولفظ الصحيح:

[٦١٧٠] «من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة». قال أبو بكر: يا رسول الله! إن أحد شِقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ قال رسول الله ﷺ: «لست ممن يصنعه خيلاء» فعمّ رسول الله ﷺ بالنهي، واستثنى الصِّدِّيق، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء، وليس ذلك لهم. والمعنى الثاني ـ غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها، صحيح فيها. المهدويّ: وبه استدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب؛ قال ابن سيرين وابن زيد: لا تصلّ إلا في ثوب طاهر. واحتج بها الشافعيّ على وجوب طهارة الثوب. وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض، وكذلك طهارة البدن، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل. وقد مضى هذا القول في سورة «براءة» مستوفىً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ قال مجاهد وعكرمة: يعني الأوثان؛ دليله قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] قاله ابن عباس وابن زيد. وعن ابن عباس أيضاً: والمأثم فاهجر؛ أي فاترك. وكذا روى مُغيرة عن إبراهيم النَّخعيّ قال: الرُّجز الإثم. وقال قتادة: الرجز: إساف ونائلة، صنمان كانا عند البيت. وقيل: الرجز العذاب، على تقدير حذف المضاف؛ المعنى: وعَمَل الرجز فاهجر، أو العمل المؤدّي إلى العذاب. وأصل الرجز العذاب، قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢] فسُميت الأوثان رِجزاً؛ لأنها تؤدي إلى العذاب. وقراءة العامة «الرِّجْزَ» بكسر الراء. وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم «والرُّجْزَ» بضم الراء وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر. وقال أبو العالية والربيع والكسائيّ: الرُّجز بالضم: الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية. وقال الكسائيّ أيضاً: بالضم: الوثن،

[٦١٦٩] تقدم تخريجه.

[٦١٧٠] تقدم تخريجه.

وبالكسر: العذاب. وقال السّديّ: الرَّجْز بنصب الراء: الوعيد[1]:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ فيه أحد عشر تأويلاً؛ الأوّل ـ لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوّة، كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. الثاني ـ لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها؛ قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. قال الضحاك: هذا حرمه الله على رسول الله ﷺ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق، وأباحه لأمته؛ وقاله مجاهد. الثالث ـ عن مجاهد أيضاً: لا تَضْعُفْ أن تستكثر من الخير؛ من قولك حبل منين إذا كان ضعيفاً؛ ودليله قراءة ابن مسعود «وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ مِنَ الْخَيْرِ». الرابع ـ عن مجاهد أيضاً والربيع: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير، فإنه مما أنعم الله عليك. قال ابن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك مِنَّة من الله عليك؛ إذ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته. الخامس ـ قال الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره. السادس ـ لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به. السابع ـ قال القرظيّ: لا تعط مالك مصانعة. الثامن ـ قال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطية فأعطها لربك. التاسع ـ لا تقل دعوت فلم يستجب لي. العاشر ـ لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها، ولكن أصبر حتى يكون الله هو الذي يثيبك عليها. الحادي عشر ـ لا تفعل الخير لترائيَ به الناس.

الثانية ـ هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال؛ يقال: مننت فلاناً كذا أي أعطيته. ويقال للعطية المِنّة؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها؛ لأنه عليه السلام ما كان يجمع الدنيا؛ ولهذا قال:

[٦١٧١] «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم». وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين؛ ولهذا لم يورث؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادّخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية، فكان يقبلها ويثيب عليها. وقال:

[٦١٧١] تقدم مراراً.

---

(١) ذكره الماوردي ٦/١٣٧ عن السدي.

[٦١٧٢] «لو دعيت إلى كُرَاع[1] لأجبت ولو أهدي إليَّ ذراع لقبلت» ابن العربيّ: وكان يقبلها سُنَّة ولا يستكثرها شِرعة، وإذا كان لا يعطِي عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب؛ لأنها باب من أبواب المذلّة، وكذلك قول من قال: إن معناها لا تعطِي عطية تنتظر ثوابها، فإن الانتظار تعلق بالأطماع، وذلك في حيزه بحكم الامتناع، وقد قال الله تعالى له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١] وذلك جائز لسائر الخلق؛ لأنه من متاع الدنيا، وطلب الكسب والتكاثر بها. وأما من قال أراد به العمل أي لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح؛ فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ قراءة العامة بإظهار التضعيف. وقرأ أبو السَّمّال العدويّ وأشهب العُقيليّ والحسن «وَلاَ تَمُنَّ» مدغمة مفتوحة. «تَسْتَكْثِرُ»: قراءة العامة بالرفع وهو في معنى الحال، تقول: جاء زيد يركض أي راكضاً؛ أي لا تعط شيئاً مقدّراً أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه. وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو رديء؛ لأنه ليس بجواب. ويجوز أن يكون بدلاً من «تَمْنُنْ» كأنه قال: لا تستكثر. وأنكره أبو حاتم وقال: لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبدل منه. ويحتمل أن يكون سكن تخفيفاً كعَضْد. أو أن يعتبر حال الوقف. وقرأ الأعمش ويحيى «تَسْتَكْثِرَ» بالنصب، تَوَهُّمَ لام كي، كأنه قال: ولا تمنن لتستكثر. وقيل: هو بإضمار «أن» كقوله[2]:

«أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوَغَى»

ويؤيده قراءة ابن مسعود «وَلاَ تَمْنُنْ أَن تَسْتَكْثِرَ». قال الكسائيّ: فإذا حذف «أن» رفع، وكان المعنى واحداً. وقد يكون المنّ بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم، فيرجع إلى القول الثاني، ويَعضُده قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقد يكون مراداً في هذه الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾.

[٦١٧٢] صحيح. أخرجه البخاري ٢٥٦٨ و٥١٧٨ وأحمد ٢/٤٢٤ وابن حبان ٥٢٩١ من حديث أبي هريرة وأخرجه الترمذي ١٣٣٨ وصححه ابن حبان ٩٢٩٢ من حديث أنس وفي الباب من حديث ابن عمر أخرجه البخاري ٥١٧٩ ومسلم ١٤٢٩ وغيرهما.

---

(١) الكراع: هو مستدق الساق من الرجل.
(٢) البيت لطرفة بن العبد.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ أي ولسيّدك ومالكك فٱصبر على أداء فرائضه وعبادته. وقال مجاهد: على ما أوذيت. وقال ٱبن زيد: حُمِّلت أمراً عظيماً؛ محاربةَ العرب والعجم، فٱصبر عليه لله. وقيل: فٱصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى. وقيل: فٱصبر على البلْوى؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه. وقيل: على أوامره ونواهيه. وقيل: على فراق الأهل والأوطان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ إذا نفخ في الصور. والناقور: فاعول من النقر؛ كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب: الصوت؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

أَخَفِّضُــه بــالنَّقْــرِ لَمَّــا عَلَــوْتُــهُ وَيَرْفَعُ طَرْفاً غَيْرَ خَافٍ غَضِيض

وهم يقولون: نَقَّر بٱسم الرجل إذ دعاه مختصًّا له بدعائه. وقال مجاهد وغيره: هو كهيئة البوق، ويعني به النفخة الثانية. وقيل: الأولى؛ لأنها أوّل الشدّة الهائلة العامة. وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «النمل» و «الأنعام» وفي كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وعن أبي[1] حبّان قال: أَمَّنَا زُرارةُ بن أوفى فلما بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ خرَّ ميتاً. ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ أي غير سهل ولا هيّن؛ وذلك أن عُقَدَهم لا تنحل إلا إلى عُقدة أشدّ منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. و «يَوْمَئِذٍ» نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ. وقيل: جرّ بتقدير حرف جر، مجازه: فذلك في يومئذ. وقيل: يجوز أن يكون رفعاً إلا أنه بني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ ﴿ذَرْنِى﴾ أي دعني؛ وهي كلمة وعيد وتهديد. ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي دعني والذي خلقتُه وحيداً؛ فـ «وحيداً» على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف، أي خلقته وحده، لا مال له ولا ولد، ثم أعطيتهُ بعد ذلك ما أعطيته. والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزوميّ، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه. وإنما خُصّ بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان

(١) هو القصاب. وزرارة تابعي ثقة، وهذا الأثر ثابت راجع «التهذيب».

يسمّى الوحيد في قومه. قال ٱبن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ بزعمه ﴿وَحِيدًا ۝١١﴾ لا أن الله تعالى صدّقه بأنه وحيد. وقال قوم: إن قوله تعالى: ﴿وَحِيدًا ۝١١﴾ يرجع إلى الربّ تعالى على معنيين: أحدهما: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم. والثاني: أني ٱنفردت بخلقه ولم يشركني فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه؛ فـ «ـوحِيداً» على هذا حال من ضمير الفاعل، وهو التاء في «خَلَقْتُ» والأوّل قول مجاهد، أي خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، فأنعمت عليه فكفر؛ فقوله: «وحِيداً» على هذا يرجع إلى الوليد، أي لم يكن له شيء فملكته. وقيل: أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيداً كما خُلق وحيداً. وقيل: الوحيد الذي لا يُعرف أبوه، وكان الوليد معروفاً بأنه دَعِيّ؛ كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٣] وهو في صفة الوليد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾ أي خوّلته وأعطيته مالاً ممدوداً، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحُجُور[1] والنَّعَم والجِنان والعبيد والجواري، كذا كان ٱبن عباس يقول. وقال مجاهد: غلّة ألف دينار؛ قاله سعيد بن جبير وٱبن عباس أيضاً. وقال قتادة: ستة آلاف دينار. وقال سفيان الثوري وقتادة: أربعة آلاف دينار. الثوريّ أيضاً: ألف ألف دينار. مقاتل: كان له بستان لا ينقطع خيره شتاءً ولا صيفاً. وقال عمر رضي الله عنه: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾ غلة شهر بشهر. النعمان بن سالم: أرضاً يزرع فيها. القشيريّ: والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.

قوله تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ أي حضوراً لا يغيبون عنه في تصرف. قال مجاهد وقتادة: كانوا عشرة. وقيل: ٱثنا عشر؛ قاله السّديّ والضحاك. قال الضحاك: سبعة ولدوا بمكة وخمسةٌ ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام والوليد بن الوليد. قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وقيل: شهوداً، أي إذا ذُكر ذكروا معه؛ قاله ٱبن عباس. وقيل: شهوداً، أي قد صاروا مثله في شهود ما كان يشهده، والقيام بما كان يباشره. والأوّل قول السديّ، أي حاضرين مكة لا يظعنون عنه في تجارة ولا يغيبون.

(١) الحجور جمع حجرة: وهي الأنثى من الخيل.

قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾ أي بسطت له في العيش بسطاً، حتى أقام ببلدته مطمئناً مترفهاً يُرجع إلى رأيه. والتمهيد عند العرب: التوطئة والتهيئة؛ ومنه مَهْدُ الصبيّ. وقال ابن عباس: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾ أي وسّعت له ما بين اليمن والشام؛ وقاله مجاهد. وعن مجاهد أيضاً في ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾ أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ أي ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده في المال والولد. ﴿كَلَّآۖ﴾ أي ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم. وقال الحسن وغيره: أي ثم يطمع أن أدخله الجنة، وكان الوليد يقول: إن كان محمد صادقاً فما خُلقت الجنة إلا لي؛ فقال الله تعالى ردًّا عليه وتكذيباً له: ﴿كَلَّآۖ﴾ أي لستُ أزيده، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك. و «ثُمَّ» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ ليست بثم التي للنَّسق ولكنها تعجب؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: ١] وذلك كما تقول: أعطيتك ثم أنت تجفوني؛ كالمتعجّب من ذلك. وقيل: يطمع أن أترك ذلك في عقبه؛ وذلك أنه كان يقول: إن محمداً مبتور؛ أي أبتر وينقطع ذكره بموته. وكان يظنّ أن ما رزق لا ينقطع بموته. وقيل: أي ثم يطمع أن أنصره على كفره. و ﴿كَلَّآۖ﴾ قطعٌ للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة؛ فيكون متصلاً بالكلام الأوّل. وقيل: ﴿كَلَّآۖ﴾ بمعنى حقًّا ويكون ابتداء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الوليد ﴿كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ أي معانداً للنبيّ ﷺ وما جاء به؛ يقال: عاند فهو عنِيد مثل جالِس فهو جلِيس؛ قاله مجاهد. وعَنَدَ يَعْنِد بالكسر أي خالف وردّ الحقّ وهو يعرفه فهو عنِيد وعانِد. والعانِد: البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عُنَّد مثل راكِع ورُكَّع؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثيّ:

إذا رَكِبتُ فاجْعَلانِي وَسَطَا إنِّي كَبيرٌ لا أطيقُ الْعُنَّدَا

وقال أبو صالح: ﴿عَنِيدٗا ١٦﴾ معناه مباعداً؛ قال الشاعر:

أرَانا على حالٍ تُفَرِّقُ بَيْنَنَا نَوًى غَرْبَةٌ[1] إنّ الفِرَاقَ عَنُود

قتادة: جاحداً. مقاتل: معرضاً. ابن عباس: جحوداً. وقيل: إنه المجاهر بعدوانه. وعن مجاهد أيضاً قال: مجانباً للحق معانداً له معرضاً عنه. والمعنى كله متقارب. والعرب تقول: عَنَد الرجل إذا عَتا وجاوز قدره. والعَنُود من الإبل: الذي لا يخالط الإبل، إنما هو في ناحية. ورجل عَنُود إذا كان يحلّ وحده لا يخالط الناس. والعنيد من

(١) أي بعيدة.

التجبر. وعرق عاند: إذا لم يَرقأ دمه، كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة «إبراهيم». وجمع العنيد عُنُد، مثل رَغيف ورُغُف.

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي سأكلفه. وكان ابن عباس يقول: سألجئه؛ والإرهاق في كلام العرب: أن يُحمَل الإنسان على الشيء. ﴿صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

[٦١٧٣] «الصَّعُودُ: جبل من نار يتصعّد فيه سَبْعين خَريفاً ثم يَهْوِي كَذَلكَ فيه أبَدا» رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ، خرجه الترمذيّ وقال فيه حديث غريب. وروى عطية عن أبي سعيد قال: صخرة في جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت، قال: فيبلغ أعلاها في أربعين سنة يُجذب من أمامه بسلاسل ويضْرب من خلفه بمقامع، حتى إذا بلغ أعلاها رمى به إلى أسفلها، فذلك دأبه أبداً. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾. وفي التفسير: أنه صخرة ملساء يكلّف صعودها فإذا صار في أعلاها حُدِر في جهنم، فيقوم يهوِي ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم، يحترق في كل يوم سبعين مرّة ثم يعاد خلقاً جديداً. وقال ابن عباس: المعنى سأكلفه مشقّة من العذاب لا راحة له فيه. ونحوه عن الحسن وقتادة. وقيل: إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت، ليُعذّب من داخل جسده كما يعذّب من خارجه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ يعني الوليد فكر في شأن النبيّ ﷺ والقرآن و «قَدَّرَ» أي هيأ الكلام في نفسه، والعرب تقول: قدّرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما نزل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١-٣] سمعه الوليد يقرؤها[1] فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإن له لحَلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمِر، وإن أسفله لمغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صَبَا الوليدُ لتَصبونّ قريش كلها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزيناً؟ فقال له: ما لي أراك حزيناً. فقال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش

[٦١٧٣] ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٣٢٦ من حديث أبي سعيد وضعفه بقوله: غريب وقد روي عن أبي سعيد موقوفاً اهـ فيه ابن لهيعة واهٍ وشيخه درَّاج عن أبي السمح وهذه علة ثانية فالخبر ضعيف. والراجح وقفه.

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ٨٤٢ والدر ٦/ ٤٥٤ وتقدم.

يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما؛ فغضب الوليد وتكبر، وقال: أنا أحتاج إلى كِسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعُزّى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قطّ يَخنُق؟ قالوا: لا واللَّهِ. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قطّ؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل[1] رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا واللَّهِ. وكان النبيّ ﷺ يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه. فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكّر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي في أمر محمد والقرآن ﴿وَقَدَّرَ ۝١٨﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما. ﴿فَقُتِلَ﴾ أي لُعن. وكان بعض أهل التأويل يقول: معناها فقهر وغُلب، وكل مُذَلَّل مُقتَّل؛ قال الشاعر[2]:

ومَا ذَرَفَتْ عيناكِ إلاّ لِتَقْدَحِي ... بسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الزهريّ: عُذِّب؛ وهو من باب الدعاء. ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾ قال ناسٌ: «كَيْفَ» تعجيب؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه: كيف فعلت هذا؟ وذلك كقوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨]. ﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أي لُعن لعناً بعد لَعن. وقيل: فقتل بضرب من العقوبة، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ أي على أي حال قَدر. ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١﴾ بأي شيء يرد الحقّ ويدفعه. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي قَطَّب بين عينيه في وجوه المؤمنين؛ وذلك أنه لما حمل قريشاً على ما حملهم عليه من القول في محمد ﷺ بأنه ساحر، مرّ على جماعة من المسلمين، فدعوه إلى الإسلام، فعبس في وجوههم. قيل: عَبَس وبَسَر على النبيّ ﷺ حين دعاه. والعَبْس مخفّفاً مصدر عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْساً وعُبُوساً: إذا قطَّبَ. والعَبَسَ ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها؛ قال أبو النَّجْم:

كأَنَّ في أَذْنابِهِنّ الشُّوَّلِ ... من عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ الأُيَّلِ

﴿وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ أي كَلَح وجهه وتغيّر لونه؛ قاله قتادة والسُّدّيّ؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم:

---

(١) تخلج المجنون في مشيته: تجاذب يمينا وشمالاً.

(٢) هو امرؤ القيس.

صَبَحْنَا تَمِيماً غَدَاةَ الجِفَارِ[1] ... بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ بَاسِرَهْ

وقال آخر[2]:

وقَدْ رَابَنِي مِنْهَا صُدودٌ رَأَيْتُهُ ... وإعْراضُها عَنْ حاجتي وبُسُورُها

وقيل: إن ظهور العُبوس في الوجه بعد المحاورة، وظهور البُسور في الوجه قبل المحاورة. وقال قوم: «بَسَر»: وَقَف لا يتقدم ولا يتأخر. قالوا: وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب، فلم يجيء ولم يذهب: قد بسر المركب، وأَبْسَر أي وقف وقد أبسرنا. والعرب تقول: وجه باسر بيِّن البسور: إذا تغير وأسود. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولَّ وأعرض ذاهباً إلى أهله. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ أي تعظم عن أن يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان وأستكبر حين دُعي إليه. ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي يأثِره عن غيره. والسِّحر: الخديعة. وقد تقدم بيانه في سورة «البقرة». وقال قوم: السحر: إظهار الباطل في صورة الحق. والأثرة: مصدر قولك: أثرت الحديث آثِره إذا ذكرته عن غيرك؛ ومنه قيل: حديث مأثور: أي ينقله خلف عن سلف؛ قال أمرؤ القيس:

ولَو عَنْ نَثَا غَيرِه جاءَنِي ... وجُرْحُ اللِّسانِ كَجُرْحِ اليَدِ

لَقُلْتُ مِنَ القَولِ ما لاَ يَزا ... لُ يُؤثَرُ عنِّي يَدَ الْمُسْنَدِ

يريد: آخر الدهر. وقال الأعشى:

إنّ الذي فيه تمارَيْتُمَا ... بُيِّنَ لِلسَّامِعِ والآثِرِ

ويروى: بَيَّنَ. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي ما هذا إلا كلام المخلوقين، يَختدِع به القلوب كما تختدع بالسحر. قال السديّ: يعنون أنه من قول أبي اليَسَر[3] عبدٍ لبني الحضرميّ، كان يجالس النبيّ ﷺ، فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك. وقيل: أراد أنه تلقنه من أهل بابل. وقيل: عن مُسَيلمة. وقيل: عن عديّ الحضرميّ الكاهن. وقيل: إنما تلقنه ممن أدعى النبوة قبله، فنسج على منوالهم. قال أبو سعيد الضرير: إن هذا إلا أمر سحر يؤثر؛ أي يورث.

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) الجفار: موضع، وقيل: هو ماء لبني تميم.

(٢) هو توبة بن الحمير.

(٣) وقع في الأصل «سيار» والتصويب عن تفسير الماوردي ٦/ ١٤٣ فإن المصنف أخذه عن الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي سأدخله سقر كي يصْلى حرّها. وإنما سمِّيَت سقر من سقَرَتْه الشمس: إذا أذابته ولوحته، وأحرقت جلدة وجهه. ولا ينصرف للتعريف والتأنيث. قال ٱبن عباس: هي الطبق السادس من جهنم. ورَوى أبو هريرة:

[٦١٧٤] أن رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربه فقال: أي ربِّ، أيّ عبادك أفقر؟ قال صاحب سَقَر» ذكره الثعلبيّ. ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾؟ هذه مبالغة في وصفها؛ أي وما أعلمك أي شيء هي؟ وهي كلمة تعظيم، ثم فسّر حالها فقال: ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته. وكرر اللفظ تأكيداً. وقيل: لا تبْقي منهم شيئاً، ثم يعادون خلقاً جديداً، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبداً. وقال مجاهد: لا تبقي مَنْ فيها حيًّا ولا تذره ميّتاً، تحرقهم كلما جُدّدُوا. وقال السّديّ: لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي مُغيِّرة، من لاحه إذا غيّره. وقراءة العامة «لَوَّاحَةٌ» بالرفع نعت لـ «سَقَرَ». في قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾. وقرأ عطية العوفيّ ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر «لَوَّاحَةً» بالنصب على الاختصاص، للتهويل. وقال أبو رَزِين: تلفح وجوههم لَفْحة تدعها أشدّ سواداً من الليل؛ وقاله مجاهد. والعرب تقول: لاحه البَرْد والحرُّ والسُّقم والحُزْن: إذا غيّره؛ ومنه قول الشاعر:

تَقُولُ ما لاَحَكَ يا مُسافِرُ ... يا بْنَةَ عَمي لاحَنِي الْهَواجِرُ(١)

وقال آخر:

وتَعجبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنِي شاحِباً ... تقول لِشَيْءٍ لَوَّحَتْه السَّمائم(٢)

وقال رُؤبة بن العجّاج:

لَوَّحَ منه بعدَ بُدْنٍ وسَنَقْ(٣) ... تَلْويحَكَ الضَّامِرَ يُطْوَى لِلسَّبَقْ

وقيل: إن اللوح شدة العطش؛ يقال: لاحه العطش ولوَّحه أي غيّره. والمعنى أنها معطِّشة للبشر أي لأهلها؛ قاله الأخفش، وأنشد:

سَقَتْنِي على لَوْحٍ منَ الماء شَرْبَةً ... سقاها بها اللّهُ الرِّهامَ الغَواديا

يعني باللّوح شدّة العطش، والتاح أي عَطِش. والرِّهام جمع رهمة بالكسر وهي

[٦١٧٤] لم أره مسنداً، عزاه المصنف للثعلبي، وذكره الديلمي ٣٤٢٠ من حديث أبي هريرة وكلاهما يروي الموضوعات.

---

(١) الهواجر: جمع هاجرة، وهي شدة الحر عند منتصف النهار.

(٢) السمائم: جمع سموم وهي الريح الحارة.

(٣) لوحه السفر: غيره وأضمره، البدن: السمن واكتناز اللحم.
السنق: الشبع حتى يكون كالتخمة. الضامر: الفرس. يطوى: يجوع لأجل السباق.

المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرِّهام. وقال ٱبن عباس: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام. الحسن وٱبن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروها عِياناً. نظيره: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩١] وفي البَشَر وجهان: أحدهما ـ أنه الإنس من أهل النار؛ قاله الأخفش والأكثرون. الثاني ـ أنه جمع بَشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة؛ قاله مجاهد وقتادة. وجمع البَشَر أبشار، وهذا على التفسير الأوّل، وأما على تفسير ٱبن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود؛ لأنه من لاح الشيءُ يَلُوح: إذا لمع.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي على سَقَر تسعة عشر من الملائكة يَلْقَون فيها أهلها. ثم قيل: على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خَزَنتها؛ مالكٌ وثمانيةَ عشَر ملَكاً. ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيباً، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملَكاً بأعيانهم. وعلى هذا أكثر المفسرين. الثعلبيّ: ولا يُنكر هذا، فإذا كان مَلَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. وقال ٱبن جريج: نعت النبيّ ﷺ خَزَنة جهنم فقال: «فكأنّ أعينهم البَرْق، وكأن أفواههم الصياصي، يجرّون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل»[(١)].

قلت: وذكر ٱبن المبارك قال: حدّثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام، فقرأ هذه الآية ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ فقال ما تسعةَ عَشَر؟ تسعة عشر ألف مَلَك، أو تسعة عشر مَلكاً؟ قال: قلت: لا بل تسعةَ عَشَر مَلكاً. فقال: وأنَّى تعلم ذلك؟ فقلت: لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: صدقت هم تسعة عشر مَلَكاً، بيد كل مَلَك منهم مِرْزَبَة[(٢)] لها شُعْبتان، فيضرب الضربة فيهوي بها في النار سبعين ألفاً. وعن عمرو بن دينار: كل واحد منهم يدفع بالدَّفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومُضَر. خرَّج الترمذيّ عن جابر بن عبد الله قال:

(١) هذا مرسل، ومع إرساله، قال الإمام أحمد: روىٰ ابن جريج مراسيل موضوعة. وهذا الخبر غريب جداً.

(٢) المرزبة: عصية من حديد، والمطرقة الكبيرة التي للحداد.

[٦١٧٥] قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبيّ ﷺ: هل يعلم نبيكم عدد خَزَنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمد غُلِب أصحابك اليوم؛ فقال: «وَبِمَ[1] غُلِبوا»؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيكم عدد خَزَنة جهنم؟ قال: «فماذا قالوا»؟ قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبيّنا. قال: «أفغُلِب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جَهْرة، عليّ بأعداء الله! إني سائلهم عن تُرْبة الجنة وهي الدَّرْمَك». فلما جاؤوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خَزَنة جهنم؟ قال: «هكذا وهكذا» في مرة عشرة وفي مرة تسعة. قالوا: نعم. قال لهم النبيّ ﷺ: «ما تُرْبة الجنة» قال: فسكتوا هنيهة ثم قالوا: أخبزة يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الخبزُ من الدَّرْمَك». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشَّعْبي عن جابر. وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: «ما بين مَنِكَبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب»[2]. وقال ابن عباس: ما بين مَنِكبي الواحد منهم مَسيرة سنة، وقوّة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم.

قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عَشَر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال:

[٦١٧٦] قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها». وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكِلتكم أمهاتكم! أسْمُع ابن أبي كبشة يخبركم أن خَزَنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم ـ أي العَدد ـ والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن

[٦١٧٥] أخرجه الترمذي ٣٣٢٧ من حديث جابر، وضعفه بقوله: غريب لا نعرفه إلا من حديث مجالد اهـ ومجالد هو ابن سعيد ضعيف الحديث، لكن للحديث شاهد من حديث البراء راجع الدر ٦/٤٥٦. وهو عند البيهقي في البعث ٥٠٩ وفيه حريث بن أبي مطر ضعيف.

[٦١٧٦] صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٢ والترمذي ٢٥٧٦ من حديث ابن مسعود.

---

(١) وقع في الأصل «وماذا» والتصويب عن سنن الترمذي.

(٢) هذا مرسل ومع ارساله عبد الرحمن بن زيد واه ليس بشيء وقد تقدم تخريجه.

يبطشوا بواحد منهم! قال السّديّ: فقال أبو الأشد أسيد[1] بن كَلَدة الجُمَحيّ: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة؛ يقولها مستهزئاً. في رواية: أن الحرث بن كَلَدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إنّ أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذَّبين من الجنّ والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقّة، ولا يستروِحون إليهم؛ ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له، فتؤمن هوادتهم؛ ولأنهم أشدّ خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي بليّة. وروي عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذاباً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣-١٤]. أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب. وفي «تِسْعَةَ عَشَرَ» سبع قراءات: قراءة العامة «تِسْعَةَ عَشَرَ». وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع وطلحة بن سليمان «تِسْعَةَ عْشَرَ» بإسكان العين. وعن ابن عباس «تِسْعَةُ عَشَرَ» بضم الهاء. وعن أنس بن مالك «تِسْعَةُ وَعَشَرْ» وعنه أيضاً «تِسْعَةُ وَعَشْرُ». وعنه أيضاً «تِسْعَةُ أَعْشُر» ذكرها المهدويّ وقال: من قرأ «تِسْعَةَ عْشَرَ» أسكن العين لتوالي الحركات. ومن قرأ «تِسْعَةُ وَعَشَرْ» جاء به على الأصل قبل التركيب، وعطف عشراً على تسعة، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها. ومن قرأ «تِسْعَةُ عَشَرْ» فكأنه من التداخل؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب، فرفع هاء التأنيث، ثم راجع البناء وأسكن. وأما «تِسعةُ أَعْشُر»: فغير معروف، وقد أنكرها أبو حاتم. وكذلك «تِسعةُ وَعَشْر» لأنها محمولة على «تِسعةُ أَعْشُر» والواو بدل من الهمزة، وليس لذلك وجه عند النحويين. الزمخشريّ: وقرىء «تِسْعَةُ أَعْشُر» جمع عَشِير، مثل يَمين وأَيْمُن.

قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عِدة خَزَنة جهنم موافقة لما عندهم؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم. ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلاَم. ويحتمل أنه يريد الكل. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ بذلك؛ لأنهم كلما صدّقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا

---

(١) وقع في الأصل «الأسود بن كلدة» والتصويب عن تفسير البغوي ٤/ ٣٨٥ والكشاف ٤/ ٦٥١ والماوردي ١٤٥/٤.

إيماناً لتصديقهم بعدد خَزَنة جهنم. ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾ أي ولا يشك ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي أعطوا الكتاب ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي المصدّقون من أصحاب محمد ﷺ في أن عِدة خزنة جهنم تسعة عشر. ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمُون في مستقبل الزمان بعد الهجرة، ولم يكن بمكة نفاق وإنما نَجَم بالمدينة. وقيل: المعنى؛ أي وليقول المنافقون الذين ينجمُون في مستقبل الزمان بعد الهجرة. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ يعني بعدد خزنة جهنم. وقال الحسين بن الفضل: السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق؛ فالمرض في هذه الآية الخـلاف ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: أي مشركو العرب. وعلى القول الأوّل أكثر المفسرين. ويجوز أن يراد بالمرض: الشك والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ أي ما أراد «بِهَٰذَا» العدد الذي ذكره حديثاً، أي ما هذا من الحديث. قال الليث: المَثَل الحديث؛ ومنه: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي حديثها والخبر عنها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخَزَنة جهنم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي يخزي ويعمِي ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي﴾ أي ويرشد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ كإرشاد أصحاب محمد ﷺ. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ عن الجنة ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي﴾ إليها ﴿مَن يَشَآءُ﴾. ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يدري عدد ملائكة ربّك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار «إلاّ هُوَ» أي إلا الله جلّ ثناؤه. وهذا جواب لأبي جهل حين قال: أمَا لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وعن ابن عباس:

[٦١٧٧] أن النبيّ ﷺ كان يَقْسم غنائم حُنين، فأتاه جبريل فجلس عنده، فأتى مَلَك فقال: إن ربك يأمرك بكذا وكذا، فخشي النبيّ ﷺ أن يكون شيطاناً، فقال: «يا جبريل أتعرفه»؟ فقال: هو مَلَك وما كل ملائكة ربّك أعرف. وقال الأوزاعيّ: قال موسى: «يا ربّ من في السماء؟ قال ملائكتي. قال كم عِدَّتهم يا ربّ؟ قال: اثني عشر سِبْطاً. قال: كم عدّة كل سِبط؟ قال: عدد التراب». ذكرهما الثعلبيّ. وفي الترمذيّ عن النبيّ ﷺ:

[٦١٧٨] «أَطَّت السماءُ وحُقّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجداً».

[٦١٧٧] تفرد به الثعلبي، ولا يحتج بما ينفرد به وهو خبر غريب عجيب، والظاهر أنه موضوع فإن الواسطة بين الله عز وجل ونبيه ﷺ إنما هو جبريل فحسب، والله أعلم.

[٦١٧٨] تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ يعني الدلائل والحجج والقرآن. وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي وما هذه النار التي هي سقر ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي عظةٌ ﴿لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ أي للخلق. وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. قاله الزجاج. وقيل: أي ما هذه العِدّة ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ أي ليتذكروا ويعلموا كمالَ قدرة الله تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار؛ فالكناية على هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ ترجع إلى الجنود؛ لأنه أقرب مذكور.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ قال الفراء: «كَلَّا» صلة للقسم، التقدير أي والقمر. وقيل: المعنى حقاً والقمر؛ فلا يوقف على هذين التقديرين على «كَلَّا» وأجاز الطّبريّ الوقف عليها، وجعلها ردًّا للذين زعموا أنهم يقاومون خَزَنة جهنم؛ أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار. ثم أقسم على ذلك جلّ وعزّ بالقمر وبما بعده، فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ أي وَلَّى وكذلك «دبر». وقرأ نافع وحمزة وحفص «إِذْ أَدْبَرَ» الباقون «إِذَا» بألف و «دَبَرَ» بغير ألف وهما لغتان بمعنًى؛ يقال: دَبَر وأدبر، وكذلك قَبِل الليل وأقبل. وقد قالوا: أمس الدابر والمدبر؛ قال صخر بن عمرو بن الشَّريد السُّلَميّ:

وَلَقَدْ قَتَلْنَاكُمْ ثُنَاءَ وَمَوْحَداً　　　وَتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبِر. وهذا قول الفراء والأخفش. وقال بعض أهل اللغة: دَبَر الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ في الإدبار. وقال مجاهد: سألت ٱبن عباس عن قوله تعالى: «وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ» فسكت حتى إذا دَبَر قال: يا مجاهد ، هذا حين دَبَرَ الليلُ. وقرأ محمد بن السَّمَيفُعَ ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ بألفين، وكذلك في مصحف عبد الله وَأُبَيّ بألفين. وقال قُطرب من قرأ «دَبَرَ» فيعني أقبل، من قول العرب دَبَر فلان: إذا جاء من خلفي. قال أبو عمرو: وهي لغة قريش. وقال ٱبن عباس في رواية عنه: الصواب: «أَدْبَرَ» إنما يَدْبَر ظَهرَ البعير. وٱختار أبو عُبيد: «إِذَا أَدْبَرَ» قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه؛ ألا تراه يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾، فكيف يكون أحدهما «إذ» والآخر «إذا»، وليس في القرآن

قَسَم تعقبه «إذ» وإنما يتعقبه «إذا». ومعنى «أَسْفَرَ»: ضاء. وقراءة العامة «أَسْفَرَ» بالألف. وقرأ ٱبن السَّمَيْقَع: «سَفَرَ». وهما لغتان. يقال: سَفَر وجهُ فلان وأسفر: إذا أضاء. وفي الحديث:

[٦١٧٩] «أسفِروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر» أي صلّوا صلاة الصبح مُسْفِرين، ويقال: طَوِّلوها إلى الإسفار، والإسفار: الإنارة. وأسفر وجهه حسناً أي أشرق، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافر. ويجوز أن يكون من سَفَر الظلامَ أي كنسه، كما يُسفَر البيت؛ أي يُكنَس؛ ومنه السَّفير: لما سقط من ورق الشجر وتَحاتَّ؛ يقال: إنما سمي سفيراً لأن الريح تَسفِره أي تكنُسه. والمِسْفَرة: المِكْنَسة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾ جواب القسم؛ أي إن هذه النار ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾ أي لإحدى الدواهي. وفي تفسير مقاتل «الْكُبَر»: ٱسم من أسماء النار. وروي عن ٱبن عباس «إِنَّهَا» أي إن تكذيبهم بمحمد ﷺ ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾ أي لَكبيرة من الكبائر. وقيل: أي إن قيام الساعة لإحدى الكُبَر. والكُبَر: هي العظائم من العقوبات؛ قال الراجز:

يا بن المُعَلَّى نَزلتْ إحدى الكُبَرْ داهيــةُ الــدهــر وصَمَّــاءُ الغِيَــرْ

وواحدة «الكُبَر»، كُبرى مثل الصُّغْرى والصُّغَر، والعُظْمى والعُظَم. وقرأ العامة «لإحْدَى» وهو ٱسم بني ٱبتداء للتأنيث، وليس مبنيًّا على المذكر؛ نحو عُقْبَى وأخرى، وألفه ألف قطع، لا تذهب في الوصل. وروى جرير بن حازم عن ٱبن كثير «إِنَّهَا لَحْدى الكُبَر» بحذف الهمزة. ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾ يريد النار؛ أي إن هذه النار الموصوفة ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾ فهو نصب على الحال من المضمر في «إِنَّهَا» قاله الزجاج. وذُكِّر؛ لأن معناه معنى العذاب، أو أراد ذات إنذار على معنى النَّسب؛ كقولهم: ٱمرأة طالق وطاهر. وقال الخليل: النذير: مصدر كالنكير، ولذلك يوصف به المؤنث. وقال الحسن: والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها. وقيل: المراد بالنذير محمد ﷺ؛ أي قم نذيراً للبشر، أي مُخَوِّفاً لهم فـ «ـنَذيراً» حال من «قُمْ» في أوّل السورة حين قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ قاله[1] أبو علي الفارسيّ وابن زيد، وروي عن ٱبن عباس وأنكره الفراء. ٱبن الأنباري: وقال بعض المفسرين معناه «يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ قُمْ نَذِيراً لِلْبَشَرِ». وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما

[٦١٧٩] صحيح. أخرجه الطيالسي ٩٥٩ والدارمي ١/ ٢٧٧ وأحمد ٣/ ٤٦٥ وعبد الرزاق ٢١٥٩ والحميدي ٤٠٨ وأبو داود ٤٢٤ والترمذي ١٥٤ وابن ماجه ٦٧٢ وصححه ابن حبان ١٤٩٠ و ١٤٩١ من حديث رافع بن خديج وهو حديث صحيح وله شواهد.

(١) في الأصل «قاله».

بينهما. وقيل: هو من صفة الله تعالى. روى أبو معاوية الضرير: حدّثنا إسمعيل بن سميع عن أبي رزَين ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ قال: يقول الله عز وجل: أنا لكم منها نذير فاتقوها. و «نَذِيراً» على هذا نصب على الحال؛ أي «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً» منذراً بذلك البشر. وقيل: هو حال من «هو» في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. وقيل: هو في موضع المصدر؛ كأنه قال: إنذاراً للبشر. قال الفراء: يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار، أي أنذر إنذاراً؛ فهو كقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾[1] [الملك: ١٧] أي إنذاري؛ فعلى هذا يكون راجعاً إلى أوّل السورة؛ أي ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ أي إنذاراً. وقيل: هو منصوب بإضمار فعل. وقرأ ابن أبي عَبْلة «نَذِيرٌ» بالرفع، على إضمار هو. وقيل: أي إن القرآن نذير للبشر، لما تضمنه من الوعد والوعيد.

قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ اللام متعلقة بـ «نذيراً»، أي نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ [الحجر: ٢٤] أي في الخير ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر: ٢٤] عنه. قال الحسن: هذا وعيد وتهديد وإنْ خرج مخرج الخبر؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقال بعض أهل التأويل: معناه لمن شاء الله أن يتقدّم أو يتأخر؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان، والتأخير الكفر. وكان ابن عباس يقول: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزيَ بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع. وقال السّديّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى النار المتقدم ذكرها، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ عنها إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلّصها وإما أوبقها. وليست «رَهِينَةٌ» تأنيث رهين في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنه لو قُصدت الصفة لقيل رهين؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث. وإنما هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم؛ كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين؛ ومنه بيت الحماسة:

أَبْعَدَ الذي بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكَبٍ رِهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرابٍ وجَنْدَلِ[2]

(١) وقع في النسخ ﴿فكيف كان نذير﴾ وهو سبق قلم حديث لا توجد آية بهذا اللفظ.

(٢) النعف من الأرض: المكان المرتفع في اعتراض والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذري، وقد قُتل أخوه وعرضت عليه الدية، فأبىٰ أن يأخذها، وأخذ بثأره.

كأنه قال رَهْن رمسٍ. والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ فإنهم لا يُرْتهنون بذنوبهم. وٱختلف في تعيينهم؛ فقال ٱبن عباس: الملائكة. علي بن أبي طالب: أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم. الضحاك: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ونحوه عن ٱبن جريج؛ قال: كل نفس بعملها محاسبة ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ وهم أهل الجنة، فإنهم لا يحاسبون. وكذا قال مقاتل أيضاً: هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال الحسن وٱبن كَيْسان: هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم. وعن أبي ظبيان عن ٱبن عباس قال: هم المسلمون. وقيل: إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان. وقيل: هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم. وقال أبو جعفر الباقر: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهلَ البيت فهم المرتهنون. وقال الحكم: هم الذين ٱختارهم الله لخدمته، فلم يدخلوا في الرهن، لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم. وقال القاسم: كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر، إلا من ٱعتمد على الفضل والرحمة، دون الكسب والخدمة، فكل من ٱعتمد على الكسب فهو مرهون، وكل من ٱعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به. ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي في بساتين ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي يسألون ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي المشركين ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أي أدخلكم ﴿فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ كما تقول: سلكت الخيط في كذا أي أدخلته فيه. قال الكلبيّ: فيَسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان وفي قراءة عبد الله بن الزبير «يا فلانُ ما سَلَكَك فِي سَقَرَ»؟ وعنه قال: قرأ عمر بن الخطاب «يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ» وهي قراءة على التفسير، لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن؛ قاله أبو بكر بن الأنباري. وقيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾. قال الفراء: في هذا ما يقوي أن أصحاب اليَمِينِ الوِلدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني أهل النار ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي المؤمنين الذين يصلون. ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي لم نك نتصدق. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم. وقال ٱبن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم ـ لعنهم الله ـ كاهن، مجنون، شاعر، ساحر. وقال السّديّ: أي وكنا نُكَذِّبُ مع المكّذبين. وقال قتادة: كلما غَوَى غاوٍ غَوَينا معه. وقيل معناه: وكنا أتباعاً ولم نكن متبوعين. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ أي لم نك نصدّق بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ أي جاءنا ونزل بنا الموت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

﴿ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين؛ وذلك أن قوماً من أهل التوحيد عُذّبوا بذنوبهم، ثم شُفِعَ فيهم، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة، فأخرجوا من النار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى أو عيسى، ثم نبيكم ﷺ، ثم الملائكة، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ويبقى قوم في جهنم، فيقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ قال عبد الله بن مسعود: فهؤلاء هم الذين يبقَون في جهنم؛ وقد ذكرنا إسناده في كتاب «التذكرة».

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي فما لأهل مكة قد أعرضوا وولّوا عما جئتم به. وفي تفسير مقاتل: الإعراض عن القرآن من وجهين: أحدهما الجحود والإنكار، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه. و«مُعْرِضِينَ» نصب على الحال من الهاء والميم في «لَهُمْ» وفي اللام معنى الفعل؛ فٱنتصاب الحال على معنى الفعل. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ قال ٱبن عباس: أراد الحمر الوحشية. وقرأ نافع وٱبن عامر بفتح الفاء، أي مُنَفَّرة مذعورة؛ وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم. الباقون بالكسر، أي نافرة. يقال: نَفَرت وٱسْتَنفرت بمعنًى؛ مثل عَجِبت وٱسْتَعجبت، وسَخِرت وٱسْتَسخرت، وأنشد الفراء:

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ ... فِي إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرّبِ[1]

قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ﴾ أي نفرت وهربت ﴿مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ أي من رُماة يرمونها. وقال بعض أهل اللغة: إن القسورة الرامي، وجمعه القَسْورة. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وٱبن كَيْسان: القَسْورة: هم الرّماة والصيادون، ورواه عطاء عن ٱبن عباس وأبو ظَبيان عن أبي موسى الأشعري. وقيل: إنه الأسد؛ قاله أبو هريرة وٱبن عباس أيضاً. ٱبن عرفة: من القَسْر بمعنى القَهْر أي؛ إنه يقهر السباع، والحمر الوحشية تهرب من السباع. وروى أبو جمرة عن ٱبن عباس قال: ما أعلم القسورةَ الأسَد

---

(١) غُرّب: اسم موضع، وجبل دون الشام في بلاد بني كلاب.

في لغة أحد من العرب، ولكنها عُصَب الرجال؛ قال: فالقسورة جمع الرجال، وأنشد:

يـا بنـتُ كُـونِـي خَيْـرةً لِخيِّـره أخـوالُهـا الجـنّ وأهـلُ القَسْـورَهْ

وعنه: رِكْز الناس أي حسّهم وأصواتهم. وعنه أيضاً: «فَرّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» أي من حبال الصيادين. وعنه أيضاً: القسورة بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة: الرماة؛ وبلسان فارس: شير، وبلسان النَّبَط: أريا. وقال ٱبن الأعرابي: القسورة: أوّلُ الليل؛ أي فرّت من ظلمة الليل. وقاله عِكرمة أيضاً. وقيل: هو أوّل سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قَسْورة. وقال زيد بن أسلم: من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقَسْور. وقال لبيد بن ربيعة:

إذا مـا هَتفْنـا هَتفـةً فـي نَـدِيِّنـا أتـانـا الـرجـالُ العـائـدون القَسَـاوِر

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ أي يعطى كتباً مفتوحة؛ وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد! إيتنا بكتب من ربّ العالمين مكتوب فيها: إني قد أرسلتُ إليكم محمداً، ﷺ. نظيره: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]. وقال ٱبن عباس: كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. قال مطر الورّاق: أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل. وقال الكلبيّ: قال المشركون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوباً ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك. وقال مجاهد: أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل: إلى فلان بن فلان. وقيل: المعنى أن يذكر بذكر جميل، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازاً. وقالوا: إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك؟ ﴿كَلَّا﴾ أي ليس يكون ذلك. وقيل: حقًّا. والأوّل أجود؛ لأنه رد لقولهم. ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ أي لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة، ٱغتراراً بالدنيا. وقرأ سعيد بن جبير «صُحْفاً مُنْشَرَةً» بسكون الحاء والنون، فأما تسكين الحاء فتخفيف، وأما النون فشاذ. إنما يقال: نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت. ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها، فإذا نشرت حييت، فجاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب، فقيل فيه نشر الله الميت، فهي لغة فيه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي حقًّا إن القرآن عظة. ﴿فَمَن شَآءَ

﴿ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ أي ٱتعظ به. ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ أي وما يتعظون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم. وقراءة العامة «يَذْكُرُونَ» بالياء وٱختاره أبو عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ۝٥٣﴾. وقرأ نافع ويعقوب بالتاء، وٱختاره أبو حاتم، لأنه أعمّ وٱتفقوا على تخفيفها. ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ في الترمذيّ وسنن ٱبن ماجه عن أنس بن مالك:

[٦١٨٠] عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ قال: «قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أُتّقى فمن ٱتقاني فلم يجعل معي إلٰهاً فأنا أهلٌ أن أغفر له» لفظ الترمذي، وقال فيه: حديث حسن غريب. وفي بعض التفسير: هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار. وقال محمد بن نصر: أنا أهلٌ أن يتقيني عبدي، فإن لم يفعل كنت أهلاً أن أغفر له وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم.

[٦١٨٠] ضعيف. أخرجه الترمذي ٣٣٢٨ والنسائي في «الكبرىٰ» ١١٦٣٠ وابن ماجه ٤٢٩٩ وأحمد ٣/ ١٤٢ وأبو يعلىٰ ٣٣١٧ والبغوي في «تفسيره» ٤/ ٣٨٨ وصححه الحاكم ٢/ ٥٠٨ ووافقه الذهبي! كلهم من حديث أنس وقال الترمذي: حسن غريب وسهيل بن أبي حزم ليس بالقوي وقد تفرد به اهـ مداره علىٰ سهيل هذا وقد ضعفه الحافظ في التقريب. وذكره الذهبي في الميزان بهذا الحديث وقال: لا يتابع عليه ونقل عن يحيىٰ قوله: ضعيف راجع الميزان ٢/ ٢٤٤.

سورة القيامة

مكية، وهي تسع وثلاثون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ قيل: إن «لا» صلة، وجاز وقوعها في أوّل السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ [الحجر: ٦] وجوابه في سورة أخرى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ [القلم: ٢] ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة؛ قاله ٱبن عباس وٱبن جبير وأبو عبيدة؛ ومثله قول الشاعر:

تـذكَّـرتُ لَيْلَـى فـاعتـرتنِـي صَبَـابَـةٌ ... فكـاد صمِيـمُ القلـبِ لا يَتَقَطَّـعُ

وحكـى أبـو الليـث السَّمـرقنـديّ: أجمـع المفسـرون أن معنـى «لاَ أُقْسِـمُ»: أقسـم. وٱختلفوا في تفسير «لا» قال بعضهم: «لا» زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة «لا» كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني أن تسجد، وقال بعضهم: «لا»: ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم.

قلت: وهذا قول الفرّاء؛ قال الفرّاء: وكثير من النحويين يقولون «لا» صلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردّ عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدإ وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ «لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحقّ، كأنك أكذبت قوماً أنكروه. وأنشد غير الفرّاء لامرىء القيس:

فـلا وأبِيـكِ ٱبنـةَ العـامِـرِيِّ ... لا يَـدَّعِـي القـومُ أنّـي أَفِـرّ

وقال غُويَّة بن سلمى:

ألا نـادتْ أمـامـةُ بـاْحتمـال   لِتحـزُنِنـي فـلا بِـكِ مـا أبـالِـي

وفائدتها توكيد القسم في الردّ. قال الفرّاء: وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لأُقْسِمُ» بغير ألف؛ كأنه لام تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول: لأقسم بالله وهي قراءة الحسن وٱبن كثير والزهريّ وٱبن هُرْمز ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ أي بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء. ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه ولم يقسم بالنفس. وعلى قراءة ٱبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقيل: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ ردّ آخر وٱبتداء قسم بالنفس اللوامة. قال الثعلبيّ: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً. ومعنى: «بالنَّفْسِ اللَّوامَةِ» أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل: إنها ذات اللوم. وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدح؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغاً حسناً. وفي بعض التفسير: إنه آدم عليه السلام لم يزل لائماً لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة. وقيل: اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة ـ عن ٱبن عباس أيضاً ـ فهي صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسماً؛ إذ ليس للعاصي خَطَر يُقْسَم به، فهي كثيرة اللوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسّر في الآخرة على ما فرّط في جنب الله. وقال الفراء: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ٱزداد إحساناً والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ٱرعوى عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رُفاتاً. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة: ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي لتبعثنّ؛ ودلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ لِلإحياء والبعث. والإنسان هنا الكافر المكذّب للبعث. الآية نزلت في عديّ بن ربيعة قال للنبيّ ﷺ:

[٦١٨١] حدّثني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبيّ ﷺ بذلك؛ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به، أو يَجمع الله العظام؟! ولهذا كان النبيّ ﷺ يقول: «اللهمّ أكفني جارَي السُّوءِ عديَّ بن ربيعة، والأخنَس بن شَرِيق». وقيل: نزلت في عدوّ الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت. وذكر العظام والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالَب الخَلْق. ﴿بَلَىٰ﴾ وقف حسن ثم تبتدىء ﴿قَٰدِرِينَ﴾. قال سيبويه: على معنى نجمعها قادرين، فـ«قادِرين» حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير. وقيل: المعنى بلى نقدر قادرين. قال الفراء: «قَادِرِينَ» نصب على الخروج من «نَجْمَع» أي نقدر ونقوى «قَادِرِينَ» على أكثر من ذلك. وقال أيضاً: يصلح نصبه على التكرير أي «بَلَى» فليحسبنا قادرين. وقيل: المضمر «كنا» أي كنا قادرين في الابتداء، وقد أعترف به المشركون. وقرأ أبن أبي عَبْلة وأبن السَّمَيْقَع «بَلَى قَادِرُونَ» بتأويل نحن قادرون. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدها بنانة؛ قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ ... عَنَمٌ[1] يَكادُ مِنَ اللَّطَافةِ يُعْقَدُ

وقال عنترة:

وأَنَّ الموتَ طَوْعَ يدِي إذا ما ... وَصَلْتُ بَنَانَهَا بِالهِنْدُوَانِيْ

فنبّه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضاً فإنها أصغر العظام، فخصّها بالذكر لذلك. قال القتبيّ والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلاَميّات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوي، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر. وقال أبن عباس وعامة المفسرين: المعنى: «عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ» أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخفّ البعير، أو كحافر الحمار، أو كظلف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً، ولكنا فرّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء. وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تبسطهنّ، وتقبضهن[2]، ولو شاء الله لجمعهنّ فلم تتق الأرض إلا بكفيك[3]. وقيل: أي نقدر أن

[٦١٨١] لم أجد له إسناداً، ذكره الواحدي في أسباب النزول ٨٤٣ بدون إسناد وعزاه الحافظ في «الكشاف» ٤/٦٥٩ للثعلبي والبغوي والواحدي بلا إسناد. ولم يذكره السيوطي في الدر ولا في غيره كأسباب النزول ونحو ذلك. والظاهر أن الآية عامة.

---

(١) العنم: شجر لين الأغصان، يشبه به البنان.

(٢) زيد في الأصل «بهنّ» والمثبت عن الطبري ٣٥٥٤٣.

(٣) عند الطبري «بفيك».

نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

قلت: والتأويل الأوّل أشبه بمساق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ قال ابن عباس: يعني الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ أي يسأل متى يكون! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه. ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القُتَبِيّ وغيره: أن أعرابيًا قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نَقْب[1] إبله ودَبَرها، وسَأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله؛ فقال الأعرابيّ:

أَقْسَمَ بِاللَّهِ أبو حفصٍ عُمَرْ ... ما مَسَّها مِن نَقَبٍ ولا دَبَرْ[1]

فاغفِر له اللّهمّ إنْ كان فَجَرْ

يعني إن كان كذّبني فيما ذكرت. وعن ابن عباس أيضاً: يعجِّل المعصية ويسوِّف التوبة. وفي بعض الحديث قال: يقول سوف أتوب ولا يتوب؛ فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسن وعِكرمة والسّديّ وسعيد بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت. وقيل: أي يعزم على المعصية أبداً وإن كان لا يعيش إلا مدّة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للإنسان. وقيل: الهاء ليوم القيامة. والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة. والفجور أصله الميل عن الحقّ. ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ أي متى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم «بَرَقَ» بفتح الراء، معناه: لمع بصره من شدّة شخوصه، فتراه لا يَطرِف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة. وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة

(١) النقب قرحة تخرج في الجنب. والجرب والدبر: قرحة الدابة والبعير.

«إِذَا بَرَقَ الْبَصَرَ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ». والباقون بالكسر «بَرِقَ» ومعناه: تحيّر فلم يَطرِف؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما. قال ذو الرمّة:

ولـو أنّ لُقْمَـانَ الحكيـم تَعَـرَّضَـتْ لِعينيـهِ مَـيٌّ سـافِـراً كـاد يَبْـرَقُ

الفرّاء والخليل: «برِقَ» بالكسر: فَزِع وبُهِت وتَحيَّر. والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت: قد بَرِق فهو برِقٌ؛ وأنشد الفرّاء[1]:

فنَفْسَـــكَ فـــأنْـــعَ ولا تَنْعَنِـــي وداوِ الكُلُــــومَ ولا تَبْـــرِقَ

أي لا تَفـزَع مـن كثـرة الكُلُـوم التـي بـك. وقيـل: بـرَقَ يَبـرُق بـالفتـح: شـقّ عينيـه وفتحهما. قاله أبو عبيدة؛ وأنشد قول الكلابيّ:

لمـا أتـانِـي ابـنُ عُمَيـرٍ راغِبـاً أعطيتُـه عِيسـاً[2] صِهـابـاً فبَـرِقَ

أي فتح عينيه. وقيل: إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ أي ذهب ضوؤه. والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوؤه. ويحتمل أن يكون بمعنى غاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج: «وَخُسِفَ الْقَمَر» بضم الخاء وكسر السين يدل عليه «وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ». وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كله فهو الخسوف. ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: ولم يقل جمعت؛ لأن المعنى جمع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر. وقال الكسائيّ: هو محمول على المعنى، كأنه قال الضوءان. المبرد: التأنيث غير حقيقي. وقال ابن عباس وابن مسعود: جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلمين مُقرَنَين كأنهما ثوران عَقيران. وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة «الأنعام». وفي قراءة عبد الله «وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى[3]. وقال عليٌّ وابن عباس: يجعلان في نور الحجب. وقد يجمعان في نار جهنم؛ لأنهما قد عبِدَا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت

---

(١) قائله: طرفة.

(٢) العيس الصهاب: الإبل التي خالط بياضها حمرة، وهي تعد عند العرب من أشرفها.

(٣) هذا الأثر وأشباهه من الإسرائيليات.

الكافرين وحسرتهم. وفي مسند أبي داود الطيالسيّ، عن يزيد الرقاشيّ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبيّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦١٨٢] «إن الشمس والقمر ثوران عَقيران في النار» وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدّة الحر؛ فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم. وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثَمّ تعاقب ليل ولا نهار.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾؟ أي يقول ٱبن آدم، ويقال: أبو جهل؛ أي أين المهرب؟ قال الشاعر:

أيــن المفــرُّ والكِبــاشُ تَنتطِــحْ وأيُّ كَبْــشٍ حــاد عنهــا يَفْتَضِــحْ

الماورديّ: ويحتمل وجهين: أحدهما ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ من الله ٱستحياء منه. الثاني ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ من جهنم حذراً منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: أحدهما ـ أن يكون من الكافر خاصة في عَرْضة القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه. الثاني ـ أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها. وقراءة العامة «الْمَفَرُّ» بفتح الفاء وٱختاره أبو عبيدة وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم؛ قال الكسائي: هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِب، ومَصَحّ ومَصِحّ. وعن الزهريّ بكسر الميم وفتح الفاء. المهدويّ: من فتح الميم والفاء من «المفر» فهو مصدر بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذي يفرّ إليه. ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك.

قلت: ومنه قول ٱمرىء القيس:

* مِكَـرّ مِفَـرّ مُقْبِل مُدْبِـرٍ مَعـاً *

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جَيِّدَه. ﴿كَلَّا﴾ أي لا مفرّ فـ«كَلَّا» ردٌّ وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردّ فقال: ﴿لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ أي لا ملجأ من النار. وكان ٱبن مسعود يقول: لا حِصن. وكان الحسن يقول: لا جبل. وٱبن عباس يقول: لا ملجأ. وٱبن جُبير: لا محيص ولا منعة. المعنى في ذلك كله واحد. والوَزَر في اللغة: ما يلجأ إليه من حِصن

[٦١٨٢] ضعيف جداً. أخرجه الطيالسي ٢١٠٣ وابن حبان في «المجروحين» ١/٢٩٣ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/١٤٠ من حديث أنس وقال ابن حبان لا يحل الاحتجاج برواية درسْت بن زياد. وقال يحيىٰ: ليس بشيء، اهـ وفيه يزيد بن أبان الرقاشي روىٰ عن أنس مناكير كثيرة وهذا منها.

أو جبل أو غيرهما؛ قال الشاعر:

لَعَمْرِيَ ما لِلفتى مِن وَزَرْ ... مِنَ المَوتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ

قال السديّ: كانوا في الدنيا إذا فزِعوا تحصّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لاَ وَزَر يعصمكم يومئذ منّي؛ قال طرفة:

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنّنَا ... فاضِلُو الرَّأْيِ وَفِي الرَّوْعِ وَزَرْ

أي ملجأ للخائف. ويروى: وَقُرٌ. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي المنتهَى؛ قاله قتادة. نظيره: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]. وقال ٱبن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع. قيل: أي المستقرّ في الآخرة حيث يقرّه الله تعالى؛ إذ هو الحاكم بينهم. وقيل: إن «كَلَّا» من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفرّ قال لنفسه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يخبر ٱبن آدم بَرًّا كان أو فاجراً ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾: أي بما أسلف من عمل سَيّىء أو صالح، أو أخّر من سنّة سيّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده؛ قاله ٱبن عباس وٱبن مسعود. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبأ أوّل عمله وآخره. وقاله النَخَعيّ. وقال ٱبن عباس أيضاً: أي بما قدّم من المعصية، وأخّر من الطاعة. وهو قول قتادة. وقال ٱبن زيد: «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه «وَأَخَّرَ»: خلّف للورثة. وقال الضحاك: ينبأ بما قدّم من فرض، وأخّر من فرض. قال القشيريّ: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأوّل أظهر؛ لما خرجه ٱبن ماجه في سننه من حديث الزهريّ، حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦١٨٣] «إنّ مما يَلْحَق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته عِلماً علّمه ونَشَره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته» وخرجه أبو نَعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦١٨٣] أخرجه ابن ماجه ٢٤٢ وابن خزيمة ٢٤٩٠ من حديث أبي هريرة ومداره علىٰ مرزوق بن أبي الهذيل لينه الحافظ في التقريب وقال ابن حبان له مناكير وقال البخاري: يعرف وينكر. وقال البوصيري في الزوائد: إسناده غريب ومرزوق مختلف فيه ا هـ فالحديث غير قوي. والصحيح في ذلك حديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث. . . .» خرّجه مسلم.

[٦١٨٤] «سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره: من علّم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو وَرَّثَ مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته» فقوله: «بعد موته وهو في قبره» نصّ على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يبشَّر بذلك في قبره. ودل على هذا أيضاً قوله الحقّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم.

وفي الصحيح:

[٦١٨٥] «من سنّ في الإسلام سنّة حسنةً كان له أجرها وأجر من عمِل بها بعده، من غير أن يُنقَص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك. وقال ابن عباس: «بَصِيرَةٌ» أي شاهد، وهو شهود جوارحه عليه: يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر بهما. والبصيرة: الشاهد. وأنشد الفرّاء:

كأنّ على ذي العقلِ عَيْناً بصيرةً   بِمَقْعَدِه أو مَنْظَرٍ هو ناظِرُهُ
يُحاذِر حتى يَحسِبَ الناسَ كلَّهمْ   من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرَائِرُهُ

ودليل هذا التأويل من التنزيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]. وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارح، لأنها شاهدة على نفس الإنسان؛ فكأنه قال: بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة؛ قال معناه القتبيّ وغيره. وناس يقولون: هذه الهاء في قوله: «بَصِيرَةٌ» هي التي يسمِّيها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهِية وعلّامة وراوية. وهو قول أبي عُبيد. وقيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ فيمن جعل المعاذير السُّتور. وهو قول السّديّ

[٦١٨٤] ضعيف. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٢/٣٤٣ ـ ٣٤٤ من حديث أنس وإسناده ضعيف فيه محمد بن عبيد الله العرزمي وهو متروك الحديث.

[٦١٨٥] تقدم مراراً.

والضحاك. وقال بعض أهل التفسير: المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة؛ أي شاهد فحذف حرف الجر. ويجوز أن يكون «بصيرة» نعتاً لاسم مؤنث فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة؛ وأنشد الفراء:

* كأنّ على ذِي العقلِ عيناً بصيرةً *

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ يعني بصير بعيوب غيره، جاهل بعيوب نفسه. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أي ولو أَرْخَى سُتوره. والسِّتر بلغة أهل اليمن: مِعذار؛ قاله الضحاك. وقال الشاعر:

ولكنها ضَنَّتْ بِمنزلِ ساعةٍ　　　علينا وأَطَّتْ فَوقَهَا بالْمَعَاذِرِ

قال الزجاج: المعاذِر: السُّتور، والواحد مِعذار؛ أي وإن أرخى ستره؛ يريد أن يخفي عمله، فنفسه شاهدة عليه. وقيل: أي ولو ٱعتذر فقال لم أفعل شيئاً، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن ٱعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذِّب عذره؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفرّاء والسّديّ أيضاً ومقاتل. قال مقاتل: أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك. نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٦] فالمعاذير على هذا: مأخوذ من العذر؛ قال الشاعر:

وإياكَ والأمرَ الذي إنْ تَوسَّعَتْ　　　مَوارِدُهُ ضاقتْ عليكَ المصادِرُ
فما حَسنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ　　　وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذر

وٱعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخعيّ فقال له: قد عذرتك غير مُعتذِر، إن المعاذِير يَشُوبها الكذب. وقال ٱبن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾أي لو تجرّد من ثيابه . حكاه الماورديّ.

قلت: والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب؛ ومنه قول النابغة:

ها إنَّ ذِي عِذْرَةٌ إلاَّ تَكنْ نَفعتْ　　　فإنّ صاحِبَها مُشَارِكُ النَّكَدِ

والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله تعالى في المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. وفي الصحيح أنه يقول:

[٦١٨٦] «يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصُمتُ وتصدّقتُ، ويُثني

[٦١٨٦] تقدم تخريجه.

بخير ما ٱستطاع» الحديث. وقد تقدم في «حمَ السجدة» وغيرها. والمعاذير والمعاذِر: جمع مَعْذرة؛ ويقال: عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْراً وعُذُراً، والاسم المَعْذِرة والعُذْرى؛ قال الشاعر[1]:

* إنّـي حُدِدْتُ ولا عُـذْرَى لِمَحْدُودِ *

وكذلك العِذْرة وهي مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة؛ قال النابغة:

هـا إنْ تَـاعِـذْرَةٌ إلاّ تَكُـنْ نَفَعَـتْ فـإنّ صـاحِبَهـا قَـدْ تـاه فـي الْبَلَـدِ

وتضمّنت هذه الآية خمس مسائل:

الأولى ـ قال القاضي أبو بكر بن العربيّ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليها؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤] ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه ـ وهي المسألة:

الثانية ـ وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] و[2] قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وهو في الآثار كثير؛ قال النبيّ ﷺ:

[٦١٨٧] «ٱغْدُ يا أُنَيس على ٱمرأة هذا، فإن ٱعترفت فٱرجمها». فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون، فيقول أحدهم: إن أبي قد أقرّ أن فلاناً ٱبنه، أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد، ولا يجوز إقرار الذي أقرّ إلا على نفسه في حصته من مال أبيه، يعطى الذي شهد له قدر الدين الذي يصيبه من المال الذي في يده. قال مالك: وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك ٱبنين ويترك ستمائة دينار، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلاناً ٱبنه، فيكون على الذي شهد للذي ٱستحق مائة دينار، وذلك نصف ميراث المستلحَق لو

[٦١٨٧] متفق عليه،وتقدم في بحث الرجم في سورة النساء والنور.

---

(١) هو الجموح الطغري.

(٢) في الأصل «ثم» والمثبت عن أحكام ابن العربي ٤/ ٣٤٤.

لحق، وإن أقرّ له الآخر أخذ المائة الأخرى فٱستكمل حقّه وثبت نسبه. وهو أيضاً بمنزلة المرأة تقر بالدين على أبيها أو على زوجها وينكر ذلك الورثة، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرّت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم، إن كانت ٱمرأة فورثت الثُّمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه، وإن كانت ٱبنة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه، على حساب هذا يدفع إليه من أقرّ له من النساء.

الثالثة ـ لا يصح الإقرار إلا من مكلّف، لكن بشرط ألا يكون محجوراً عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه، فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط، ومنه جائز. وبيانه في مسائل الفقه. وللعبد حالتان في الإقرار: إحداهما في ٱبتدائه، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم. والثانية في ٱنتهائه، وذلك مثل إبهام الإقرار، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ: الصورة الأولى ـ أن يقول له عندي شيء، قال الشافعي: لو فَسّره بتمرة أو كِسرة قُبل منه. والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَدر، فإذا فسره به قُبل منه وحلف عليه. الصورة الثانية ـ أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالاً في الشريعة: لم يُقْبل بٱتفاق ولو ساعده عليه المقرّ له. الصورة الثالثة ـ أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب، فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من ردّ وإمضاء فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء لأن الحكم قد نفذ بإبطاله. وقال بعض أصحاب الشافعي: يلزم الخمر والخنزير؛ وهو قول باطل. وقال أبو حنيفة: إذا قال له عليّ شيءٌ لم يقبل تفسيره إلا بِمَكيل أو موزون، لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما. وهذا ضعيف؛ فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعاً. الصورة الرابعة ـ إذا قال له: عندي مالٌ قُبِل تفسيره بما لا يكون مالاً في العادة كالدرهم والدرهمين، ما لم يجيء من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه. الصورة الخامسة ـ أن يقول له: عندي مال كثير أو عظيم؛ فقال الشافعيّ: يُقبل في الحبّة. وقال أبو حنيفة: لا يُقبل إلا في نصاب الزكاة. وقال علماؤنا في ذلك أقوالاً مختلفة، منها نصاب السرقة والزكاة والدّية وأقله عندي نصاب السّرقة، لأنه لا يُبَان عُضُو المسلم إلا في مال عظيم. وبه قال أكثر الحنفية. ومن يعجب فيتعجّب لقول الليث بن سعد: إنه لا يُقبل في أقل من ٱثنين وسبعين درهماً. فقيل له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥] وغزواته وسراياه كانت ٱثنتين وسبعين. وهذا لا يصح؛ لأنه أخرج حُنَيْنا منها، وكان حقّه أن يقول يقبل في أحد وسبعين، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٨]. الصورة

السادسة: إذا قال له: عندي عشرة أو مائة أو ألف، فإنه يُفَسّرها بما شاء ويُقْبل منه، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهماً فإنه يُفسِّر المبهم ويُقبَل منه. وبه قال الشافعيّ. وقال أبو حنيفة: إن عطف على العدد المبهم مكيلاً أو موزوناً كان تفسيراً؛ كقوله: مائة وخمسون درهماً؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين، والخمسين تفسير للمائة. وقال ٱبن خيران الإصطخري من أصحاب الشافعيّ: الدرهم لا يكون تفسيراً في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفَسِّر هو المائة بما شاء.

المسألة الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ ومعناه لو ٱعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه. وقد ٱختلف العلماء فيمن رجع بعدما أقرّ في الحدود التي هي خالص حقّ الله؛ فقال أكثرهم منهم الشافعيّ وأبو حنيفة: يقبل رجوعه بعد الإقرار. وقال به مالك في أحد قوليه، وقال في القول الآخر: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهاً صحيحاً. والصحيح جواز الرجوع مطلقاً؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم أن النبيّ ﷺ رد المقرّ بالزنى مراراً أربعاً كل مرّة يُعرِض عنه، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبيّ ﷺ وقال: «أبكَ جنون» قال: لا. قال: «أُحْصِنتَ» قال: نعم[١]. وفي حديث البخاريّ: «لعلّك قَبّلت أو غمزت أو نظرتَ»[٢]. وفي النّسائيّ وأبي داود: حتى قال له في الخامسة «أجامعتها» قال: نعم. قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها» قال: نعم. قال: «كما يغيب المِرود في المُكْحلة والرِّشاء في البئر». قال: نعم. قال: «هل تدري ما الزنى؟» قال: نعم؛ أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالاً». قال: «فما تريد مني»؟ قال: أريد أن تطهرني. قال: فأمر به فَرُجم. قال الترمذيّ وأبو داود: فلما وجد مَسّ الحجارة فَرَّ يشتد، فضربه رجل بلَحْي جَمَل، وضربه الناس حتى مات. فقال النبي ﷺ: «هَلاَّ تركتموه»[٣] وقال أبو داود والنَّسائي: ليتثبت رسول الله ﷺ، فأما لترك حَدّ فلا. وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله. وفي قوله عليه السلام: «لعلك قَبَّلْتَ أو غمزتَ» إشارة إلى قول مالك: إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهاً.

الخامسة ـ وهذا في الحر المالك لأمر نفسه، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يقرّ على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقر على ما في بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن

(١) تقدم.
(٢) تقدم.
(٣) تقدم.

بدنه مستغرَق لحقّ السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بَدَنه؛ ودليلنا قوله ﷺ:

[٦١٨٨] «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بسَتْر الله، فإن من يُبْد لنا صفحته نُقِم عليه الحدّ». المعنى: أن محل العقوبة أصل الخلقة، وهي الدُّمْيَة في الآدمية، ولا حقّ للسيد فيها، وإنما حقّه في الوصف والتبع، وهي المالية الطارئة عليه؛ ألا ترى أنه لو أقرّ بمال لم يقبل، حتى قال أبو حنيفة: إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقرّ له. وقال علماؤنا: السِّلْعة للسيد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق؛ لأن مال العبد للسيد إجماعاً، فلا يُقبل قوله فيه ولا إقراره عليه، ولا سيما وأبو حنيفة يقول: إن العبد لا ملك له. ولا يصح أن يَمْلِك ولا يملك، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملّكه، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ في الترمذي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:

[٦١٨٩] كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرّك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ قال: فكان يحرّك به شفتيه. وحرّك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. ولفظ مسلم عن ٱبن جُبير عن ٱبن عباس قال: كان النبيّ ﷺ يعالج من التنزيل شدّة، كان يحرّك شفتيه، فقال لي ٱبن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحرّكهما؛ فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ٱبن عباس يحرّكهما، فحرك شفتيه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال جمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قال فاستمع له وأنصت. ثم إن علينا أن نقرأه؛ قال: فكان رسول الله ﷺ بعد

[٦١٨٨] أخرجه مالك ٢/ ٨٢٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً ووصله الحاكم ٤/ ٢٤٤ من وجه آخر عن ابن عمر مرفوعاً وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي وجاء في تلخيص الحبير ٤/ ٥٧ ما ملخصه: وصححه ابن السكن، وقال الدارقطني في العلل: روي مرسلاً ومسنداً والمرسل أشبه.

[٦١٨٩] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٢٧ و ٤٩٢٨ و ٤٩٢٩ و ٥٠٤٤ و ٧٥٢٤ ومسلم ٤٤٨ والحميدي ٥٢٧ والطيالسي ٢٦٢٨ وأحمد ١/ ٣٤٣ والترمذي ٣٢٢٩ وابن سعد ١/ ١٩٨ والنسائي ٢/ ١٤٩ وابن حبان ٣٩ من طرق كلهم من حديث ابن عباس.

---

(١) تقدم مستوفياً فيما قبله.

ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام ٱستمع، وإذا ٱنطلق جبريل عليه السلام قرأه النبيّ ﷺ كما أقرأه؛ خرّجه البخاري أيضاً[1]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وقد تقدّم. وقال عامر الشَّعْبي: إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له، وحلاوته في لسانه، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض. وقيل: كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه، فنزلت ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] ونزل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦] ونزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ قاله ٱبن عباس: «وقرآنه» أي وقراءته عليك. والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران. وقال قتادة: «فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ» أي فٱتبع شرائعه وأحكامه. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام؛ قاله قتادة. وقيل: ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما. وقيل: أي إن علينا أن نبيّنه بلسانك. قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال ٱبن عباس: أي إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه. وقيل: أي «كَلَّا» لاَ يُصَلّون ولا يزكّون يريد كفّار مكة. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أي بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ أي الدار الدنيا والحياة فيها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تَدَعون ﴿ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾ والعمل لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة الجنة. وقرأ أهل المدينة والكوفيون «بَلْ تُحِبُّونَ» «وتَذَرُونَ» بالتاء فيهما على الخطاب وٱختاره أبو عبيد؛ قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو ٱختيار أبي حاتم، فمن قرأ بالياء فرداً على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهو بمعنى الناس. ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود؛ نظيره: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ الأوّل من النّضْرة التي هي الحسن والنَّعمة. والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال: نَضَرهم اللَّهُ يَنضرُهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغنى؛ ومنه الحديث:

(١) انظر المتقدم ٦١٨٩.

[٦١٩٠] «نَضّر الله أمرأً سمع مقالتي فوعاها». «إِلَى رَبِّهَا» إلى خالقها ومالكها «نَاظِرَةٌ» أي تنظر إلى ربها؛ على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى في «يونس» عند قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. وكان ابن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وَعشية؛ ثم تلا هذه الآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وروى يزيد النحوي عن عِكْرمة قال: تنظر إلى ربها نظراً. وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم.

وقيل: إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب. وروي عن ابن عمر ومجاهد. وقال عِكرمة: تنتظر أمر ربها. حكاه الماوردِيّ عن ابن عمر وعِكرمة أيضاً. وليس معروفاً إلا عن مجاهد وحده. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهذا القول ضعيف جدًّا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفي الترمذيّ عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ:

[٦١٩١] «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جِنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيّة» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ قال: هذا حديث غريب. وقد روي عن ابن عمر ولم يرفعه. وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال:

[٦١٩٢] «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزّ إلا رِداء الكبرياء على وجهه في جَنّة عدن». وروى جرير بن عبد الله قال:

[٦١٩٠] مضىٰ تخريجه، وهو حديث قوي.

[٦١٩١] ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٥٥٦ و ٣٣٢٧ من حديث ابن عمر، وإسناده ضعيف لضعف ثوير بن أبي فاختة بل اتهمه الثوري راجع الميزان وقد ضعفه الترمذي بقوله: حديث غريب وروي عن ابن عمر من قوله.

[٦١٩٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٧٨ و ٤٨٨٠ و ٧٤٤٤ ومسلم ١٨٠ وأحمد ٤/٤١١ والترمذي ٢٥٢٨ وابن خزيمة ص ١٦ وابن حبان ٧٣٨٦ وابن أبي شيبة ١٣/١٤٨ والطيالسي ٥٢٩ من حديث عبد الله بن قيس وهو أبو موسىٰ الأشعري.

[٦١٩٣] كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر، لا تُضَامون في رؤيته؛ فإن ٱستطعتم ألاّ تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فٱفعلوا». ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق: ٣٩] متّفق عليه. وخرجه أيضاً أبو داود والترمذيّ وقال حديث حسن صحيح. وخرج أبو داود عن أبي رَزِين العُقَيليّ قال:

[٦١٩٤] قلت يا رسول الله أكلّنا يرى ربه؟ قال ٱبن[1] معاذ: مُخْلِياً به يوم القيامة؟ قال: «نعم يا أبا رَزِين» قال: وما آية ذلك في خَلْقه؟ قال: «يا أبا رَزِين أليس كلّكم يَرَى القمر» قال ٱبن معاذ: ليلة البدر مُخْلِياً به. قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم» قال ٱبن معاذ قال: «فإنما هو خلق من خلق الله ـ يعني القمر ـ فالله أجل وأعظم». وفي كتاب النسائيّ عن صُهَيب قال:

[٦١٩٥] «فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر، ولا أقرّ لأعينهم» وفي التفسير لأبي إسحاق الثَّعلبيّ عن [أبي][2] الزبير عن جابر قال:

[٦١٩٦] قال رسول الله ﷺ: «يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه، فيخرّون له سُجّداً، فيقول ٱرفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عِبادة» قال الثّعلبيّ: وقول مجاهد إنها بمعنى تنتظر الثواب من ربّها ولا يراه شيء من خلقه، فتأويل مدخول؛ لأن

[٦١٩٣] صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٤ و ٤٨٥١ و ٧٤٣٤ و ٧٤٣٥ ومسلم ٦٣٣ وأبو داود ٤٧٢٩ والترمذي ٢٥٥١ وابن ماجه ١٧٧ والحميدي ٧٩٩ وأحمد ٤/ ٣٦٠ وابن حبان ٧٤٤٢ و ٧٤٤٣ من حديث جرير البَجَلي.

[٦١٩٤] أخرجه أبو داود ٤٧٣١ من حديث أبي رزين، وفي إسناده وكيع بن عُدُس شبه مجهول لذا قال عنه الحافظ: مقبول اهـ لكن للحديث شواهد يتقوىٰ بها والله أعلم.

[٦١٩٥] صحيح. أخرجه أحمد ٤/ ٣٣٢ والطيالسي ١٣١٥ ومسلم ١٨١ والترمذي ٢٥٥٢ وابن ماجه ١٨٧ والآجري في «التصديق بالنظر» ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ وابن حبان ٧٤٤١ وابن مندة ٧٨٢ و ٧٨٤ من حديث صهيب رضي الله عنه.

[٦١٩٦] أخرجه الدارقطني في كتاب «الرؤية» ٦٢ من طريق أبي الزبير عن جابر مرفوعاً وإسناده ضعيف جداً، فيه أحمد بن محمد اليمامي، وهو متروك. والوهن في عجزه، وأما صدره فله شواهد كثيرة.

---

(١) هو عبيد الله بن معاذ أحد رجال الإسناد.

(٢) ما بين المعكوفين مستدرك من كتب التراجم.

العرب إذا أرادت بالنظر الإنتظار قالوا نظرته؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، و ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يسٓ: ٤٩] وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى، وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان. وقال الأزهريّ: إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربّها خطأ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون نظرت إليه: إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته؛ قال:

فَـإنّكمـا إنْ تَنْظُـرانِـيَ سـاعـةً ... مِن الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

لما أراد الانتظار قال تنظراني، ولم يقل تنظران إليّ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه؛ قال:

نظـرتُ إليهـا والنُّجـومُ كـأنَّهـا ... مَصـابِيـحُ رُهْبـانٍ تُشَـبُّ لِقُفَّـالِ[1]

وقال آخر[2]:

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... ولِـي نَظَـرٌ لـولا التَّحَـرُّجُ عـارِمُ

وقال آخر:

إنِّـي إليـكَ لِمَـا وَعَـدتَ لنَـاظَـرٌ ... نَظَـرُ الفقيـرِ إلـى الغنـيِّ المُـوسِـرِ

أي إني أنظر إليك بذلّ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرقّ لقلب المسؤول؛ فأما ما ٱستدلوا به من قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإنما ذلك في الدنيا. وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفًى. وقال عطية العوفي: ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم بهم من عظمته، ونظره يحيط بها؛ يدل عليه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال القشيريّ أبو نصر: وقيل: «إلَى» واحد الآلاء: أي نعمه منتظرة وهذا أيضاً باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء: نعمه الدُّفَع، وهم في الجنة لا ينتظرون دفع نقمه عنهم، والمنتظر للشيء مُتَنغِّص العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك. وقيل: أضاف النظر إلى الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] والماء يجري في النهر لا النهر. ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾

(١) تشب: توقد. القفال: جمع قافل، وهو الراجع من السفر. والبيت لامرىء القيس.

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة.

[يوسف: ٩٣] أي على عينيه. ثم لا يبعد قلب العادة غداً، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك: ٢٢]، فقيل:

[٦١٩٧] يا رسول الله! كيف يمشون في النار على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم». ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة. وفي الصحاح[1]: وبَسَر الفحلُ الناقةَ وٱبتسرها: إذا ضربها من غير ضَبَعَة[2]. وبَسَر الرجلُ وجهَه بسُوراً أي كَلَح؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقال السّديّ: «بَاسِرَةٌ» أي متغيرة والمعنى واحد. ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فقرتْه الفاقرة: أي كسرت فَقَار ظهره. قال معناه مجاهد وغيره. وقال قتادة: الفاقرة الشرّ. السُّديّ: الهلاك. ٱبن عباس وٱبن زيد: دخول النار. والمعنى متقارب. وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم، قاله الأصمعي. يقال: فقرتُ أنف البعير: إذا حززته بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزِّ الجَرِيرَ[3] وعليه وَتَرٌ مَلْويّ، لِتذلِّلَه بذلك وتَرُوضَه؛ ومنه قولهم: قد عُمِل به الفاقرة. وقال النابغة:

أَبَـى لِـي قَبْـرٌ لا يَـزالُ مُقَـابِلِـي ... وضَـرْبَـةُ فَـأْسٍ فـوقَ رَأْسِـيَ فَـاقِـرَهْ

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ «كَلَّا» رَدْع وزَجْر؛ أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة؛ ثم ٱستأنف فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ أي بلغت النفس أو الروح التراقي؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر، لعلم المخاطب به؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [صۤ: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣] وقد تقدّم. وقيل: «كَلَّا» معناه حقاً؛ أي حقًّا أن المساق إلى الله «إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ» أي إذا ٱرتقت النفس إلى التراقي. وكان ٱبن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمع تَرْقُوة وهي العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحر، وهو مقدّم الحلق من أعلى

[٦١٩٧] تقدم في غير موضع.

---

(١) هو للإمام الجوهري.
(٢) ضبعت الناقة: اشتهت الفحل.
(٣) الجرير: حبل من أدم يخطم به البعير.

الصدر، موضع الحَشْرجة؛ قال دُرَيْد بن الصِّمّة:

وَرُبَّ عَظِيمـــةٍ دافَعْـــتَ عَنْهُـــمْ وقَـدْ بَلَغَـتْ نُفُـوسُهُـمُ التَّـرَاقِـي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡ رَاقٍ ۝٢٧﴾ ٱختُلف فيه؛ فقيل: هو من الرقية؛ عن ٱبن عباس وعِكرمة وغيرهما. روى سِمَاك عن عِكرمة قال: مَن راقٍ يَرْقِي: أي يَشْفِي. وروى ميمون بن مِهران عن ٱبن عباس: أي هل من طبيب يَشْفِيه؛ وقاله أبو قِلابة وقتادة؛ وقال الشاعر:

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْر مِنْ وَاقِ أَمْ هَلْ لَه مِنْ حِمَام الْمَوْتِ مِنْ رَاقِ

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس؛ أي من يقدر أن يَرْقِيَ من الموت. وعن ٱبن عباس أيضاً وأبي الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرْقَى: إذا صَعِدَ، والمعنى: من يَرقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن مَلَك الموت يقول مَن راقٍ؟ أي من يَرْقَى بهذه النفس؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها، فيقول ملَكَ الموت: يا فلان ٱصعد بها. وأظهر عاصم وقوم النون في قوله تعالى: ﴿مَنۡ رَاقٍ ۝٢٧﴾ واللام في قوله: «بَلْ رَانَ» لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرَقة، وبَرَّان في تثنية البرّ. والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف في ﴿مَنۡ رَاقٍ ۝٢٧﴾ وفتحة النون في «بَلْ رَانَ» تكفي في زوالِ اللبس. وأمثل مما ذُكِر: قصد الوقف على «مَنْ» و«بَلْ»، فأظهرهما؛ قاله القشيريّ.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨﴾ أي فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. وقال الشاعر:

فـــرَاقٌ ليـــس يُشبهُـــهُ فِـــرَاقٌ قـد ٱنقطـع الـرجـاءُ عـن التَّـلاَقِ

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ أي فٱتصلت الشدّة بالشدّة؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أوّل الآخرة؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى ٱلتفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفّتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: ٱلتفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضاً: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوّالاً. قال النحاس: القـول الأوّل أحسنهـا. وروى علـيّ بـن أبـي طلحـة عـن ٱبـن عبـاس: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ

بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ قال: آخرَ يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشدّة بالشدّة إلا من رحمه الله؛ أي شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ وقال مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. وقال الضحاك وٱبن زيد: ٱجتمع عليه أمران شديدان: الناس يُجهّزون جسده، والملائكة يُجهّزون رُوحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المِحن والشدائد العظام؛ ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق. قال الشاعر:

* وقامتِ الحربُ بنا على ساق *

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾. وقال قوم: الكافر تُعَذَّب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى خالقك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ أي المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه مَلَكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمَسَاق: المصدر من ساق يسوق، كالمقال من قال يقول.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ أي لم يصدّق أبو جهل ولم يصلّ. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أوّل السورة، وهو ٱسم جنس. والأوّل قول ٱبن عباس. أي لم يصدّق بالرسالة «وَلاَ صَلَّى» ودعا لربّه، وصلَّى على رسوله. وقال قتادة: فلا صدّق بكتاب الله، ولا صلَّى لله. وقيل: ولا صدّق بمال له، ذخراً له عند الله، ولا صلَّى الصلوات التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. قال الكسائي: «لاَ» بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره؛ تقول العرب: لا عبدُ الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا مُحْسِن حتى يقال ولا مُجْمِل، وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ١١] ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه أفلا ٱقتحم؛ أي فهلا ٱقتحم، فحذف ألف الاستفهام. وقال الأخفش: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي لم يصدّق؛ كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي لم يقتحم، ولم يشترط أن يُعْقِبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي لم يذهب، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل؛ ومنه قول زهير:

* فَلاَ هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ *

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ أي كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي يتبختر، ٱفتخاراً بذلك؛ قاله مجاهد وغيره. مجاهد: المراد به

أبو جهل. وقيل: «يَتَمَطَّى» من المَطَا وهو الظَّهْر، والمعنى يَلْوِي مَطَاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدّد من التكسّل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحق؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف، والتمطي يدل على قلة الاكتراث، وهو التمدّد، كأنه يمدّ ظهره ويلويه من التبختر. والمَطِيطة الماء الخاثر في أسفل الحوض؛ لأنه يتمطى أي يتمدّد؛ وفي الخبر:

[٦١٩٨] «إذا مشت أمّتي المُطَيْطَاءَ[1] وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم». والمُطَيْطاء: التبختر ومدّ اليدين في المشي.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾: تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي فهو وعيد أربعة لأربعة؛ كما روي أنها نزلت في أبي جهل الجاهِل بربّه فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ أي لا صدّق رسول الله، ولا وقف بين يديّ فصلّى، ولكن كذّب رسولي، وتولّى عن التصلية بين يديّ. فتَرْك التصديق خَصْلة، والتكذيب خَصْلة، وترك الصلاة خَصْلة، والتولي عن الله تعالى خَصْلة؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربع. والله أعلم. لا يقال: فإن قوله ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ خَصْلَة خامسة؛ فإنّا نقول: تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّي، فأخبر عنها. وذلك بَيِّنٌ في قول قتادة على ما نذكره. وقيل[2]: إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، مما يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزّه مرّةً أو مرتين ثم قال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» فقال له أبو جهل: أتهددُني؟ فوالله إني لأَعَزُّ أهل الوادي وأكرمه. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل. وهي كلمة وعيد. قال الشاعر:

فَأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى ... وهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

[٦١٩٨] صحيح. أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية نعيم بن حماد برقم ١٨٧ والترمذي ٢٢٦١ والعقيلي ٤/ ١٦٢ وابن عدي ٦/ ٣٣٥ والبيهقي في الدلائل ٦/ ٥٢٥ والبغوي ٤٢٠٠ من حديث ابن عمر، ومداره على موسىٰ بن عبيدة وهو واهٍ وتابعه يحيىٰ بن سعيد في رواية ثانية للترمذي وإسناده صحيح. وورد من حديث خولة بنت قيس أخرجه ابن حبان ٦٧١٦ وفيه عثمان بن يحيىٰ القرقساني وثقه ابن حبان وحده. ومن حديث أبي هريرة أخرجه الطبراني في الأوسط ١٣٢ وقال الحافظ الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٣٧: إسناده حسن اهـ فالحديث صحيح بطرقه وشواهده.

---

(١) المطيطاء: التبختر. قال ابن الأثير: وهي من المصغرات التي لم يستعمل لها مكبر.

(٢) انظر الآتي.

قال قتادة:

[٦١٩٩] أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر، فأخذ النبيّ ﷺ بيده فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝﴾. فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً، إني لأعزُّ مَنْ بين جبليها. فلما كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال: لا يُعْبَد اللَّهُ بعد هذا اليوم أبداً. فضرب الله عنقه، وقتله شر قِتْلة. وقيل: معناه: الويل لك؛ ومنه قول الخنساء:

هَمَمْتُ بنفسيَ كُلَّ الهُمُومِ ... فَأَوْلَىٰ لِنَفْسِيَ أَوْلَى لَهَا
سَأَحْمِلُ نفسي على آلةٍ ... فإمَّا عليها وإمَّا لَهَا

الآلة: الحالة، والآلة: السرير أيضاً الذي يحمل عليه الميت؛ وعلى هذا التأويل قيل: هو من المقلوب؛ كأنه قيل: أَوْيَل، ثم أخر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار؛ وهذا التكرير كما قال[1]:

* لَكَ الْوَيْلاَتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي *

أي لك الويل، ثم الويل، ثم الويل، وضعف هذا القول. وقيل: معناه الذم لك أولى من تركه، إلا أنه كثير في الكلام فحذف. وقيل: المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب. وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي: «أَوْلَى» في كلام العرب معناه مُقَارَبة الهلاك، كأنه يقول: قد وَلِيتَ الهلاكَ، قد دَانَيْتَ الهلاكَ؛ وأصله من الوَلْي، وهو القُرْب؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] أي يَقرُبُون منكم؛ وأنشد الأصمعي:

* وَأَوْلَى أن يكون له الولاَءُ *

أي قارب أن يكون له؛ وأنشد أيضاً:

* أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا *

أي قد دنا صاحبها من الكمد. وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعيّ ويقول: ليس أحد يفسّر كتفسيرالأصمعي. النحاس: العرب تقول أَوْلَى لك: كِدتَ تهلك ثم أفلتّ، وكأنّ تقديره: أولى لك وأولى بك الهلكة. المهدويّ قال: ولا تكون أَوْلَى

[٦١٩٩] أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٤١٩ عن قتادة مرسلاً، وكرره ٣٤٢٠ عن سعيد بن جبير بمعناه.

(١) هو امرؤ القيس.

(أَفْعَل منك)، وتكون خبر مبتدإ محذوف، كأنه قال: الوعيد أولى له من غيره؛ لأن أبا زيد قد حكى: أَوْلاَةُ الآن: إذا أوْعَدُوا. فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك. و«لَكَ» خبر عن «أَوْلَى». ولم ينصرف «أَوْلَى» لأنه صار علماً للوعيد، فصار كرجل ٱسمه أحمد. وقيل: التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السَّيِىء الأوّل، ثم على الثاني، والثالث، والرابع، كما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي يظن ٱبن آدم ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي أن يُخَلَّى مُهمَلاً، فلا يُؤمَر ولا يُنهَى؛ قاله ٱبن زيد ومجاهد، ومنه إبل سُدًى: ترعى بلا راعٍ. وقيل: أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يُبعَث. وقال الشاعر:

فـأُقسِـمُ بـالله جهـدَ اليَمِيـ ـنِ مـا تَـرَكَ الله شيئـاً سُـدَى

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي من قطرة ماء تُمنَى في الرَّحِم، أي تُراق فيه؛ ولذلك سمّيت (مِنًى) لإراقة الدماء. وقد تقدّم. والنطفة: الماء القليل؛ يقال: نَطَف الماء: إذا قطر. أي ألم يك ماءً قليلاً في صُلْب الرجل وترائب المرأة. وقرأ حفص «مِن مَنِيٍّ يُمْنَى» بالياء، وهي قراءة ٱبن محيصن ومجاهد ويعقوب وعَيّاش عن أبي عمرو، وٱختاره أبو عبيد لأجل المنيّ. الباقون بالتاء لأجل النطفة. وٱختاره أبو حاتم. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي دماً بعد النطفة، أي قد رَتبه تعالى بهذا كله على خِسَّة قدره. ثم قال: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي فقدّر ﴿فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي فسوّاه تسويةً، وعدَّله تعديلاً، بجعل الروح فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي من الإنسان. وقيل: من المنيّ. ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي الرجل والمرأة. وقد ٱحتج بهذا من رأى إسقاط الخُنثى. وقد مضى في سورة «الشورى» أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب. وقد مضى في أوّل سورة «النساء» أيضاً القول فيه، وذكرنا في آية المواريث حكمه، فلا معنى لإعادته ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ﴾ أي أليس الذي قدَر على خلق هذه النَّسَمة من قطرة من ماء ﴿بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى. وروي عن رسول الله ﷺ:

[٦٢٠٠] أنه كان إذا قرأها قال: «سبحانك اللّهم، بَلَى» وقال ٱبن عباس: من قرأ

[٦٢٠٠] أخرجه عبد الرزاق ٣٤٢٢ عن موسىٰ بن أبي عائشة عن رجل مرفوعاً به. وأخرجه الطبري ٣٥٧٣٨ عن قتادة بلاغاً، وورد عن أبي هريرة وجابر وأبي أمامة وغيرهم راجع الدر المنثور ٦/ ٤٧٩ فالخبر قوي لتعدد طرقه وشواهده.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] إماماً كان أو غيره فليقل: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». ومن قرأ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ إلى آخرها إماماً كان أو غيره فليقل: «سبحانك اللَّهُمَّ، بَلَى» ذكره الثعلبيّ من حديث أبي إسحاق السَّبِيعيّ عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس.

ختمت السورة والحمد لله.

سورة الإنسان

وهي إحدى وثلاثون آية

مَكِّيَّةٌ في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي. وقال الجمهور: مدنية. وقيل: فيها مكيّ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخر السورة، وما تقدّمه مدنيّ.

وذكر ابن وهب قال: وحدّثنا ابن زيد قال:

[٦٢٠١] إن رسول الله ﷺ ليقرأ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبيّ ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب: لا تُثْقِل على النبيّ ﷺ، قال: «دَعْه يا بن الخطاب» قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجِنان زَفَر زَفْرة فخرجت نَفْسه. فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَج نفس صاحِبكم ـ أو أخيكم ـ الشَّوْقُ إلى الجنة» وروي عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ، وسيأتي. وقال القُشَيْريّ(١): إن هذه السورة نزلت في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. والمقصود من السورة عام. وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ «هَلْ»: بمعنى قد؛ قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة. وقد حكي عن سيبويه «هَلْ» بمعنى قد. قال الفراء: هل تكون جَحْداً، وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تُقَرِّره بأنك

[٦٢٠١] ضعيف جداً. ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٤٨٠ و ٤٨١ فقال: أخرجه ابن وهب عن ابن زيد اهـ وهذا مرسل ومع إرساله ابن زيد هو عبد الرحمن متروك الحديث إذا وصل فكيف إذا أرسل. وقد استغربه ابن كثير ٤/ ٥٣٤.

---

(١) مستند القشيري في ذلك حديث موضوع سيأتي بعد قليل.

أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى. والإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة والثَّوريّ وعِكرمة والسّديّ. وروي عن ٱبن عباس. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ قال ٱبن عباس في رواية أبي صالح: أربعون سنة مرّت به، قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. وعن ٱبن عباس أيضاً في رواية الضحاك أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حَمَإٍ مسنون أربعين سنة، ثم من صَلْصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. وزاد ٱبن مسعود فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة، ثم نفخ فيه الروح. وقيل: الحين المذكور ها هنا: لا يُعْرف مقدارُه؛ عن ٱبن عباس أيضاً، حكاه الماورديّ. ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ قال الضحاك عن ٱبن عباس: لا في السماء ولا في الأرض. وقيل: أي كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً، لا يُذكَر ولا يُعرَف، ولا يُدرَى ما ٱسمه ولا ما يراد به، ثم نُفِخ فيه الرُّوح، فصار مذكوراً؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب. وقال يحيى بن سلاّم: لم يكن شيئاً مذكوراً في الخَلْق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً. وقيل: ليس هذا الذِّكر بمعنى الإخبار، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقدر؛ تقول: فلان مذكور أي له شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة. ثم لما عَرَّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمَّله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال، ظهر فضله على الكل، فصار مذكوراً. قال القُشيريّ: وعلى الجملة ما كان مذكوراً للخلق، وإن كان مذكوراً لله. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً» قال: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً. وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء؛ أي قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئاً يذكر في الخليقة؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين. والمعنى: قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل: قال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة كانت بعد الإنسان. وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيواناً. وقد قيل: «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ﴾ عُنِيَ به الجنس من ذرّية آدم، وأن الحين تسعة أشهر، مدّة حمل الإنسان في بطن أمه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾: إذ كان علقة ومضغة؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له. وقال أبو بكر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية: ليتها تَمَّت فلا نُبْتَلى. أي ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً

مَذْكُوراً تَمَّت على ذلك، فلا يلد ولا يُبْتَلى أولادُه. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ فقال ليتها تَمَّت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي ٱبن آدم من غير خلاف ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من ماء يقطُر وهو المنيّ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه:

مَــالِــي أَرَاكِ تَكْــرَهِيــنَ الْجَنَّــهْ   هَــل أنــتِ إلاَّ نُطْفَــةٌ فــي شَنَّــهْ

وجمعها: نُطَف ونِطَاف. ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط. واحدها: مِشْج ومَشِيج، مثل خِدْن وخَدِين؛ قال: رؤبة:

يَطْــرحْــن كُــلَّ مُعْجَــلٍ نَشَّــاجِ   لَـمْ يُكْـسَ جِلْـداً فـي دَمٍ أَمْشَـاجِ

ويقال: مَشَجتُ هذا بهذا أي خلطته، فهو مَمْشوج ومَشِيج؛ مثل مَخْلوط وخَلِيط. وقال المبرّد: واحد الأمشاج: مشيج؛ يقال: مشج يمشِج: إذا خلط، وهو هنا ٱختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمَّاخ:

طَــوَتْ أَحْشَــاء مُــرْتِجَــةٍ لِــوَقْــتٍ   علــى مَشَــج سُــلاَلَتُــهُ مَهِيــنُ

وقال الفراء: أمشاج: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعَلَقة. ويقال للشيء من هذا إذا خُلط: مَشِيج كقولك خَلِيط، ومَمْشوج كقولك مَخْلوط. وروي عن ٱبن عباس رضي الله عنه قال: الأمشاج: الحمرة في البياض، والبياض في الحمرة. وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة؛ قال الهُذليّ[(١)]:

كَــأَنَّ الــرِّيــشَ والْفُــوقَيْــنِ مِنْــهُ   خِــلاَفَ النَّصْــلِ سِيــطَ بــه مَشِيــجُ

وعن ٱبن عباس أيضاً قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوّة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة. وقد[(٢)] روي هذا مرفوعاً؛ ذكره البزار. وروي عن ٱبن مسعود: أمشاجها عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء. وقال ٱبن عباس: خلق من ألوان؛ خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه. قال قتادة: هي أطوار الخلق: [طور نطفة، وطور علقة، وطور مضغة، وطور عظام][(٣)] ثم يكسو العظام لحماً؛ كما قال في سورة

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلي.
(٢) لا أصل له في المرفوع، وإنما هو عن مجاهد وغيره راجع «تفسير البغوي» ٤/٤٢٧ والواحدي ٤/٣٩٩.
(٣) ما بين المعقوفتين فيه تخليط في الأصل، والتصويب عن الطبري ٣٥٧٥٣.

«المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] الآية. وقال ٱبن السِّكِّيت: الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: والأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال: بُرْمَةٌ أَعشَار وثوبٌ أخلاقٌ. وروي عن أبي أيوب الأنصاريّ قال:

[٦٢٠٢] جاء حبر من اليهود إلى النبيّ ﷺ فقال: أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة؟ فقال: «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلاَ ماء المرأة آنثَتْ وإذا عَلاَ ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ» فقال الحبر: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله. وقد مضى هذا القول مستوفًى في سورة «البقرة». ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره. وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار. وفيما يختبر به وجهان: أحدهما ـ نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي: الثاني ـ نختبر شكره في السَّراء وصبره في الضَّرَّاء؛ قاله الحسن. وقيل: «نَبْتَلِيهِ» نُكلِّفه. وفيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل. الثاني ـ بالدِّين ليكون مأموراً بالطاعة ومنهيًّا عن المعاصي. وروي عن ٱبن عباس: «نَبْتَلِيهِ»: نصرفه خلقاً بعد خلق؛ لنبتليه بالخير والشر. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ لنبتليه، وهي مُقدَّمة معناها التأخير.

قلت: لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخِلْقة. وقيل: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾: يعني جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى، وبصراً يبصر به الهدي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له وعَرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشرّ ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]. وقال مجاهد: أي بيّنا له السبيل إلى الشّقاء والسّعادة. وقال الضحاك وأبو صالح والسّديّ: السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل: منافعه ومضارّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ أي أيهما فعل فقد بيّنا له. قال الكوفيون: «إن» ها هنا تكون جزاء و «ما» زائدة أي بيّنا له الطريق إن شَكَر أو كَفَر. وٱختاره الفراء ولم يجزْه البصريون؛ إذ لا تدخل «إنْ» للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل. وقيل: أي هديناه الرشد، أي بيّنا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إن خلقنا له الهداية ٱهتدى وآمن، وإن خذلناه كَفَر. وهو كما تقول: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فٱترك؛ أي فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ والله أعلم. ويقال:

[٦٢٠٢] مضىٰ مراراً.

هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل. وقد تقدّم في «الفاتحة» وغيرها. وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع ٱجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى، فٱنتفت عنه المبالغة، ولم تنتفِ عن الكفر المبالغة، فقَلَّ شكره، لكثرة النِّعم عليه وكَثرة كفره وإن قَلّ مع الإحسان إليه. حكاه الماورديّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ بين حال الفريقين، وأنه تعَبَّد العقلاء وكَلَّفهم ومَكَّنهم مما أمرهم، فمن كَفَر فله العقاب، ومن وَحَّد وشكَر فله الثواب. والسلاسِل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضى في «الحاقة». وقرأ نافع والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ٱبن عامر «سَلاَسِلاً» منوّناً. الباقون بغير تنوين. ووقف قُنْبُل وٱبن كثير وحمزة بغير ألف. الباقون بالألف. فأما «قوارِير» الأوّل فنوّنه نافع وٱبن كثير والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم، ولم ينوّن الباقون. ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف. والباقون بالألف. وأما «قَوَارِير» الثانية فنوّنه أيضاً نافع والكسائيّ وأبو بكر، ولم ينوّن الباقون. فمن نوّن قرأها بالألف، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف، وٱختار أبو عُبيد التنوين في الثلاثة، والوقف بالألف ٱتباعاً لخط المصحف؛ قال: رأيت في مصحف عثمان «سَلاَسِلاً» بالألف و «قَوَارِيراً» الأوّل بالألف، وكان الثاني مكتوباً بالألف فَحُكَّت فرأيت أثرها هناك بَيِّناً. فمن صرف فله أربع حجج: أحدها ـ أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت. الثانية ـ أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أَفْعَل منك، وكذا قال الكسائيّ والفراء: هو على لغة من يُجرِ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرونه؛ وأنشد ٱبن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كُلْثوم:

كَأَنَّ سُيوفَنَا فِينا وفِيهِمْ مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لاَعِبِينَا

وقال لَبِيد:

وجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعوتُ لِحَتفِها بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لَبِيد أيضاً:

فَضَلاً وذو كَرمٍ يُعِينُ على النَّدَى سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

فصرف مَخَارِيق ومَغَالِق ورَغَائب، وسبيلها ألا تُصرَف. والحجة الثالثة ـ أن يقول نوّنت قوارِير الأوّل لأنه رأس آية، ورؤوس الآي جاءت بالنون، كقوله جلّ وعزّ:

﴿مَذْكُورًا ۝١ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ فنوّنا الأوّل ليوقف بين رؤوس الآي، ونوّنا الثاني على الجوار للأوّل. والحجة الرابعة ـ اتباع المصاحف، وذلك أنهما جميعاً في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف. وقد احتج من لم يصرفهنّ بأن قال: إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصَرف في معرفة ولا نكرة؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك: قناديل ودنانير ومناديل، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ [الحج: ٤٠] لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] والذي بعد الألف منه حرف مُشَدّد شَوَابّ ودَوَابّ. وقال خلف: سمعت يحيى بن آدم يحدّث عن ابن إدريس قال: في المصاحف الأوَل الحرف الأوّل بالألف والثاني بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة. وقال خلف: رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة ابن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف. وأما أَفْعَل مِنْك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك منوّناً؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَالًا﴾ جمع غُلّ تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم. وعن جُبَير بن نُفَير عن أبي الدرداء كان يقول: ارفعوا هذه الأيدي إلى الله جلّ ثناؤه قبل أن تُغلّ بالأغلال. قال الحسن: إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالاً. ﴿وَسَعِيرًا ۝٤﴾ تقدّم القول فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الأبرار: أهل الصدق واحدهم بَرٌّ، وهو من امتثل أمر الله تعالى. وقيل: البرّ الموحِّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح: وجمع البر الأبرار، وجمع البار البَرَرة، وفلان يَبَرُّ خالقَه وَيَتَبَرَّرُهُ أي يُطِيعه، والأم بَرّةٌ بولدها. وروى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال:

[٦٢٠٣] «إنما سمّاهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء، كما أن

[٦٢٠٣] غريب. تفرد به المصنف والظاهر أنه أخذه عن تفسير الثعلبي وهو غير مطبوع وقد جعله الماوردي ٦/ ١٦٥ عن ابن عمر موقوفاً وهو أشبه والمرفوع لا أصل له.

لوالدك عليك حقًّا كذلك لولدك عليك حقًّا». وقال الحسن: البَرّ الذي لا يؤذي الذَّرّ. وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله ويوفون بالنَّذْر. وفي الحديث:

[٦٢٠٤] «الأبرار الذين لا يؤذون أحداً». ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي من إناء فيه الشراب. قال ابن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب: وإذا لم يكن فيه شراب لم يسمّ كأساً. قال عمرو بن كُلْثوم:

صَبنْتِ[1] الكأسَ عَنَّا أُمَّ عَمرٍو ... وكان الْكَأسُ مَجْرَاها الْيَمِينَا

وقال الأصمعيّ: يقال صَبَنْتَ عنّا الهدية أو ما كان من معروف تَصبِنُ صَبْنا: بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي شَوْبها وخلطها؛ قال حسّان:

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِن بيْتِ رَأسٍ ... يكُونُ مِزَاجَها عَسَلٌ وماءُ[2]

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة. ﴿كَافُورًا ۝٥﴾ قال ابن عباس: هو اسم عين ماء في الجنة، يقال له عين الكافور. أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمّى كافوراً. وقال سعيد عن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك. وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: مِزَاجها طعمها. وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها. وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده؛ لأن الكافور لا يشرب؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي كنارٍ. وقال ابن كَيْسان: طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل. وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمَّى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب. وقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ «كَانَ» زائدة أي من كأس مِزاجُها كافورٌ. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ قال الفراء: إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة؛ فـ «عَيْناً» بدل من كافور على هذا. وقيل: بدل من كأس على الموضع. وقيل: هي حال من المضمر في «مِزاجها». وقيل: نصب على المدح؛ كما يُذكَر الرّجلُ فتقول: العاقلَ اللبيبَ؛ أي ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعني. وقيل يشربون عيناً. وقال الزجاج: المعنى من عين. ويقال: كافور وقافور. والكافور أيضاً: وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّى؛ قاله الأصمعيّ.

وأما قول الراعي:

[٦٢٠٤] لا أصل له في المرفوع، والظاهر أن الثعلبي تفرد به. وهو يروي الموضوعات.

---

(١) الرواية المشهورة في المعلقات «صددت الكأس».

(٢) السبيئة: الخمر. وبيت رأس: موضع بالأردن مشهور بالخمر.

تَكْسُــو الْمَفَــارِقَ واللَّبَّــاتِ ذَا أَرَجٍ مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنّ الظبي الذي يكون منه المسك إنما يَرْعى سُنْبَل الطِّيب فجعله كافوراً. ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ قال الفراء: يشرب بها ويشربها سواء في المعنى، وكأنّ يشرب بها يَرْوَى بها ويَنْقع؛ وأنشد(1):

شَـرِبْـنَ بِمـاءِ البحـرِ ثـم تَـرَفَّعـتْ مَتَـى لجـجٍ خُضْـرٍ لَهُـنَّ نَئيـجُ(2)

قال: ومثله فلان يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاماً حسناً. وقيل: المعنى يشربها والباء زائدة. وقيل: الباء بدل «مِن» تقديره يشرب منها؛ قاله القتبيّ. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ فيقال: إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره؛ وذلك قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ أي يُشقِّقونها شَقًّا كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد. وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ يقودونها حيث شاؤوا، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم. وروى أبو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل عن الحسن قال:

[٦٢٠٥] قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ والأخرى الزنجبيل والأخريان نَضّاختان من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى «سَلْسَبِيلاً» والأخرى التَّسْنيم» ذكره الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول». وقال: فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم، والكافور للأبرار شربا لهم؛ يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب، فما كان للأبرار مِزاج فهو للمقربين صِرف، وما كان للأبرار صِرف فهو لسائر أهل الجنة مِزاج. والأبرار هم الصادقون، والمقرَّبون: هم الصديقون.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾.

[٦٢٠٥] ضعيف جداً، فهو مرسل، ومع إرساله أبو مقاتل هو السمرقندي ضعيف، وفي الإسناد مجاهيل.

---

(١) هو أبو ذؤيب.

(٢) نئيج: أي مر سريع مع صوت.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ أي لا يُخلِفون إذا نَذَروا. وقال مَعْمَر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حقّ الله جل ثناؤه. وقال الفرّاء والجرجاني: وفي الكلام إضمار؛ أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. والعرب قد تزيد مرة «كان» وتحذف أخرى. والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلّف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حَدِّه: النذر: هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. وقال الكَلْبيّ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ أي يتممون العهود والمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٩] أي أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوّي قول قتادة. وأن النذر يندرج فيه ما ٱلتزمه المرء بإيمانه من ٱمتثال أمر الله؛ قاله القُشيري. وروى أشهب عن مالك أنه قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ هو نذر العتق والصيام والصلاة. وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ قال: النذر: هو اليمين.

قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ﴾ أي يحذرون ﴿يَوۡمًا﴾ أي يوم القيامة. ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ أي عالياً داهياً فاشياً وهو في اللغة ممتدّاً؛ والعرب تقول: ٱستطار الصدع في القارورة والزجاجة وٱستطال: إذا ٱمتد؛ قال الأعشى:

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ في الفُؤَا ... دِ صَدْعاً على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال: ٱستطار الحريق: إذا ٱنتشر. وٱستطار الفجر إذا ٱنتشر الضوء.

وقال حسان:

وهَانَ على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ[1]

وكان قتادة يقول: ٱستطار واللَّهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات فٱنشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ.

قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قال ٱبن عباس ومجاهد: على قِلّته وحبّهم إياه وشهوتهم له. وقال الداراني: على حبّ الله. وقال الفُضَيل بن عِياض: على حبّ إطعام الطعام. وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سُكَّراً فإن الربيع يحب السكر. ﴿مِسۡكِينٗا﴾ أي ذا مسكنة. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: هو الطوّاف

(١) سراة بني لؤي: خيارهم. البويرة: موضع ببني قريطة. (يشير إلى ما فعله المسلمون ببني قريطة).

يسألك مَالَكَ ﴿وَيَتِيمًا﴾ أي من يتامى المسلمين. وروى منصور عن الحسن: أن يتيماً كان يحضر طعام ٱبن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، وجاءه بعد ما فرغ ٱبن عمر من طعامه فلم يجد الطعام، فدعا له بسَوِيق وعسل؛ فقال: دونك هذا، فوالله ما غُبِنتَ؛ قال الحسن وٱبن عمر: والله ما غُبِن. ﴿وَأَسِيرًا ۝٨﴾ أي الذي يؤسر فيحبس. فروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروى ٱبن أبي نجيح عن مجاهد قال: الأسير هو المحبوس. وكذا قال سعيد بن جُبير وعطاء: هو المسلم يُحبس بحقّ. وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وٱبن عباس. قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأَهلُ الشِّرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه. وقال عِكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: الأسير المرأة، يدلّ عليه قوله عليه السلام:

[٦٢٠٦] «ٱستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَان عندكم» أي أسيرات. وقال أبو سعيد الخُدري:

[٦٢٠٧] قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ فقال: «المسكين الفقير، واليتيم الذي لا أب له، والأسير المملوك والمسجون» ذكره الثعلبي. وقيل: نسخ إطعام المسكين آية الصدقات؛ وإطعام الأسير آية السيف؛ قاله سعيد بن جُبير. وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلاّ أن يتخير فيه الإمام. الماورديّ: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه في أسر خَبْله وجنونه، وأسر المشرك ٱنتقام يقف على رأي الإمام، وهذا بِرٌّ وإحسان. وعن عطاء قال: الأسير من أهل القبلة وغيرهم.

قلت: وكأنّ هذا القول عام يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا. والله أعلم. ومضى القول في المسكين واليتيم والأسير وٱشتقاق ذلك من اللغة في «البقرة» مستوفًى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ في الله جلّ ثناؤه فزعاً من عذابه وطمعاً في ثوابه. ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ أي

[٦٢٠٦] تقدم تخريجه، وهو صحيح.

[٦٢٠٧] عزاه المصنف للثعلبي وزاد السيوطي في الدر ٦/ ٤٨٥ نسبته لأبي نعيم وابن مردويه ولم أقف على إسناده وتفرد هؤلاء به دليل على وهنه وحسبه أن يكون موقوفاً.

مكافأة. ﴿ وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ أي ولا أن تثنوا علينا بذلك؛ قال ٱبن عباس: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا. وعن سالم عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلّموا به ولكن علمه الله جلّ ثناؤه منهم فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جُبير حكاه عنه القُشيريّ. وقيل: إن هذه الآية نزلت في مُطْعِم بن ورقاء الأنصاريّ نذر نذراً فوفّى به. وقيل: نزلت فيمن تكفّل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعليّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضي الله عنهم؛ ذكره الماورديّ. وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وقال أبو حمزة الثُّمَالي[1]: بلغني أن رجلاً قال يا رسول الله أطعمني فإني واللّهِ مجهود؛ فقال: «والذي نفسي بيده ما عندي ما أطعمك ولكن أطلب» فأتى رجلاً من الأنصار وهو يتعشى مع ٱمرأته فسأله، وأخبره بقول النبيّ ﷺ؛ فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه. ثم أتى النبيّ ﷺ يتيم فقال: يا رسول الله! أَطعمني فإني مجهود. فقال: «ما عندي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فٱستطعم ذلك الأنصاريّ فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه، فأطعمه. ثم أتى النبيّ ﷺ أسير فقال: يا رسول الله! أطعمني فإني مجهود. فقال: «والله ما معي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فجاء الأنصاريّ فطلب، فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه. فنزلت: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾ ذكره الثعلبيّ. وقال أهل التفسير: نزلت في عليّ وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما ٱسمها فضة.

قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومَن فعل فعلاً حسناً؛ فهي عامة. وقد ذكر النقاش والثّعلبيّ والقشيريّ وغير واحد من المفسّرين في قصة عليّ وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد عن ٱبن عباس:

[٦٢٠٨] في قوله عزّ وجلّ: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ

[٦٢٠٨] باطل لا أصل له. ليث بن أبي سليم ضعيف الحديث روىٰ عن مجاهد مناكير كثيرة ومثله القاسم بن بهرام وقد أولع بهذا الحديث كثير من الناس ومصدره تفسير الثعلبي والنقاش والقشيري وثلاثتهم يروون الموضوعات والأحاديث التالفة وقد أبطله القرطبي رحمه الله وأبو حيان صاحب البحر وذكره الزمخشري في كشافه ٤/ ٦٧٠ فقال الحافظ: أخرجه الثعلبي مطولاً وقال الحكيم الترمذي: ومن الأحاديث التي تنكرها القلوب حديث رووه عن مجاهد عن ابن عباس ـ فذكره بشعر ـ ثم قال ـ أي الحكيم ـ: هذا حديث مزوّق مفتعل لا يروج إلا علىٰ جاهل أحمق ا هـ وكلام الترمذي هو في نوادر الأصول ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥ في الباب الرابع والأربعين وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٩٠.

(١) ضعيف جداً. هذا معضل تفرد به الثعلبي وهو غير حجة. والثمالي هو ثابت بن أبي صفية ضعيف. والآية عامة.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ قال: مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامة العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن ـ ورواه جابر الجُعْفيّ[١] عن قَنْبَر مولى عليّ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن ـ رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم ـ لو نذرتَ عن ولديك شيئاً، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال رضي الله عنه: إن بَرأَ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت جارية لهم نوبية: إن بَرأَ سيِّداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت فاطمة مثل ذلك. وفي حديث الجُعْفيّ فقال الحسن والحسين: علينا مثل ذلك فأُلْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبريّ، وكان يهودياً، فٱستقرض منه ثلاثة أَصُوع من شعير، فجاء به، فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته وٱختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبيّ ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه. وفي حديث الجُعْفيّ: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوّل وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد ـ في حديث الجُعْفي ـ أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ رضي الله عنه، فأنشأ يقول[١]:

فاطمَ ذاتَ الفضلِ واليقينْ ... يا بنتَ خيرِ الناسِ أجمعينْ
أما تَرَينَ البائسَ المسكينْ ... قد قام بالباب له حنينْ
يشكو إلى الله ويستكينْ ... يشكو إلينا جائعٌ حزينْ
كل ٱمرىء بكسبه رهينْ ... وفاعل الخيرات يستبينْ
موعِدُنا جَنّة عِلِّيينْ ... حرّمها الله على الضَّنينْ
ولِلبخِيل موقِفٌ مهِينْ ... تَهوِي بِهِ النار إلى سِجِّينْ
شرابه الحميم والغِسْلينْ ... من يفعلِ الخيرَ يقم سمينْ

* ويَدْخُل الجنةَ أيّ حِينْ *

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أمرُكَ عندي يا بن عَمٍّ طاعةْ ... ما بِيَ من لُؤْم ولا وَضَاعةْ

---

(١) جابر هو ابن يزيد الجعفي متروك الحديث وكذبه أبو حنيفة رحمه الله راجع الميزان. وشيخه قنبر ضعيف الحديث، والخبر باطل كما تقدم والقصة مركبة مفتعلة، وأبيات الشعر ركيكة لا تليق بعلي ولا بفاطمة.

غَـدَيْـتُ فـي الخبـز لـه صنـاعـهْ أطعِمـــه ولا أُبـــالـــي السَّـــاعـــهْ
أرجـو إذا أَشبعـتُ ذا المَجَـاعـهْ أَنْ أَلحــقَ الأخيـارَ والجَمَـاعـهْ

* وأدخـلَ الجنـةَ لـي شَفاعـهْ *

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحنته وٱختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبيّ ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، يتيم من أولاد المهاجرين ٱستشهد والدي يوم العَقَبَة. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فـاطِـمَ بنـتَ السَّيـدِ الكـريـمْ بنـتَ نبِـيٍّ ليـس بـالـزَّنِيـمْ
لقـد أتـى الله بِـذِي اليتيـمْ مـن يـرحـم اليـوم يكـن رحِيـمْ
ويـدخـل الجنـة أي سلِيـمْ قـد حـرم الخلـدُ علـى اللئيـمْ
ألاّ يَجـوزَ الصـراطَ المستقيـمْ يـزلّ فـي النـار إلـى الجحيـمْ

* شرابُـه الصـديـدُ والحميـمْ *

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أطعِمـه اليـوم ولا أبـالِـي وأوثـر اللّـهَ علـى عيـالـي
أَمسَـوْا جيـاعـاً وَهُـمُ أَشْبَـالـي أصغـرُهـم يُقتَـلُ فـي القِتـالِ
بِكَـرْ بَـلاَ يُقتَـلُ بـٱغْتَيـالِ يـا ويـلُ لِلقـاتِـل مَـعْ وَبَـالِ
تَهـوي بـه النـار إلـى سِفـالِ وفـي يـديـهِ الغُـلَّ والأغـلال

* كبولـة زادت علـى الأكبـالِ *

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح؛ فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحنته وٱختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبيّ ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، تأسروننا وتَشُدُّوننا ولا تُطْعِمونَنا! أطعموني فإنّي أسير محمد. فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فـاطـم يـا بنـتَ النبيِّ أحمـدْ بنـت نبِـيٍّ سيِّـدٍ مُسَـوَّدْ
وسمـاه الله فهـو محمـد قـد زانـه الله بِحسـنٍ أغيـدْ
هـذا أسِيـرٌ للنبـيّ المهتـدْ مُثقَّـلٌ فـي غُلِّـه مُقيَّـدْ

يَشكـو إلينـا الجـوعَ قـد تمـددْ　　مـن يُطعِـمِ اليـومَ يجِـده فـي غـدْ
عنـد العلـيّ الـواحِـدِ المـوحَّـدْ　　مـا يـزرع الـزارعُ سـوف يَحصُـدْ
* أعطيـه لا لا تجعلِيـهِ أقعـد *

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول:
لـم يَبْـقَ مِمّـا جـاء غيـرُ صـاعْ　　قـد ذهبـت كَفِّـي مـع الـذِّراعْ
ٱبنـايَ والله هُمَـا جِيَـاعْ　　يـا ربّ لا تتـركهمـا ضيـاعْ
أبـوهمـا للخيـر ذو ٱصطنـاعْ　　يَصطنِـع المعـروفَ بـابتـداعْ
عَبْـلُ الـذِّراعيـن شـديـد البـاعْ　　ومـا علـى رأسِـيَ مِـن قِنـاعْ
* إلاّ قنـاعاً نَسْجـهُ أنْسَـاعْ[1] *

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الرابع، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن، وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع؛ فلما أبصرهم رسول الله ﷺ قال: «يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم ٱنطلق بنا إلى ٱبنتي فاطمة» فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وقد لصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما رآها رسول الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال: «واغوثاه يا ألله، أهْل بيت محمد يموتون جوعاً» فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئاً في أهل بيتك. قال: «وما آخذ يا جبريل» فأقرأه ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فهذا حديث مُزوَّق مُزيَّف، قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفاً ألاّ يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم[2]؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأن «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى»[3]. «وٱبدأ بنفسك ثم بمن

(١) النسع: سير يضفر على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال.
(٢) هذا هو الصواب. وهو الحق الذي لا مرية فيه.
(٣) تقدم تخريجه.

تعول»[1] وٱفترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله ﷺ:

[٦٢٠٩] «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يَقُوت» أفيحسب عاقل أن عليًا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟ حتى تَضوَّروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهَبْ أنّ أهله سمحت بذلك لعليّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يروج مثل هذا إلا على حَمْقى جهّال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعليّ مثل هذا. وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن عليّ وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغني أن قوماً يُخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السَّمَر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزَيفّوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدِّين وكيده أكثر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ «عَبُوساً» من صفة اليوم، أي يوماً تعبِس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى نخاف يوماً ذا عبوس. وقال ٱبن عباس يعبس الكافر يومئذ حتى يسيلَ منه عرَق كالقطران. وعن ٱبن عباس: العَبُوس: الضَّيِّق، والقَمْطَرِير: الطويل؛ قال الشاعر:

* شـدِيداً عبـوساً قَمْطَـرِيـراً *

وقيل: القَمْطرير الشديد؛ تقول العرب: يوم قَمْطرير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى؛ وأنشد الفرّاء:

بنِـي عَمِّنَـا هـل تَـذْكُـرونُ بَـلاَءَنـا   عليكـمْ إذا مـا كـان يـومٌ قُمَـاطِـرُ

بضم القاف. وٱقْمَطَرَّ إذا ٱشتدّ. وقال الأخفش: القمطرير: أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء؛ قال الشاعر:

ففرُّوا إذا ما الحرب ثار غُبارُها   ولَـجَّ بهـا اليـومُ العَبُـوسُ القُمَـاطِـرُ

[٦٢٠٩] تقدم تخريجه.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال الكسائي: يقال اْقْمَطَرّ اليومُ وآزْمَهَرَّ اْقمطراراً وآزمِهراراً، وهو القمطرير والزمهرير، ويوم مُقْمَطِرّ إذا كان صعباً شديداً؛ قال الهذليّ[(١)]:

بَنُو الحرْبِ أُرْضِعْنا لهم مُقْمَطِرَّةٌ ومَنْ يُلْقَ مِنّا ذلكَ اليومَ يَهْرُبِ[(٢)]

وقال مجاهد: إنّ العُبوس بالشفتين، والقمطرير بالجبهة والحاجبين؛ فجعلها من صفات الوجه المتغيّر من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد اْبن الأعرابيّ:

يَغْدُو على الصَّيْدِ يَعُودُ مُنْكَسِرْ ويَقْمَطِرُّ ساعةً ويَكْفَهِرُّ

وقال أبو عبيدة: يقال رجل قَمْطرير أي متقبض ما بين العينين. وقال الزجاج: يقال اْقْمَطرَّت الناقةُ: إذا رَفَعت ذَنَبها وجَمَعت قُطْرَيها، وزَمَّت بأنفها؛ فاْشتقه مِن القُطْر، وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعِصة:

واْصطليتُ الحروبَ في كلّ يومٍ باسِلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّباحِ

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي دفع عنهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقُوه أي رأوه ﴿نَضْرَةً﴾ أي حسناً ﴿وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ أي حبوراً. قال الحسن ومجاهد: «نَضْرَةً» في وجوههم «وَسُرُوراً» في قلوبهم. وفي النضرة ثلاثة أوجه: أحدها أنها البياض والنقاء؛ قاله الضحاك. الثاني الحسن والبهاء؛ قاله اْبن جبير. الثالث أنها أثر النعمة؛ قاله اْبن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ على الفقر. وقال القرظيّ: على الصوم. وقال عطاء: على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذْر. وقيل: بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم على معصية الله ومحارمه. و «ما»: مصدرية، وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلاً حسناً. وروى اْبن عمر:

[٦٢١٠] أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أوّلها الصبر عند

[٦٢١٠] لم أره بهذا اللفظ، أخرجه ابن الديلمي كما في اللآلىء ٢/ ٣٧٦ من حديث علي بلفظ: «الصبر ثلاثة فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية...» وإسناده ضعيف لضعف الحارث الأعور. وانظر الدر المنثور ١/ ١٢٨ (البقرة: ٤٥).

---

(١) وهو حذيفة بن أنس الهذلي.

(٢) مقمطرة: من اقمطرت الناقة: إذا لقحت.

الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب». ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير. أي يسمى بحرير الدنيا وكذلك الذي في الآخرة وفيه ما شاء الله عزّ وجلّ من الفضل. وقد تقدم: أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما أُلبسه من أُلبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي في الجنة؛ ونصب «مُتَّكِئِينَ» على الحال من الهاء والميم في «جَزَاهُمْ» والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها «صَبَرُوا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة. وقال الفرّاء. وإن شئت جعلت «مُتَّكِئِينَ» تابعاً، كأنه قال جزاهم جنة ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السُّرُر في الحِجَال وقد تقدم. وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: أحدها الأريكة لا تكون إلا في حَجَلة على سرير، ومنها السَّجْل، وهو الدّلو الممتلىء ماءً، فإذا صَفِرت لم تُسمَّ سَجْلاً، وكذلك الذَّنُوب لا تُسمَّى ذَنُوباً حتى تُملأ، والكأس لا تسمى كأساً حتى تُتْرَع من الخمر. وكذلك الطَّبَق الذي تُهدَى عليه الهدية مِهْدَى، فإذا كان فارغاً قيل طَبَق أو خِوان؛ قال ذو الرُّمَّة:

خُدُودٌ جَفَتْ في السَّيْرِ حتَّى كأنَّمَا ... يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزاءِ[1] مَسَّ الأرائِكِ

أي الفرش على السرر. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي لا يرون في الجنة شدة حرٍّ كحرِّ الشمس ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ أي ولا برداً مفرطاً؛ قال الأعشى:

مُنَعَّمَــــةٌ طَفْلَــــةٌ كَــــالْمَهَــــا ... ةِ لَـمْ تَـرَ شَمْسـاً وَلاَ زَمْهَـرِيـرَاً

وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٢١١] «اشتكت النارُ إلى ربِّها عزّ وجلّ قالت: يا ربّ أكَلَ بعضي بعضاً، فجعل لها نَفَسين نَفَساً في الشتاء ونَفَساً في الصّيف، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدّة ما تجدون من الحرّ في الصيف من سَمُومها». وعن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٢١٢] «إن هواء الجنة سَجْسَج: لا حرٌّ ولا برٌّ» والسَّجْسَج: الظّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقال مُرَّة الهَمْداني: الزمهرير البرد القاطع. وقال مقاتل بن

[٦٢١١] مضىٰ تخريجه.
[٦٢١٢] مضىٰ تخريجه.

---

(١) المعزاء: الأرض الصلبة.

حيان: هو شيء مثل رؤوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ٱبن مسعود: هو لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا أُلْقوا فيه سألوا الله أن يعذِّبهم بالنار ألف سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً. قال أبو النَّجْم:

* أو كُنتُ ريحاً كُنتُ زَمْهَريراً *

وقال ثعلب: الزَّمْهرير: القمر بلغة طيِّيء؛ قال شاعرهم:

وليلةٍ ظَلاَمُهَا قدِ ٱعْتَكَرْ ... قَطَعْتُهَا والزَّمْهَريرُ ما زَهَرْ

ويروى: ما ظهر؛ أي لم يطلع القمر. فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمراً كقمر الدنيا، أي إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار؛ لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مجوداً في سورة «مريم» عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾ [مريم: ٦٢]. وقال ٱبن عباس[1]: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نوراً ظنوه شمساً قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝﴾ فما هذا النور؟ فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ وأنشد:

أنا مَوْلىً لِفَتَى ... أُنْزِلَ فيه هَلْ أَتَى
ذاكَ عليٌّ المُرْتَضَى ... وٱبنُ عَمٍّ المصطفَى

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظِلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شَعَث ثَمَّ. ويقال: إن ٱرتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام، فإذا ٱشتهى وليّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها. وٱنتصبت «دَانِيَةً» على الحال عطفاً على ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ كما تقول: في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال. وقيل: ٱنتصبت نعتاً للجنة؛ أي وجزاهم جنةً دانيةً، فهي صفة لموصوف محذوف. وقيل: على موضع ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝﴾ ويرون دانيةً. وقيل: على المدح أي دنت دانيةً. قاله الفراء. «ظِلاَلُهَا» الظلال مرفوعة بدانية، ولو قرىء برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في «وجَزَاهُمْ» وقد قرىء بذلك. وفي قراءة عبد الله «وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ» لتقدم الفعل. وفي حرف أُبيّ «وَدَانٍ»

(١) هذا موضوع مفترىً على ابن عباس وهو من وضع الرافضة.

رفع على الاستئناف ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي سُخّرت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها ﴿تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي تسخيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بُعدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: إن قام أحد ٱرتفعت له، وإن جلس تدلّت عليه، وإن ٱضطجع دنت منه فأكل منها. وعنه أيضاً: أرض الجنة من وَرِق، وترابها الزعفران، وطيبها مسك أذفر، وأصول شجرها ذهب وورِق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كله؛ فمن أكل منها قائماً لم تؤذِه، ومن أكل منها قاعداً لم تؤذِه، ومن أكل منها مضطجعاً لم تؤذِه. وقال ٱبن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد. وتذليل القطوف تسهيل التناول. والقطوف: الثمار، الواحد قِطف بكسر القاف، سمّي به لأنه يُقطَف، كما سمّى الجَنَى لأنه يُجنى. ﴿تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ تأكيد لما وصف به من الذِّل؛ كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]. الماورديّ: ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها، وتخلص لهم من نواها.

قلت: وفي هذا بعدٌ؛ فقد روى ٱبن المبارك، قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس قال: نخل الجنة: جذوعها زُمُرُّد أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء، أشدّ بياضاً من اللّبَن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم. قال أبو جعفر النحاس: ويقال المذلَّل الذي قد ذلّله الماءُ أي أرواه. ويقال المذلّل الذي يُفَيِّئُه أدنى ريح لنَعْمته، ويقال المذلَّل المسَوّى؛ لأن أهل الحجاز يقولون: ذَلِّلْ نَخْلكَ أي سَوِّه، ويقال المُذَلَّل القريب المتناوَل؛ من قولهم: حائط ذَليلٌ أي قصير. قال أبو جعفر: وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول ٱمرىء القيس:

* وساقٍ كأنْبوبِ السَّقِيّ المُـذَلَّلِ *

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ قال ٱبن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء؛ أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى. ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى يسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم

﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقيل: نَبّه بذكر الفضّة على الذهب؛ كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد؛ فنبّه بذكر أحدهما على الثاني. والأكواب: الكِيزان العظام التي لا آذان لها ولا عُرَى، الواحد منها كوب؛ وقال عَدِيّ:

مُتَّكِئاً تُقْرَعُ أبوابُهُ   يَسْعَى عليهِ العبدُ بِالكُوبِ

وقد مضى في «الزخرف». ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ أي في صفاء القوارير وبياض الفضة؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضّة. وقيل: أرض الجنة من فضّة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها. ذكره ٱبن عباس وقال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا القوارير من فضة. وقال: لو أخذت فضَّة من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضّة في صفاء القوارير. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال؛ أي قَدّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم. قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: أتوا بها على قدر رِيِّهم، بغير زيادة ولا نقصان. الكلبي: وذلك ألذ وأشهى؛ والمعنى: قدّرتها الملائكة التي تطوف عليهم. وعن ٱبن عباس أيضاً: قدّروها على مِلء الكف لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر. وقيل: إن الشاربين قَدّروا لها مقادير في أنفسهم، على ما ٱشتهوا وقَدّروا. وقرأ عبيد بن عمير والشَّعْبي وٱبن سيرين «قُدِّروها» بضم القاف وكسر الدال؛ أي جعلت لهم على قدر إرادتهم. وذكر هذه القراءة المهدويّ عن عليّ وٱبن عباس رضي الله عنهما؛ وقال: ومن قرأ «قُدِّرُوهَا» فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى، وكأنّ الأصل قُدِّروا عليها فحذف الجر؛ والمعنى قُدِّرت عليهم؛ وأنشد سيبويه(١):

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدّهْرَ آكُلُهُ   والْحَبُّ يأكلُه في القَرْيَةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق. وقيل: هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ أي لا يفضل عن الرِّيِّ ولا ينقص منه، فقد أُلْهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيّ المشتهي حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القول الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول».

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ وهي الخمر في الإناء. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧﴾ «كَانَ» صلة؛ أي مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلاً. وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يُمزج بالزنجبيل لِطيب رائحتِه؛ لأنه يَحْذُو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا

(١) قائله المتلمس.

في نعيم الآخرة بما ٱعتقدوه نهاية النَّعمة والطيب. وقال المسيَّب بن عَلَس يصف ثَغْر المرأة:

وكَـأنَّ طَعْـمَ الـزنجبيـلِ بِـهِ إذْ ذُقْتَـهُ وَسَـلاَفَـةَ الخَمْـرِ

ويروى: الكَرْم. وقال آخر[1]:

كَـأَنَّ جَنِيَّـا مِـن الـزَّنْجَبِيـ ـلِ بَاتَ بِفِيَهـا وأرْيـاً[2] مشُـوراً

ونحوه قول الأعشى:

كَـأَنَّ القَـرَنْفُـلَ والـزَّنْجَبِيـ ـلَ بَـاتَـا بِفيَهـا وأريـاً مَشُـوراً

وقال مجاهد: الزنجبيل ٱسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: والزّنجبيل ٱسم العين التي يشرب بها المقربون صِرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة. وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل. وقيل: إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل. والمعنى كأنّ فيها زنجبيلاً. ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عيناً. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾. ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ السَّلْسبيل الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلاَلة؛ تقول العرب: هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنىً؛ أي طيّب الطعم لذيذه. وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق جرى، وسَلْسَلْتُه أنا صببته فيه، وماء سَلْسَل وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والسُّلاسل بالضم مثله. وقال الزجاج: السَّلْسَبيل في اللغة: ٱسم لما كان في غاية السَّلاَسة؛ فكأنّ العين سمّيت بصفتها. وعن مجاهد قال: سَلْسَبيلا: حديدة الجَرْية تسيل في حلوقهم ٱنسلالاً. ونحوه عن ٱبن عباس: إنها الحديدة الجَرْي. ذكره الماورديّ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

يَسْقُـونَ مَـنْ وَرَدَ الْبَـرِيـصَ عليهـمُ بَرَدَى يُصَفِّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[3]

وقال أبو العالية ومقاتل: إنما سميّت سَلْسَبيلاً؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة. وقال قتادة: سلسة منقاد ماؤها حيث شاؤوا. ونحوه عن عِكرمة. وقال القَفَّال: أي تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلاً

---

(١) هو الأعشىٰ.

(٢) الأرى: العسل.

(٣) البريص: نهر بدمشق. وكذا بردى: نهر بدمشق.
يصفق: يمزج. الرحيق: الخمر البيضاء.

إليها. وروي هذا عن عليّ رضي الله عنه. وقوله: «تسمَّى» أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم. وصرف سلسبيل؛ لأنه رأس آية؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠] و ﴿ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ بيّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية؛ أي ويخدمهم ولدان مُخلَّدون، فإنهم أخفُّ في الخدمة. ثم قال: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضَاضة والحُسْن، لا يَهْرَمون ولا يتغيّرون، ويكونون على سنّ واحدة على مَر الأزمنة. وقيل: مُخلَّدون لا يموتون. وقيل: مُسوَّرون مُقرَّطون؛ أي مُحلَّون والتخليد التحلية. وقد تقدم هذا. ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم: لؤلؤاً مفرقاً في عَرْصة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِر على بساط كان أحسن منه منظوماً. وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بُوران بنت الحسن بن سهل، وهو على بساط منسوج من ذهب، وقد نَثَرت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ، فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فٱستحسن المنظر وقال: للَّهِ دَرُّ أبي نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأنَّ صُغْرى وكُبْرىَ من فَقَاقِعها حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهنّ لا يُمتهنَّ بالخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ «ثَمَّ»: ظرف مكان أي هناك في الجنة، والعامل في «ثَمَّ» معنى «رَأَيْتَ» أي وإذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». وقال الفرّاء: في الكلام «ما» مضمرة؛ أي وإذا رأيت ما ثَمّ؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي ما بينكم. وقال الزجاج: «ما» موصولة بـ«ثم» على ما ذكره الفرّاء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصّلة، ولكن «رَأَيْتَ» يتعدّى في المعنى إلى «ثَمَّ» والمعنى: إذا رأيت ببصرك «ثَمَّ» ويعني بـ «ثَمَّ» الجنة، وقد ذكر الفرّاء هذا أيضاً. والنعيم: سائر ما يُتنعَّمُ به. والمُلْك الكبير: ٱستئذان الملائكة عليهم؛ قاله السُّديّ وغيره. قال الكلبيّ: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليّ الله وهو في منزله، فيستأذن عليه؛ فذلك المُلْك العظيم. وقاله مقاتل بن سليمان. وقيل:

المُلْك[1] الكبير: هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجباً، حاجباً دون حاجب، فبينما وليّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفةٍ من ربّ العالمين لم يرها ذلك الوليّ في الجنة قطّ، فيقول للحاجب الخارج: أستأذن على وليّ الله فإن معي كتاباً وهدية من ربّ العالمين. فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه: هذا رسول من ربِّ العالمين، معه كتاب وهديّة يستأذن على وليّ الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي وليّ الله فيقول له: يا وليّ الله! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك، معه كتاب وتُحْفة من ربّ العالمين أفيؤذن له؟ فيقول: نعم! فأذنوا له. فيقول ذلك الحاجب الذي يليه: نَعَم فأذنوا له. فيقول الذي يليه للآخر كذلك حتى يبلغ الحاجب الآخر، فيقول له: نَعَم أيها المَلَك؛ قد أذن لك، فيدخل فيسلّم عليه ويقول: السَّلامُ يُقرئك السَّلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من رب العالمين إليك. فإذا هو مكتوب عليه: من الحيّ الذي لا يموت، إلى الحيّ الذي يموت. فيفتحه فإذا فيه: سلام على عبدي ووليي ورحمتي وبركاتي. يا وليي أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربّك؟ فيستخفه الشوق فيركب البُرَاق فيطير به البُرَاق شوقاً إلى زيارة علام الغيوب، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال سفيان الثوريّ: بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]. وقيل: المُلْك الكبير كون التّيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك. وقال الترمذيّ الحكيم: يعني مُلْك التكوين، فإذا أرادوا شيئاً قالوا له كن. وقال أبو بكر الورّاق: مُلْك لا يتعقبه هُلْك. وفي الخبر عن النبيّ ﷺ:

[٦٢١٣] «إنّ الملك الكبير هو أنّ أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه» قال: «وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر في وجه ربّه تعالى كل يوم مرتين» سبحان المنعم.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ نافع وحمزة وٱبن محيصن «عالِيهِم» ساكنة الياء، وٱختاره أبو عبيد ٱعتباراً بقراءة ٱبن مسعود وٱبن وثاب وغيرهما «عَالِيَتُهُمْ» وبتفسير ٱبن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها. الفراء:

[٦٢١٣] ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٥٥٦ و٣٣٢٧ وأحمد ٢/١٣ وأبو يعلىٰ ٢٧١٢ والبيهقي في «البعث» ٤٧٧ من حديث ابن عمر دون لفظ «الملك الكبير» فالظاهر أنه عند الثعلبي. ومدار الحديث علىٰ ثوير بن أبي فاختة وهو متروك وصوب الترمذي وقفه علىٰ ابن عمر. والله أعلم.

(١) هذا الأثر من الإسرائيليات.

وهو مرفوع بالابتداء وخبره «ثِيَابُ سُنْدُسٍ» وٱسم الفاعل يراد به الجمع. ويجوز في قول الأخفش أن يكون إفراده على أنه اسم فاعل متقدم و«ثياب» مرتفعة به وسدّت مسدَّ الخبر، والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يُخَصّ، وٱبتدىء به لأنه ٱختصّ بالإضافة. وقرأ الباقون «عَالِيَهُمْ» بالنصب. وقال الفراء: هو كقولك فَوْقَهم، والعرب تقول: قومُك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف، لأنه مَحلّ. وأنكر الزجاج هذا وقال: هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء، ولكنه بالنصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء والميم في قوله: ﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على الأبرار «وِلْدَانٌ» عالياً الأبرارَ ثيابُ سندسٍ؛ أي يطوف عليهم في هذه الحال، والثاني أن يكون حالاً من الولدان؛ أي ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾ في حال علوّ الثياب أبدانهم. وقال أبو عليّ: العامل في الحال إمّا ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ وإمّا ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ قال: ويجوز أن يكون ظرفاً فصُرِف. المهدوي: ويجوز أن يكون ٱسم فاعل ظرفاً؛ كقولك هو ناحيةً من الدار، وعلى أن عالياً لما كان بمعنى فوق أُجْرِي مُجْراه فجعل ظرفاً. وقرأ ٱبن محيصن وٱبن كثير وأبو بكر عن عاصم «خُضْرٍ» بالجر على نعت السُّنْدُس ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٌ﴾ بالرفع نَسْقاً على الثياب، ومعناه عاليهم ثيابُ سندسٍ وإستبرقٌ. وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو ويعقوب «خُضْرٌ» رفعاً نعتاً للثياب «وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتاً للسُّنْدس، وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة، وأحسن ما عطف الإستبرق على السُّنْدس عطف جنس على جنس، والمعنى: عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ مِن سندسٍ وإستبرقٍ، أي من هذين النوعين. وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون ﴿خُضۡرٌ﴾ نعتاً للثياب؛ لأنهما جميعاً بلفظ الجمع «وإِسْتَبْرَقٌ» عطفاً على الثياب. وقرأ الأعمش وٱبن وَثّاب وحمزة والكسائيّ كلاهما بالخفض ويكون قوله: «خُضْرٍ» نعتاً للسُّندس، والسُّندس ٱسم جنس، وأجاز الأخفش وصف ٱسم الجنس بالجمع على ٱستقباح له؛ وتقول: أهلكَ الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مستبعد في الكلام. والمعنى على هذه القراءة: عالِيهم ثِيابُ سُندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ. وكلهم صرف الإستبرق إلا ٱبن محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ «وإستبرقَ» نصباً في موضع الجر، على منع الصرف، لأنه أعجمي، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم ٱبن محيصن أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب. وقرىء «وَٱسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّي بٱستفعل من البريق، وليس بصحيح أيضاً؛ لأنه مُعَرَّب مشهور تعريبه، وأن أصله ٱسْتَبَرَك. والسُّندس: ما رَقّ من الديباج. والإستبرق: ما غَلُظ منه. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عطف على «وَيَطُوفُ». ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ وفي سورة فاطر

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الحج: ٢٣] وفي سورة الحج ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، فقيل: حُليّ الرجل الفضة وحُليّ المرأة الذهب. وقيل: تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضّة. وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضّة وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن الجنة؛ قاله سعيد بن المسيّب. وقيل: أي لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ قال عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فتجري عليهم بنضرة النَّعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعث أشعارهم أبداً، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خَزنة الجنة فيقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]. وقال النَّخعيّ وأبو قِلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسْكٍ، وضَمَرت بطونهم. وقال مقاتل: هو من عينِ ماء على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غِلّ وغشٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذًى وقذر. وهذا معنى ما روي عن عليّ، إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولاً للمبالغة، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر. وقد مضى بيانه في سورة «الفرقان» والحمد لله. وقال طَيِّب الجمَّال: صَلَّيْتُ خَلْفَ سهل بن عبد الله العَتَمة، فقرأ «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً» وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه، كأنه يَمصُّ شيئاً، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ؟ فقال: والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم: إنما هذا جزاء لكم أي ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي عملكم ﴿مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي من قبل الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه. وروى سعيد عن قتادة قال: غفر لهم الذَّنب وشَكَر لهم الحُسْنى. وقال مجاهد: «مَشْكُوراً» أي مقبولاً والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل، إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم. روي عن ابن عمر:

[٦٢١٤] أن رجلاً حَبَشِيًّا قال: يا رسول الله! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر والألوان والنبوّة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به، وعملت بما عملت، أكائن أنا معك في الجنة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده إنه ليُرَى بياض الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام» ثم قال

[٦٢١٤] ضعيف. أخرجه الطبراني ١٣٥٩٥ وفي «الأوسط» ١٦٠٤ بإسناد ضعيف لضعف أيوب بن عتبة.

النبيّ ﷺ: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد، ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة»، فقال الرجل: كيف نهلك بعدها يا رسول الله؟ فقال: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله. فتجيء النعمة من نِعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يلطف الله برحمته». قال: ثم نزلت ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ قال الحبشيّ: يا رسول الله! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم» فبكى الحبشيّ حتى فاضت نَفْسه. وقال ٱبن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدْليه في حفرته ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ قلنا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال أي عبدي لأبيضنّ وجهك ولأُبَوّئَنَّك من الجنة حيث شئت، فنعم أجر العاملين».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ما ٱفتريته ولا جئتَ به من عندك، ولا من تلقاء نفسك، كما يدّعيه المشركون. ووجه ٱتصال هذه الآية بما قبلُ أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد، بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر ولا كهَانة، ولا شِعر، وأنه حقّ. وقال ٱبن عباس: أنزل القرآن متفرّقاً: آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال «نَزَّلْنَا» وقد مضى القول في هذا مبيناً والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لقضاء ربك. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: ٱصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال. وقيل: أي ٱصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو ٱنتظر حكم الله إذا وعَدَك أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي ذا إثم ﴿أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ أي لا تطع الكفار. فروى مَعْمَر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمداً يُصلّي لأطأنّ على عنقه. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾. ويقال[1]: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يَعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوّة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾. قال مقاتل: الذي عرض التزويج عُتبة بن ربيعة؛ قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوّجك ٱبنتي

(١) لم يسنده أحد والصواب أن الآية عامة في كل كافر وآثم.

من غير مهر وأرجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وأرجع عن هذا الأمر؛ فنزلت. ثم قيل: «أو» في قوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ أوْكَد من الواو؛ لأن الواو إذا قلت: لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ فـ«ـأو» قد دلّت على أن كل واحد منهما أهل أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ٱبن سيرين، أو ٱتبع الحسن أو ٱبن سيرين فقد قلت: هذان أهل أن يُتَّبعا وكل واحد منهما أهل لأن يُتَّبع؛ قاله الزجاج. وقال الفرّاء: «أو» هنا بمنزلة «لا» كأنه قال: ولا كفوراً؛ قال الشاعر:

لاَ وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجَدْتُ وَلاَ ... وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ[1]

أَوْ وَجْدُ شيخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ ... يَوْمَ تَوافَى الحجيجُ فَٱندفَعُوا

أراد ولا وجد شيخ. وقيل: الآثم المنافق، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر؛ أي لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً. وهو قريب من قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي صلّ لربّك وأول النهار وآخره، ففي أوّله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ يعني التطوّع في الليل؛ قاله ٱبن حبيب. وقال ٱبن عباس وسفيان: كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة. وقيل: هو الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو في غيرها. وقال ٱبن زيد وغيره: إن قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل: هو ندب. وقيل: هو مخصوص بالنبيّ ﷺ. وقد تقدّم القول في مثله في سورة «المزمل» وقول ٱبن حبيب حسن. وجمع الأصيل: الأصائل والأُصُل؛ كقولك سَفَائن وسُفُن؛ قال:

* ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ *

وقال في الأصائل[2]، وهو جمع الجمع:

لَعَمْري لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ ... وأَقعدُ في أَفْيَائِهِ بالأَصَائِلِ

وقد مضى هذا في آخر «الأعراف» مستوفًى. ودخلت «مِن» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤].

(١) العجول من النساء والإبل: الواله التي فقدت ولدها، سميت بذلك لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعاً، وهي هنا: الناقة. والربع: الفصيل ينتج في الربيع.

(٢) القائل هو: أبو ذؤيب الهذلي.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾: توبيخ وتقريع، والمراد أهل مكة. والعجلة الدنيا ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ أي ويدعون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أي بين أيديهم ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي عسيراً شديداً كما قال: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي يتركون الإيمان بيوم القيامة. وقيل: «وَرَاءَهُمْ» أي خلفهم، أي ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها. وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوّته. وحبهم العاجلة: أخذهم الرّشا على ما كتموه. وقيل: أراد المنافقين؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا. والآية تعمّ. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمّيَ ثقيلاً لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أي من طين. ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أي خَلْقَهم؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم. والأَسْر الخَلْق؛ قال أبو عُبيد: يقال فرس شديد الأَسْر أي الخَلْق. ويقال أسره الله جلّ ثناؤه إذا شَدَّد خَلْقه؛ قال لبيد:

سـاهِـمُ الـوجـهِ شـدِيـدٌ أَسْـرُهُ ... مُشْـرِفُ الحـارِكِ مَحْبـوكُ الكَتـد

وقال الأخطل:

مِن كـلِّ مُجْتَنِبٍ(1) شَـديـدِ أَسْـرُهُ ... سَلِـسِ القِيـادِ تَخـالُـهُ مُخْتـالاَ

وقال أبو هريرة والحسن والربيع: شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. وقال مجاهد في تفسير الأَسْر: هو الشَّرْج، أي إذا خرج الغائط والبول تَقبَّضَ الموضعُ. وقال ٱبن زيد: القوّة. وقال ٱبن أحمر يصف فرساً:

يَمشِـي بِـأَوْظِفَـةٍ شِـدَادٍ أَسْـرُهَـا ... صُمِّ السَّنَابِكِ لا تَقِي بِالْجَدْجَدِ(2)

وٱشتقاقه من الإسار وهو القِدّ الذي يشد به الأقتاب؛ يقال: أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْراً أي شددته وربطته؛ ويقال: ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه أي شدّه وربطه؛ ومنه قولهم: خذه بِأَسْرِه. إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه(3) وشدّه لم يُفتَح ولم يُنقَص منه شيء. ومنه الأسير، لأنه كان يُكتَف بالإسار. والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية. أي سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي. ﴿ وَإِذَا شِئْنَا

(١) مجتنب: من الجنيبة، وهي الفرس تقاد ولا تركب.
(٢) الجدجد: الأرض الصلبة. لا تقي: لا تتوقى ولا تتهيب.
(٣) عكمت المتاع: شددته، العكام الخيط الذي يعكم به وعكمت البعير شددت عليه العكم.

﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ قال ٱبن عباس: يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم. وعنه أيضاً: لغيّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها. كذلك روى الضحاك عنه. والأوّل رواه عنه أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ﴾ أي السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي طَريقاً موصلاً إلى طاعته وطلب مرضاته. وقيل: «سَبِيلًا» أي وسيلة. وقيل وجهة وطريقاً إلى الجنة. والمعنى واحد. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي الطاعة والاستقامة وٱتخاذ السبيل إلى الله ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدّم، إلا أن تتقدّم مشيئته. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «وَمَا يَشَاءُونَ» بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه. وقيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية. والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفرّاء: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ جواب لقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: «وَمَا تَشَاءُونَ» ذلك السبيلَ «إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» لكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم ﴿حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ في أمره ونهيه لكم. وقد مضى في غير موضع. ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي يدخله الجنة راحماً له ﴿وَٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي ويعذّب الظالمين فنصبه بإضمار يعذّب. قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوب؛ أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذّب الظالمين أي المشركين ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمر؛ كما قال الشاعر:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ ... أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ... وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أي أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج: والاختيار النصب وإن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيداً وعمراً أعددت له براً، فيختار النصب؛ أي وبَرَرْت عمراً أو أبرّ عمراً. وقوله في ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الشورى: ٨] ٱرتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فٱرتفع بالابتداء. وها هنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يدل على ويعذّب، فجاز النصب. وقرأ أبان بن عثمان «وَالظَّالِمُونَ» رفعاً بالابتداء والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾. ﴿عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ أي مؤلماً موجِعاً. وقد تقدم هذا في سورة «البقرة» وغيرها والحمد لله. ختمت السورة.

سورة المرسلات

مكّيّةٌ في قول الحسن وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ٱبن عباس وقتادة إلا آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ مدنية. وقال ٱبن مسعود:

[٦٢١٥] نزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ على النبيّ ﷺ ليلة ونحن معه نسير، حتى أوينا إلى غار بمنًى فنزلت، فبينا نحن نتلقاها منه، وإنّ فاه لَرَطْب بها إذ وثَبَت حيّة، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت؛ فقال النبيّ ﷺ: «وُقِيتم شَرَّها كما وُقِيت شَرَّكم». وعن كريب مولى ٱبن عباس قال:

[٦٢١٥ م] قرأت سورة ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ فسمعتني أُمُّ الفضل ٱمرأة العباس، فبكت وقالت: والله يا بنيّ لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب. والله أعلم. وهي خمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح. وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبيّ. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إلٰه إلا الله؛ قاله ٱبن عباس. وقال أبو صالح: إنهم الرسل تُرْسَل بما يُعْرَفون به من المعجزات. وعن ٱبن عباس وٱبن مسعود: إنها الرياح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الحجر: ٢٢] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]. ومعنى

[٦٢١٥] صحيح. دون لفظ «ليلة الجن» أخرجه البخاري ٤٩٣٠ و ٤٩٣١ و ٤٩٣٤ من حديث ابن مسعود وعزاه في «الدر» ٦/ ٤٩١ لابن مردويه لكن فيه «ليلة الحية» بدل «الجن» وهو الأقرب.

[٦٢١٥ م] صحيح. أخرجه البخاري ٧٦٣ ومسلم ٤٦٢.

«عُرْفاً» يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس؛ تقول العرب: الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد: إذا توجهوا إليه فأكثروا. وهو نصب على الحال من ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ أي والرياح التي أرسلت متابعة. ويجوز أن تكون مصدراً أي تِباعاً. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر، كأنه قال: والمرسلات بالعُرْف، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل. وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب، لما فيها من نعمة ونقمة، عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه. وقيل: إنها الزواجر والمواعظ. و«عرفاً» على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس؛ قاله ٱبن مسعود. وقيل: جاريات؛ قاله الحسن؛ يعني في القلوب. وقيل: معروفات في العقول. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ الرياح بغير اختلاف؛ قاله المهدويّ. وعن ٱبن مسعود: هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحُطَامه؛ كما قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾[1] [الإسراء: ٦٩]. وقيل: العاصفات الملائكة الموكّلون بالرياح يعصفون بها. وقيل: الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه، وناقة عَصُوف أي تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم. وقيل: يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها. وقال ٱبن مسعود ومجاهد: هي الرياح يرسلها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته؛ أي تنشر السحاب للغيث. وروي ذلك عن أبي صالح. وعنه أيضاً: الأمطار؛ لأنها تنشر النبات، فالنشر بمعنى الإحياء؛ يقال: نشر الله الميّت ونشره أي أحياه. وروى عنه السديّ: أنها الملائكة تنشر كتب الله عزّ وجلّ. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. الضحاك: إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح. قال: «وَالنَّاشِرَاتِ» بالواو؛ لأنه ٱستئناف قسم آخر. ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحقّ والباطل؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال. وروى ٱبن أبي نجيح عن مجاهد قال: الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدّده. وعن سعيد عن قتادة قال: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ الفرقان، فَرّق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال. وقاله الحسن وٱبن كيسان. وقيل: يعني الرسل فَرَقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أي بيّنوا ذلك. وقيل: السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتَنِدّ في الأرض حين تضع، ونوق فَوارِقُ وفُرَّق. وربما شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة؛ قال ذو الرمّة:

(١) الصواب الاستشهاد بقوله تعالىٰ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾.

أَوْ مُـزْنَـةٌ فـارقٌ يَجْلـو غَـوارِبَهـا   تَبَـوّجُ الْبَـرْقِ والظَّلْمَـاءُ عُلْجُـومُ[1]

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ الملائكة بإجماع؛ أي تلقي كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام؛ قاله المهدوي. وقيل: هو جبريل وسمي بٱسم الجمع؛ لأنه كان ينزل بها. وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم؛ قاله قُطْرب. وقرأ ٱبن عباس «فالْمُلَقَّيات» بالتشديد مع فتح القاف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٦]. ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾: أي تلقى الوحي إعذاراً من الله أو إنذاراً إلى خلقه من عذابه؛ قاله الفراء. وروي عن أبي صالح قال: يعني الرسل يُعذرون ويُنذرون. وروى سعيد عن قتادة «عَذْراً» قال: عذراً لله جلّ ثناؤه إلى خلقه، ونَذْراً للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به. وروى الضحاك عن ٱبن عباس. «عُذْراً» أي ما يلقيه الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهي التوبة «أَوْ نُذْراً» ينذر أعداءه. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص «أَوْ نُذْراً» بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال «عُذْراً» سوى ما رواه الجُعْفِيّ والأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه ضم الذال. وروي ذلك عن ٱبن عباس والحسن وغيرهما. وقرأ إبراهيم التَّيمي وقتادة «عُذْراً وَنُذُراً» بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفاً. وهما منصوبان على الفاعل له أي للإعذار أو للإنذار. وقيل: على المفعول به، قيل: على البدل من «ذِكْراً» أي فالملقيات عذراً أو نذراً. وقال أبو علي: يجوز أن يكون العذُر والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر؛ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [النجم: ٥٦] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء؛ أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار. أو يكون مفعولاً لـ«ـذكراً» أي «فَالْمُلْقِيات» أي تُذَكِّر ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾. وقال المبرد: هما بالتثقيل جمع والواحد عَذِير ونَذِير. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ هذا جواب ما تقدم من القسم؛ أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم. ثم بيّن وقت وقوعه فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ أي ذهب ضوءُها ومُحِي نورُها كطمس الكتاب؛ يقال: طَمَس الشيء إذا درس وطُمِس فهو مطموس، والريح تطمُس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامساً بمعنى مطموس. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ أي فُتِحت وشُقَّت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩].وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: فُرجت للطيّ. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ أي ذهب بها كلها بسرعة؛ يقال: نَسفْتُ الشيءَ وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة. وكان ٱبن عباس والكلبيّ يقول: سُوِّيت بالأرض، والعرب تقول: فَرَس نَسُوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بِشْر:

* نَـسُـوفٌ لِـلـحِـزَام بـمـرفـقـيـهـا *

(١) تبوج البرق: تفتحه وتكشفه. علجوم: شديد السواد.

ونَسَفت الناقةُ الكلأَ: إذا رعته. وقال المبرد: نُسِفت قُلِعت من موضعها؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أَنْسَفت رجلاه. وقيل: النَّسْف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح. ومنه نسف الطعام؛ لأنه يُحرَّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التِّبْن. ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ أي جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه؛ فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [النساء: ١٠٩]. وقيل: هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفّار مُمْهَلون. وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأوّل أحسن؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة، كالطمس ونَسْف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة. قال أبو علي: أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً. وقيل: أُقِّتت وُعِدت وأُجِّلت. وقيل: ﴿أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ أي أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد. والهمزة في ﴿أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ بدل من الواو؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: وكل واو ضُمَّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة؛ تقول: صلّى القوم إِحْدانا تريد وِحْدانا، ويقولون هذه وُجُوه حسان وأُجُوه. وهذا لأن ضمة الواو ثقيلة. ولم يجز البدل في قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] لأن الضمة غير لازمة. وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر. وعن عاصم ومجاهد «وُقِّتَتْ» بالواو وتشديد القاف على الأصل. وقال أبو عمرو: وإنما يقرأ «أُقِّتَتْ» من قال في وُجُوه أُجُوه. وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج «وُقِتَت» بالواو وتخفيف القاف. وهو فُعِلَت من الوقت ومنه ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]. وعن الحسن أيضاً: «وُوقِتَتْ» بواوين، وهو فُوعِلت من الوقت أيضاً مثل عُوهِدت. ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفاً لجاز. وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلاَم «أُقِتَتْ» بالهمزة والتخفيف؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف. ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾؟ أي أخرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو ٱستفهام على التعظيم. أي ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ أُجِّلت. وروى سعيد عن قتادة قال: يفصل فيه بين الناس بأعمالهمُ إلى الجنة أو إلى النار. وفي الحديث:

[٦٢١٦] «إذا حشر الناس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رؤوسهم الشمسُ شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل». ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ أتبع

[٦٢١٦] أخرجه الحاكم ٣٧٦/٢ والطبراني ٩٨٦٣ من حديث ابن مسعود مطولاً، صححه الحاكم على شرطهما! ووافقه الذهبي! وقال الهيثمي ١٨٣٥٢ و١٨٣٥٣: رواه الطبراني من طرق رجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني، وهو ثقة اهـ. قلت: فيه لين، وقال أحمد: لا بأس به.

التعظيم تعظيماً؛ أي وما أعلمك ما يوم الفصل؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي عذاب وخزي لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد. وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذِّب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورُبّ شيء كذّب به هو أعظم جُرْماً من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الردّ على الله، فإنما يقسّم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه وهو قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]. وروي عن النعمان بن بشير قال: وَيْلٌ: وادٍ في جهنم فيه ألوان العذاب. وقاله ٱبن عباس وغيره. قال ٱبن عباس: إذا خَبَت جهنم أُخذ من جمره فألقى عليها فيأكل بعضها بعضاً. وروي أيضاً عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٢١٧] «عُرضت عليّ جهنم فلم أرَ فيها وادياً أعظم من الويْل» وروي أنه مَجْمَع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم، وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض وٱنفطر، وقد علم العباد في الدنيا أن شر المواضع في الدنيا ما ٱستنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغُسالات من الجيف وماء الحمامات؛ فذكر أن ذلك الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة، ولا أنتن منه نتْناً، ولا أشدّ منه مرارةً، ولا أشدّ سواداً منه؛ ثم وصفه رسول الله ﷺ بما تضمن من العذاب، وأنه أعظم وادٍ في جهنم، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمد ﷺ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي نلحق الآخرين بالأوّلين. ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي مثل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف: وإما بالهلاك. وقرأ العامة «ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ» بالرفع على الاستئناف، وقرأ الأعرج «نُتْبِعْهُمْ» بالجزم عطفاً على ﴿نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كما تقول: ألم تزرني ثم أكرمك. والمراد أنه أهلك قوماً بعد قوم على ٱختلاف أوقات المرسلين. ثم ٱستأنف بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

[٦٢١٧] لم أره هكذا، وأخرج الترمذي ٣١٦٤ وابن حبان ٧٤٦٧ والبيهقي في البعث ٥١٣ وأحمد ٣/٧٥ من حديث أبي سعيد الخدري ولفظه: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» قال الترمذي: حديث غريب اهـ.
وذكره ابن كثير في التفسير ١/١٢١ وقال: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً منكر والله أعلم اهـ.

يريد من يهلك فيما بعد. ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفاً من «نُتْبِعُهُم» لتوالي الحركات. وروي عنه الإسكان للتخفيف. وفي قراءة ٱبن مسعود «ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمُ» والكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع نصب، أي مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك. ثم قيل: معناه التهويل لهلاكهم في الدنيا ٱعتباراً. وقيل: هو إخبار بعذابهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدّم. وهذه الآية أصل لمن قال: إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده. وقد مضى القول فيه. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي في مكان حريز وهو الرَّحم. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ قال مجاهد: إلى أن نصوِّره. وقيل: إلى وقت الولادة. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ وقرأ نافع والكسائيّ «فَقَدَّرْنَا» بالتشديد. وخفّف الباقون، وهما لغتان بمعنًى. قاله الكسائيّ والفراء والقُتَبي. قال القُتَبي: قدرنا بمعنى قدّرنا مشدّدة: كما تقول: قدرت كذا وقدّرته؛ ومنه قول النبيّ ﷺ في الهلال:

[٦٢١٨] «إذا غُمّ عليكم فاقدُروا له» أي قدّروا له المسير والمنازل. وقال محمد بن الجهم عن الفراء: «فَقَدَّرْنَا» قال: وذكر تشديدها عن عليّ رضي الله عنه وتخفيفها: قال: ولا يبعد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً؛ لأن العرب تقول: قَدَر عليه الموت وقَدَّر: قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] قرىء بالتخفيف والتشديد، وقَدَر عليه رزقه وقَدّر. قال: وٱحتج الذين خَفّفوا فقالوا؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدّرون. قال الفراء: وتجمع العرب بين اللغتين؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧] قال الأعشى:

وأنْكَرَتنِي وما كان الذي نَكِرَتْ   من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

وروي عن عكرمة ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مخففة من القدرة، وهو ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائيّ لقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ومن شدّد فهو من التقدير، أي فقدّرنا الشقي والسعيد فنعم المقدّرون[1]. رواه ٱبن مسعود عن النبيّ ﷺ. وقيل: المعنى قدرنا قصيراً أو طويلاً. ونحوه عن ٱبن عباس: قدّرنا ملكنا. المهدوي: وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف.

[٦٢١٨] تقدم في البقرة في بحث الصوم.

(١) لا أصل له في المرفوع، وقد أخذه المصنف عن المهدوي، والمهدوي هذا يروي الموضوعات.

قلت: هو صحيح فإن عِكرمة هو الذي قرأ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مخففاً قال: معناه فملكنا فنعم المالكون، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين؛ أي قدّرنا وقت الولادة وأحوال النطفة في التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشرًا سويًا، أو الشقيّ والسعيد، أو الطويل والقصير، كله على قراءة التشديد. وقيل: هما بمعنى كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ أي ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها. وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه. وقوله عليه السلام:

[٦٢١٩] «قُصُّوا أظافركم وأدفنوا قُلَاماتِكم» وقد مضى في «البقرة» بيانه. يقال: كَفَتُّ الشيء أكْفِته: إذا جمعته وضممته، والكَفْت: الضم والجمع؛ وأنشد سيبويه:

كِرامٌ حينَ تَنْكفتُ الأفاعي ... إلى أحْجَارهنّ من الصَّقِيع

وقال أبو عبيد: ﴿كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ أوعية. ويقال لِلنِّحْي: كِفْت وكَفِيت، لأنه يحوي اللبن ويضمه قال:

فأنت اليومَ فوقَ الأرض حَيًّا ... وأنت غداً تَضُمُّكَ في كِفَات

وخرج الشَّعبيّ في جنازة فنظر إلى الجَبَّان فقال: هذهِ كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كِفات الأحياء.

والثانية ـ روي عن ربيعة في النَّبَّاش قال: تقطع يده فقيل له: لم قلت ذلك؟ قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ فالأرض حِرْز. وقد مضى هذا في سورة «المائدة». وكانوا يسمّون بَقِيع الغَرْقد كَفْتة، لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم والأموات في قبورهم. وأيضاً ٱستقرار الناس على وجه الأرض، ثم ٱضطجاعهم عليها، ٱنضمام منهم إليها. وقيل: هي كِفات للأحياء يعني دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات في الأرض؛ إذ لا ضَمّ في كون الناس عليها، والضَّمّ يشير إلى الاحتفاف من جميع الوجوه. وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه: الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض، أي الأرض منقسمة إلى حيّ وهو الذي ينبت، وإلى

[٦٢١٩] مضىٰ تخريجه، وهو ضعيف.

ميت وهو الذي لا ينبت. وقال الفراء: ٱنتصب ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ بوقوع الكِفات عليه؛ أي ألم نجعل الأرض كِفات أحياء وأموات. فإذا نوّنت نصبت؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤ـ١٥]. وقيل: نصب على الحال من الأرض، أي منها كذا ومنها كذا. وقال الأخفش: «كِفَاتًا» جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع. وقال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر. ويقال: ٱنكفت القومُ إلى منازلهم أي ٱنقلبوا. فمعنى الكِفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون فيها. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ يعني الجبال، والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال؛ ومنه يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً. قال: ﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ أي وجعلنا لكم سُقْيا. والفُرَات: الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات. وهذه الأمور أعجب من البعث. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفُرَات والدّجلة ونهر الأردن. وفي صحيح مسلم:

[٦٢٢٠] «سَيحان وَجَيْحان والنيل والفُرات كلّ من أنهار الجنة».

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي يقال للكفار سيروا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ من العذاب يعني النار، فقد شاهدتموها عياناً. ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي دخان ﴿ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ يعني الدخان الذي يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب. وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ٱرتفع تشعب. ثم وصف الظلّ فقال: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي ليس كالظلّ الذي يقي حرّ الشمس ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ أي لا يدفع من لهب جهنم شيئاً. واللهب ما يعلو على النار إذا[1] ٱضطرمت، من أحمر وأصفر وأخضر. وقيل: إن الشُّعَب الثلاث هي الضريع والزَّقُّوم والغِسْلين؛ قاله الضحاك. وقيل: اللهب ثم الشرر ثم الدخان؛ لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا ٱضطرمت وٱشتدّت. وقيل: عُنُق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب. فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين. وقيل: هو السُّرَادق، وهو لسان من نار يحيط بهم، ثم يتشعب منه ثلاث شعب، فتظللهم

[٦٢٢٠] متفق عليه، وتقدم.

(١) في الأصل «إذ».

حتى يُفْرَغ من حسابهم إلى النار. وقيل: هو الظلّ من يَحْموم؛ كما قال تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٢ ـ ٤٤] على ما تقدّم. وفي الحديث:

[٦٢٢١] «إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومُدَّ ذلك اليوم، ثم ينجّي الله برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه فهنالك يقولون: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٧]» ويقال للمكذبين: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ من عذاب الله وعقابه ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾. فيكون أولياء الله جلّ ثناؤه في ظلّ عرشه أو حيث شاء من الظلّ، إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرّه من الجنة والنار.

ثم وصف النار فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ الشرر: واحدته شررة. والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شَرَّرْتُ الثوبَ إذا بسطته للشمس ليجفّ. والقصر البناء العالي. وقراءة العامة «كَالْقَصْرِ» بإسكان الصاد: أي الحصون والمدائن في العِظم وهو واحد القصور. قاله ابن عباس وابن مسعود. وهو في معنى الجمع على طريق الجنس. وقيل: القصر جمع قَصْرةٍ ساكنة الصاد، مثل جَمْرَة، وجَمْرٍ وتَمْرة وتَمْر. والقصرة: الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ.

وفي البخاريّ عن ابن عباس أيضاً:

[٦٢٢٢] «تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ» قال كنا نرفع الخشبَ بقَصَرٍ ثلاثة أذرع أو أقلّ، فنرفعه[١] للشتاء، فنسميه القَصَر. وقال سعيد بن جُبير والضحاك: هي أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع. وقيل: أعناقه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وحُميد والسّلميّ «كَالْقَصَرِ» بفتح الصاد، أراد أعناق النخل. والقَصَرة العنق، جمعها قَصَر وقَصَرات. وقال قتادة: أعناق الإبل. وقرأ سعيد بن جُبير بكسر القاف وفتح الصاد، وهي أيضاً جمع قَصْرة مثل بَدْرة وبِدَر وقَصْعة وقِصَع وحَلْقَة وحِلَق، لحِلقِ الحديد. وقال أبو حاتم: ولعله لغة، كما قالوا حاجَة وحِوَج. وقيل: القَصْر: الجبل، فشبه الشرر بالقَصْر في مقاديره، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصُّفْر، وهي الإبل السود؛ والعرب تسمي السُّود من الإبل صُفْراً؛

[٦٢٢١] لم أره مسنداً، ولأصله شواهد.

[٦٢٢٢] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٣ عن ابن عباس به.

---

(١) وقع في الأصل «فترفعه» والتصويب عن صحيح البخاري.

قال الشاعر[1]:

تِلْـكَ خَيْلـي منـه وتلـك رِكَـابِـي هُـنَّ صُفْـرٌ أَوْلَادُهـا كـالـزَّبِيـبِ

أي هنّ سود. وإنما سُمّيت السود من الإبل صُفراً لأنه يشوب سوادها شيء من صُفرة؛ كما قيل لِبيض الظباء: الأدْم؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة: والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، لما يشوبُها من صُفْرة. وفي شعر عِمْران بن حِطّان الخارجيّ:

دَعَتْهُـمْ بِـأعلـى صَـوْتِهـا وَرَمَتْهُـمُ بِمثلِ الجِمالِ الصُّفْرِ نزّاعةُ الشَّوَى

وضعّف الترمِذيّ[2] هذا القول فقال: وهذا القول محال في اللغة، أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فنسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قد قال هذا، وقد قال الله تعالى: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة. ووجهه عندنا أن النار خُلِقت من النور فهي نار مضيئة، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار، حشا ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه، فٱسودّت من سلطانه وٱزدادت حِدّة، وصارت أشدّ سواداً من النار ومن كل شيء سواداً، فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على أهل الموقف، غضباً لغضب الله، والشرر هو أسود، لأنه من نار سوداء، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمي الأعداء به، فهنّ سود من سواد النار، لا يصل ذلك إلى الموحدين؛ لأنهم في سرادق الرحمة أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الربّ تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرمي، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه. وكان ٱبن عباس يقول: الجِمالات الصُّفر: حِبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. ذكره البخاري. وكان يقرؤها «جُمَالَاتٌ» بضم الجيم، وكذلك قرأ مجاهد وحُميد «جُمَالاَت» بضم الجيم، وهي الحبال الغلاظ، وهي قُلُوس السفينة أي حبالها. وواحد القُلُوس: قَلْس. وعن ٱبن عباس أيضاً على أنها قطع النحاس. والمعروف في الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم في «الأعراف». «وجُمَالاَت» بضم الجيم: جمع جِمالة بكسر الجيم مُوَحّدًا، كأنه جمع جَمَل، نحو حَجَر وحجارة، وذَكَر وذِكَارة. وقرأ يعقوب وٱبن أبي إسحاق وعيسى والجَحْدَريّ «جُمَالة» بضم الجيم موحداً وهي الشيء العظيم المجموع بعضه إلى بعض. وقرأ حفص وحمزة

(١) هو الأعشى.
(٢) هو الحكيم الترمذي صاحب نوادر الأصول.

والكسائي «جِمَالة» وبقية السبعة «جِمَالاَت» قال الفراء: يجوز أن تكون الجِمالات جمع جِمال كما يقال: رجل ورِجال ورِجالات. وقيل: شبهها بالجمالات لسرعة سيرها. وقيل: لمتابعة بعضها بعضاً. والقَصْر: واحد القصور. وقَصْر الظلام: ٱختلاطه. ويقال: أتيته قصراً أي عَشِيًّا، فهو مشترك؛ قال[١]:

كَـأَنَّهُـمْ قَصْـراً مَصـابِيـحُ راهِـبٍ   بِمَـوْزَنَ رَوَّى بـالسَّلِيـطِ ذُبـالَهـا

مسألة ـ في هذه الآية دليل على جواز ٱدِّخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغاني مفاقِرِه. وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبيّ ﷺ يدّخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ٱبن عباس هذا بقوله: كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندّخره للشتاء وكنا نسميه القَصَر. وهذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي لا يتكلمون ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلّمون فيها، ولا يؤذن لهم في الاعتذار والتنصل. وعن عِكرمة عن ٱبن عباس قال: سأله ٱبن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ و ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨] وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧] فقال له: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧] فإن لكل مقدار من هذه الأيام لوناً من هذه الألوان. وقيل: لا ينطقون بحجة نافعة، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق. قال الحسن: لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون. وقيل: إن هذا وقت جوابهم ﴿ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقد تقدم. وقال أبو عثمان: أسكتتهم رؤيةُ الهيبة وحياءُ الذنوب. وقال الجُنيد: أيُّ عذر لِمن أعرض عن مُنعِمِهِ وجحده وكفر أياديه ونِعمه؟ و«يوم» بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر؛ أي تقول الملائكة: «هذا يوم لا ينطِقون». ويجوز أن يكون قوله: «ٱنطلِقوا» من قول الملائكة، ثم يقول الله لأوليائه: هذا يوم لا ينطِق الكُفّار. ومعنى اليوم الساعة والوقت. وروى يحيى بن سلطان عن أبي بكر عن عاصم «هذا يومَ لا ينطِقون» بالنصب، ورُوِيتْ عن ٱبن هُرْمز وغيره، فجاز أن يكون مبنياً لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع. وهذا مذهب

---

(١) هو كثير عزة.

الكوفيين. وجاز أن يكون في موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم. وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بني عندهم إذا أضيف إلى مبنيّ، والفعل هاهنا معرب. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الفاء نَسْق أي عطف على «يُؤْذَن»، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون. ولو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات. وقد قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦] بالنصب وكله صواب؛ ومثله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ﴾ [الحديد: ١١] بالنصب والرفع.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ﴾ أي ويقال لهم هذا اليوم الذي يُفْصل فيه بين الخلائق؛ فيتبين المحقّ من المبطل. ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ قال ٱبن عباس: جمع الذين كذّبوا محمداً والذين كذّبوا النبيين من قبله. رواه عنه الضحاك. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي فٱحتالوا لأنفسكم وقاوُوني[1] ولن تجدوا ذلك. وقيل: أي ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي قدرتم على حرب «فَكِيدُونِي» أي حاربوني. كذا روى الضحاك عن ٱبن عباس. قال: يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمداً ﷺ وتحاربونني فاليوم حاربوني. وقيل: أي إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدَّفْع عن أنفسكم. وقيل: إنه من قول النبيّ ﷺ، فيكون كقول هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٥]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ أخبر بما يصير إليه المتقون غداً، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظلّ في الشعب الثلاث. وفي سورة يَس ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾. [يَس: ٥٦] ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي يتمنون. وقراءة العامة «ظِلَالٍ». وقرأ الأعرج والزهريّ وطلحة «ظُلَلٍ» جمع ظُلّة يعني في الجنة. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي يقال لهم غداً هذا بدل ما يقال للمشركين ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾. فـ«كُلُوا وَٱشْرَبُوا» في موضع الحال من ضمير «الْمُتَّقِينَ» في الظرف الذي هو «فِي ظِلَالٍ» أي هم مستقرّون «فِي ظِلَالٍ» مقولاً لهم ذلك.

(١) في القاموس: التقاوي: تزايد الشركاء.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبلَ المتقين، وهو وعيد وتهديد وهو حال من «المُكَذِّبِينَ» أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا ﴾. ﴿ إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي كافرون. وقيل: مكتسبون فعلاً يضركم في الآخرة، من الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي إذا قيل لهؤلاء المشركين: ﴿ ٱرۡكَعُواْ ﴾ أي صلّوا ﴿ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي لا يصلون؛ قاله مجاهد. وقال مقاتل: نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم. قال مقاتل:

[٦٢٢٣] قال لهم النبيّ ﷺ: «أسلموا» وأمرهم بالصلاة فقالوا: لا ننحني فإنها مَسبَّة علينا، فقال النبيّ ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود». يُذْكَر أن مالكاً رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس ولم يركع، فقال له صبيّ: يا شيخ قم فأركع. فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهباً، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾. وقال أبن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون. قتادة: هذا في الدنيا. أبن العربيّ: هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركناً في الصلاة وقد أنعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يُدْعون إلى السجود كشفاً لحالِ الناس في الدنيا، فمن كان لِلَّهِ يسجد يمكن من السجود، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طَبَقاً واحداً. وقيل: أي إذا قيل لهم أخضعوا للحق لا يخضعون، فهو عام في الصلاة وغيرها

[٦٢٢٣] هذا معضل. ذكره الزمخشري في كشافه ٤/٦٨٣ بهذا السياق فقال الحافظ: هكذا ذكره الثعلبي. وأخرجه أبو داود وأحمد من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به وأتم منه ا هـ وما أشار إليه الحافظ هو عند أبي داود ٣٠٢٦ وأحمد ٤/٢١٨ وحسنه شيخنا في جامع الأصول ٨/٤١٣ وفيه اختلاف يسير وليس فيه لفظ «ولا سجود».

وإنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان.

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴾ أي إن لم يصدقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام، فبأي شيء يصدّقون! وكُرِّر «ويل يومئذٍ للمكذِّبين» لمعنىٰ تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر؛ كأنه ذكر شيئاً فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا. ثم كذلك إلى آخرها. ختمت السورة ولله الحمد.

سورة عم

مكية وتسمى سورة النبأ وهي أربعون أو إحدى وأربعون آيةَ

بِسم الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾؟ «عم» لفظ ٱستفهام؛ ولذلك سقطت منها ألف «ما»، ليتميز الخبر عن الاستفهام. وكذلك (فيم، ومم) إذا ٱستفهمت. والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً. وقال الزجاج: أصل «عَمَّ» عن ما فأدغمت النون في الميم، لأنها تشاركها في الغُنّة. والضمير في «يتساءلون» لقريش. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت «عم يتساءلون»؟ وقيل: «عم» بمعنى: فيم يتشدّد المشركون ويختصمون.

قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ أي يتساءلون «عن النبإِ العظِيم» فعن ليس تتعلق بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون «عنِ النبإِ العظِيم» كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من ٱمتناع تعلقه بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر. وحسن ذلك لتقدم يتساءلون؛ قاله المَهْدويّ. وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله: «عن» مكرر إلا أنه مضمر، كأنه قال عم يتساءلون أعن النبإ العظيم؟ فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى. و«النبأ العظيم» أي الخبر الكبير. ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضاً، فيصدق واحد ويكذب آخر؛ فروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: هو القرآن؛ دليله قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [صۤ: ٦٧ ـ ٦٨] فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن. وروى سعيد عن قتادة قال: هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين: مصدّق ومكذب. وقيل: أَمْر النبي ﷺ. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: وذلك أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن أشياء كثيرة، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم، ثم هدّدهم فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ أي سيعلمون عاقبة القرآن، أو سيعلمون

البعث: أحق هو أم باطل. و «كلا» ردّ عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن، فيوقف عليها. ويجوز أن يكون بمعنى حقاً أو «ألاَ» فيُبدأ بها. والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عز وجل «إن يوم الفصلِ كان مِيقاتاً» يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ أي حقاً لَيَعْلَمُنَّ صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحاك: «كَلا سيعلِمونِ» يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم. «ثم كلا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم. وقيل: بالعكس أيضاً. وقال الحسن: هو وعيد بعد وعيد. وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ وقوله: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾. وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾: دلهم على قدرته على البعث؛ أي قُدْرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة. والمِهاد: الوِطاء والفراش. وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] وقُرِىء «مَهْداً». ومعناه أنها لهم كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوّم عليه ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها. ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ أي أصنافاً: ذكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ «جعلنا» معناه صَيَّرنا؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين. ﴿سُبَاتًا ۝٩﴾ المفعول الثاني، أي راحة لأبدانكم، ومنه يوم السَّبْت أي يوم الراحة؛ أي قيل لبني إسرائيل: ٱستريحوا في هذا اليوم، فلا تعملوا فيه شيئاً. وأنكر ابن الأنباري هذا وقال: لا يقال للراحة سُبَات. وقيل: أصله التمدّد؛ يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلته وأرسلته، فالسُّبَات كالمد، ورجل مسبوت الخلق: أي ممدود. وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدّد، فسميت الراحة سبتا. وقيل: أصله القطْع؛ يقال: سَبَتَ شعره سَبْتا: حَلَقه؛ وكأنه إذا نام ٱنقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح. ويقال: سَير سَبْت: أي سهل لين؛ قال الشاعر[1]:

(١) هو حميد بن ثور.

وَمطْويـةِ الأقـرابِ أمّـا نهـارُهـا فَسَبْـتٌ وأمّـا ليلُهـا فـذَمِيـلُ[1]

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ أي تلبَسكم ظلمته وتغشاكم؛ قاله الطبري. وقال ٱبن جُبير والسُّدي: أي سَكنا لكم. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ فيه إضمار، أي وقْتَ معاشٍ، أي مُتَصَرَّفاً لِطلب المعاش وهو كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ«ـمعاشا» على هذا ٱسم زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ أي سبع سموات محكمات؛ أي محكمة الخلق وثيقة البنيان. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾ أي وقَّاداً وهي الشمس. وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذي له وَهَج؛ يقال؛ وهَجَ يهِج وَهْجا ووَهَجاً ووَهَجَاناً. ويقال للجوهر إذا تلألأ توهّج. وقال ٱبن عباس: وهَّاجاً منيراً متلألئاً. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ قال مجاهد وقتادة: والمعصِرات الرياح. وقاله ابن عباس. كأنها تَعْصِر السحاب. وعن ٱبن عباس أيضاً: أنها السحاب. وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك: أي السحائب التي تنعصِر بالماء ولما تُمْطر بعد، كالمرأة المُعْصِر التي قد دنا حيضُها ولم تحض، قال أبو النجم:

تمشِـي الهُـوَيـنَـى مـائـلاً خِمـارُهـا قد أَعْصَرتْ أو قد دنا إعصارها

وقال[2] آخر:

فكان مِجَني دون من كنت أتقِي ثَـلاثُ شُخُـوصٍ كـاعِبـان ومُعْصِـرُ

وقال آخر: [3]:

وذِي أشُـرٍ كـالأُقْحـوانِ يـزِينُـهُ ذِهابُ الصَّبا والمُعْصِراتُ الرَّوائِحُ[4]

فالرياح تسمى مُعْصِرات؛ يقال: أَعْصَرَت الريح تُعْصِر إعصاراً: إذا أثارت العجاج، وهي الإعصار، والسحب أيضاً تسمى المُعْصِرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضاً: المُعْصِرات السماء، النَّحَّاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر مُعْصِرات، والرياح تلقح السحاب، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المُعصِرات ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ وأصح الأقوال أن المعصرات: السحاب. كذا المعروف أن الغيث منها، ولو

---

(١) السبت: السير السريع. الذميل: السير اللين.

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة.

(٣) هو البعيث.

(٤) الذهاب بكسر الذال: الأمطار الضعيفة.

كان (بالمُعصرات) لكان الريح أولى. وفي الصحاح: والمعصرات السحائب تُعْتَصر بالمطر. وأُعِصر القوم أي أمطروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وفِيه يُعْصِرون» والمعصِر: الجارية أوّل ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز[1]:

جَــارِيــةٌ بسفَــوانَ دارهـــا   تمشِي الهُـوَيْنَى سـاقِطـاً خمـارُهـا
* قد أَعصَرَتْ أو قد دنا إعصارُها *

والجمع: مَعاصِر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. سمعته من أبي الغوث الأعرابيّ. قال غيره: والمُعصر السحابة التي حان لها أن تمطر؛ يقال أجن الزرع فهو مُجنّ: أي صار إلى أن يُجِنّ، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرَّد: يقال سحاب معصر أي ممسك للماء، ويُعْتَصر منه شيء بعد شيء، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعُصْرة بالضم أيضاً الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة «يوسف» والحمد لله. وقال أبو زبيد:

صــادِيــاً يستغِيــثُ غيــر مُغــاثٍ   ولقــدْ كــان عُصْــرة المنْجــودِ

ومنه المُعصِر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعصِر؛ لأنها تحْبَس في البيت، فيكون البيت لها عَصَرا. وفي قراءة ٱبن عباس وعِكرمة «وأَنزلنا بِالمعصِراتِ». والذي في المصاحف «مِن المعصِراتِ» قال أبيّ بن كعب والحسن وٱبن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: «مِن المعصِراتِ» أي من السموات. «ماء ثَجاجا» صباباً متتابعاً؛ عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما. يقال: ثَجَجْت دمَه فأنا أَثُجه ثجا، وقد ثج الدم يَثُج ثجوجاً، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعدّ. والثجاج في الآية المنصَبّ. وقال الزجاج: أي الصَّبَّاب، وهو متعدّ كأنه يثج: نفسه أي يَصُبّ، وقال عَبِيد بن الأبرص:

فثَــجَّ أعــلاه ثــم ٱرتــجَّ أَسفلُــه   وضاقَ ذَرْعا بِحَملِ الماءِ مُنْصاحِ

وفي حديث النبي ﷺ:

[٦٢٢٤] أنه سئل عن الحج المبرور فقال: «العَجّ والثَّجّ» فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا. وقال ٱبن زيد: ثجاجاً كثيراً. والمعنى واحد.

[٦٢٢٤] تقدم في سورة البقرة في بحث الحج.

---

(١) هو منصور بن مرثد الأسدي.

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ من الأبّ، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين ﴿أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعّب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: واحد الألفاف لِفٌّ بالكسر، ولُفّ بالضم. ذكره الكسائي؛ قال:

جنـــة لُـــفٌّ وعيـــشٌ مُغْـــدِق ونَـــدامَـــى كلُّهـــمْ بِيـــضٌ زُهُـــرْ

وعنه أيضاً وأبي عبيدة: لفيف كشريف وأشراف. وقيل: هو جمع الجمع. حكاه الكسائي. يقال: جنة لَفَّاء ونبت لِفٌّ والجمع لُفٌّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع اللّف ألفافاً. الزمخشري: ولو قيل جمع مُلْتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيهاً. ويقال: شجرة لَفّاء وشجر لُفّ وامرأة لفاء: أي غليظة الساق مجتمعة اللحم. وقيل: التقدير: ونخرج به جنات ألفافاً، فحذف لدلالة الكلام عليه. ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأوّلين والآخرين؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب. وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي إلى موضع العَرْض، ﴿أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ أي أمما، كل أمّة مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعات. الواحد: فوج. ونصب يوماً بدلاً من اليوم الأوّل. وروي من حديث معاذ بن جبل قلت:

[٦٢٢٥] يا رسول الله! أرأيت قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ فقال النبي ﷺ: «يا معاذ بنَ جَبَل لقد سألت عن أمر عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يُحشَر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صُوَرهم، فمنهم على صورة القِرَدة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم مُنَكَّسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسْحَبون عليها، وبعضهم عُمْي يتردّدون، وبعضهم صُمٌّ بُكمٌ

[٦٢٢٥] ضعيف جداً. أخرجه الثعلبي وابن مردويه كما في تخريج الكشاف ٤/٦٨٨ من حديث البراء عن معاذ به وفيه حنظلة بن عبد الله السدوسي متروك الحديث يحدث بأعاجيب راجع الميزان والراوي عنه مجهول. والحديث أمارة الوضع لائحة عليه.

لا يعقلون، وبعضهم يَمضُغون ألسنتهم، فهي مُدلاَّة على صدورهم، يسيل القَيح من أفواههم لعاباً، يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار، وبعضهم أشدّ نَتْناً من الجِيف، وبعضهم ملبسون جَلابيب سابغة من القَطران لاصقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس ـ يعني النمام ـ وأَما الذين على صورة الخنازير، فأهل السُّحْت والحرام والمَكْس. وأما المنكَّسون رؤوسهم ووجوههم، فأَكَلة الربا، والعُمْي: من يجور في الحكم، والصم البكم: الذين يعجبون بأعمالهم. والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقُصّاص الذين يخالف قولهم فعلهم. والمقطعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلَّبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نَتْناً من الجِيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات، ويمنعون حق الله من أموالهم. والذين يلْبَسون الجلابيب: فأهل الكِبْر والفخر والخيَلاء».

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ أي لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾. [الفرقان: ٢٥] وقيل: تقطعت، فكانت قِطعاً كالأبواب فٱنتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف. وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبواباً. وقيل: أبوابها طُرُقها. وقيل: تنحلّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب. وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة ٱنفتحت الأبواب. وفي حديث الإسراء:

[٦٢٢٦] «ثُمّ عرج بنا إلى السماء فٱستَفْتح جبريل، فقيل: من أنت قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وَقَد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا». ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ أي لا شيء كما أنَّ السراب كذلك: يظنه الرائي ماء وليس بماء. وقيل: «سُيِّرت» نسِفت من أصولها. وقيل: أُزيلت عن مواضعها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾: مِفعال من الرَّصَد والرصَد: كل شيء كان أمامك. قال الحسن: إن على النار رَصَداً، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجىء بجواز حُبِس. وعن سُفيان رضي الله عنه قال: عليها

[٦٢٢٦] صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩ ومسلم ١٦٣ في أثناء حديث، وتقدم.

ثلاث قَناطر. وقيل «مِرصاداً» ذات أَرْصاد على النسب، أي ترصد من يمرّ بها. وقال مقاتل: مَحْبِساً. وقيل: طريقاً وممرّاً، فلا سبيل إلى الجنة حتى يَقْطع جهنم. وفي الصّحاح: والمِرصاد: الطريق. وذكر القُشَيريّ: أن المرصاد المكان الذي يَرصُد فيه الواحد العدوّ، نحو المِضمار: الموضع الذي تُضَمَّر فيه الخيل. أي هي معدّة لهم؛ فالمِرصاد بمعنى المحلّ؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم. وذكر الماورديّ عن أبي سِنان أنها بمعنى راصدة، تجازيهم بأفعالهم. وفي الصحاح: الراصد الشيءِ: الراقبُ له؛ تقول: رصدَه يرصدُه رَصْداً ورَصَداً، والترصُّد: الترقب. والمَرْصَد: موضع الرصْد. الأصمعيّ: رَصَدْته أرصُده: ترقبته، وأرْصدته: أعددت له. والكسائي: مثله.

قلت: فجهنم مُعَدّة مترصّدة، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقب؛ أي هي متطلعة لِمن يأتي. والمِرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثر من جهنم ٱنتظار الكفار. ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ بدل من قوله: «مِرصادا» والمآب: المرجع، أي مرجعاً يرجعون إليها؛ يقال: آب يَؤوب أوبة: إذا رجع. وقال قتادة: مأوًى ومنزلاً. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم.

قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب. والحُقُب بضمتين: الدهر والأحقاب الدهور. والحِقْبة بالكسر: السَّنة؛ والجمع حِقَب؛ قال متمم بن نُويرة التميمي:

وكنـا كنَـدْمـانَـيْ جَـذيمـة حِقبـةً   مِن الدَّهرِ حتى قيل لنْ يتصدّعَا
فلمـا تفـرّقنـا كـأنّـي ومـالِكـاً   لِطولِ ٱجتماعٍ لم نبِتْ ليلة معَا

والحُقُب بالضم والسكون: ثمانون سنة. وقيل: أكثر من ذلك وأقل، على ما يأتي، والجمع: أحقاب. والمعنى في الآية؛ لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة؛ أي أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب. ونحوه وذكر الأحقاب لأن الحُقُب كان أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامُهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأبيد، أي يمكثون فيها أبداً. وقيل: ذكر الأحقـاب دون الأيـام؛ لأن الأحقـاب أهـول فـي القلـوب، وأدل علـى الخلـود. والمعنـى متقارب؛ وهذا الخلود في حق المشركين. ويمكن حمل الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغَسَّاق، فإذا ٱنقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا

شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. و «لابِثِين» اسم فاعل من لبِث، ويقويه أن المصدر منه اللَّبْث بالإسكان، كالشُّرْب. وقرأ حمزة والكسائي «لبِثِين» بغير ألف وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابِث ولبِث، مثل طمِع وطامِع، وفرِه وفارِه. ويقال: هو لَبِث بمكان كذا: أي قد صار اللَّبث شأنه، فشبه بما هو خلقة في الإنسان نحو حَذِر وفَرِق؛ لأن باب فَعِل إنما هو لما يكون خِلْقة في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسم الفاعل من لابث. والحُقُبُ: ثمانون سنة في قول ابن عمر وابن مُحَيصن وأبي هريرة، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا؛ قاله ابن عباس. وروى ابن عمر هذا[1] مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقال أبو هريرة: والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً كل يوم مثل أيام الدنيا. وعن ابن عمر أيضاً: الحُقُب: أربعون سنة. السُّدِّيّ: سبعون سنة. وقيل:

[٦٢٢٧] إنه ألف شهر. رواه أبو أمامة مرفوعاً. بشير بن كعب: ثلثمائة سنة. الحسن: الأحقاب لا يَدرِي أحد كم هي، ولكن ذكروا أنها مائة حُقُب، والحُقُب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون. وعن أبي أمامة أيضاً، عن النبي ﷺ:

[٦٢٢٨] «إن الحُقُب الواحد ثلاثون ألفَ سنة» ذكره المهدويّ. والأوّل الماورديّ. وقال قُطرب: هو الدهر الطويل غير المحدود. وقال ابن عمر[2] رضي الله عنه:

[٦٢٢٩] قال النبي ﷺ: «والله لا يخرُج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً،

[٦٢٢٧] ضعيف جداً. أخرجه ابن أبي عمر في مسنده كما في المطالب العالية ٣٨٠٠ من حديث أبي أمامة بأتم منه، وإسناده ضعيف لضعف جعفر بن الزبير وشيخه القاسم بن عبد الرحمن. والوقف في هذا الخبر أشبه والله أعلم. وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩٤.

[٦٢٢٨] ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في الكبير ٧٩٥٧ من حديث أبي أمامة، وأعله الهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٣ بجعفر بن الزبير وله علة ثانية وهي القاسم بن عبد الرحمن جرحه أحمد فقال: روىٰ علي بن زيد عن القاسم أعاجيب ولا أراها إلا من جهة القاسم، راجع الميزان.

[٦٢٢٩] موضوع. أخرجه البزار ٤/ ١٨٧ وابن عدي في الكامل ٣/ ٢٨٦ من حديث ابن عمر، ومداره علىٰ سليمان بن مسلم الخشاب قال في المجمع ١٠/ ٣٩٥: ضعيف جداً اهـ وقال ابن عدي عقب روايته للحديث مع حديث آخر له وهذين الحديثين منكرين جداً. وقال الذهبي في الميزان في ترجمة الخشاب هذا ٢/ ٢٢٣ بعد أن ذكر حديثاً آخر له: قلت: هما موضوعان في نقدي اهـ وهو كما قال فإن من المسلمين من يدخل النار مدة يسيرة، أو ساعات ونحو ذلك.

---

(١) هو بعض الآتي برقم: ٦٢٢٩.

(٢) وقع في الأصل «عمر بن الخطاب» والتصويب عن كافة كتب التخريج المتقدمة.

الحُقُب بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً، كلّ يوم ألفُ سنة مما تَعُدُّون؛ فلا يتكلنَّ أحدكم على أنه يخرج من النار». ذكره الثعلَبيّ. القُرظيّ: الأحقاب: ثلاثة وأربعون حُقُباً كل حُقُب سبعون خَريفاً، كل خريف سبعمائةِ سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يومٍ ألف سنة.

قلت: هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود، يحتاج إلى توقيف يقطَع العُذْر، وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ. وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أوّلاً؛ أي لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كلما مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع. وقال ابن كَيْسان: معنى ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ لا غاية لها انتهاء، فكأنه قال أبداً. وقال ابن زيد ومُقاتل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ يعني أن العدد قد انقطع، والخلود قد حصل.

قلت: وهذا بعيد؛ لأنه خبر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] على ما تقدم. هذا في حق الكفار، فأما العُصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص. والله أعلم. وقيل: المعنى «لابثين فِيها أحقابا» أي في الأرض، إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في «لا يذوقون فِيها بردا ولا شراباً» لجهنم. وقيل: واحد الأحقاب حُقُب وحِقْبَةٌ؛ قال:

فـإنْ تَنْـأَ عنهـا حِقْبَـةً لا تُـلاقِهَـا ... فَـأنـتَ بِمـا أَحْـدَثْتَـهُ بِـالمُجَـرَّبِ

وقال الكميت:

* مَـرّ لهـا بعـد حِقبـةٍ حِقَبُ *

قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي في الأحقاب ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤﴾ البرد: النوم في قول أبي عبيدة وغيره؛ قال الشاعر[1]:

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ ... وإن شِئت لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدَا[2]

وقاله مجاهد والسُّدّيّ والكسائيّ والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي؛ وأنشدوا قول الكنديّ:

بَـرَدتْ مَـراشِفُهـا علـيَّ فصـدنِـي ... عنهـا وعـن تقبيلِهـا الْبَـرْدُ

يعني النوم. والعرب تقول: مَنع البَرْدُ البَرْد، يعني: أذهب البرد النوم.

---

(١) هو العرجي عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان.
(٢) النقاخ: الماء الطيب.

قلت: وقد جاء الحديث:

[٦٢٣٠] أنه عليه الصلاة والسلام سُئل هل في الجنة نوم. فقال: «لا؛ النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها» فكذلك النار؛ وقد قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦] وقال ٱبن عباس: البَرْدُ: برد الشراب. وعنه أيضاً: البرد النوم: والشراب الماء. وقال الزّجاج: أي لا يذوقون فيها برد ريح، ولا ظِل، ولا نوم. فجعل البرد برد كل شيء له راحة، وهذا برد ينفعهم، فأما الزمهرير فهو برد يتأذّون به، فلا ينفعهم، فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به. وقال الحسن وعطاء وٱبن زيد: بَرْداً: أي رَوْحاً وراحة؛ قال الشاعر[1]:

فلا الظلَّ مِن بردِ الضحى تستطيعُه ولا الفَيْءَ أوقات العَشِيّ تذوقُ

«لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً» جملة في موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان، والعامل فيه «لابِثِين» أو «لبِثِين» على تعدية فِعل. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ ٱستثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه. والحميم: الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة. وقال ٱبن زيد: الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يُسْقَونه. قال النحاس: أصل الحميم: الماء الحار، ومنه ٱشتق الحَمّام، ومنه الحُمَّى، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾: [الواقعة: ٤٢] إنما يراد به النهاية في الحر. والغَسّاق: صديد أهل النار وقَيْحُهم. وقيل الزَّمْهَرير. وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين، وقد مضى في «ص» القول فيه. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ أي موافقاً لأعمالهم. عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما؛ فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقِتال بمعنى المقاتلة. و «جزاء» نصب على المصدر، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم؛ قاله الفَرّاء والأخفش. وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوِفق، والوفق واللفق واحد. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوءهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يخافون ﴿حِسَابًا ۝٢٧﴾ أي محاسبة على أعمالهم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب حساب. الزجاج: أي إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم. ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ أي بما جاءت به الأنبياء. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءة العامة «كِذّاباً» بتشديد

[٦٢٣٠] تقدم تخريجه.

---

(١) هو حميد بن ثور، يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة.

الذال، وكسر الكاف، على كَذَّب، أي كَذَّبوا تكذيباً كبيراً. قال الفراء: هي لغة يمَانِيَّة فسيحة؛ يقولون: كَذَّبت به كِذَّاباً، وخرقت القميص خِرَّاقاً؛ وكل فِعل في وزن (فَعَّلَ) فمصدره فِعَّال مشدد في لغتهم؛ وأنشد بعض الكلابيين:

لقد طالَ ما ثَبَّطتني عن صاحبتي وعـن حِـوجٍ قِضَّـاؤُهـا مِـن شِفـائِيَـا

وقرأ علي رضي الله عنه «كِذَاباً» بالتخفيف وهو مصدر أيضاً. وقال أبو عليّ: التخفيف والتشديد جميعاً: مصدر المكاذبة، كقول الأعشى:

فصـدقتهـا وكَـذَبْتُهـا والمـرءُ ينفعـهُ كِـذَابـه

أبو الفتح: جاءا جميعاً مصدر كَذَبَ وكَذَّب جميعاً. الزمخشري: «كِذَاباً» بالتخفيف مصدر كَذَب؛ بدليل قوله:

فصـدقتُهـا وكَـذَبْتُهـا والمـرءُ ينفعـهُ كِـذَابـهْ

وهو مثل قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ [نوح: ١٧] يعني وكَذبوا بآياتنا أفكَذَبوا كِذَاباً. أو تنصِبه بـ «كَذَّبوا»، لأنه يتضمن معنى كَذَبوا؛ لأن كل مُكَذِّب بالحقّ كاذِب؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مُكاذبة. وقرأ ابن عمر «كُذَّاباً» بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم. ونصبه على الحال الزمخشريّ. وقد يكون الكُذَّاب: بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب، يقال: رجل كُذّاب، كقولك حُسَان وبُخَّال، فيجعله صفة لمصدر «كَذَّبوا» أي تكذيباً كُذَّاباً مفرطاً كذبهُ. وفي الصحاح: وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ وهو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على (تفعيل) مثل التكليم وعلى (فِعَّال) كِذَّاب وعلى (تفعِلة) مثل توصِية، وعلى (مُفَعَّلٍ)؛ ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۝٢٩﴾ «كلَّ» نصب بإضمار فعل يدل عليه «أحصيناه» أي وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السَّمَّال «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء. «كِتاباً» نصب على المصدر؛ لأن معنى أحصينا: كتبنا، أي كتبناه كتاباً. ثم قيل: أراد به العلم، فإن ما كُتِب كان أبعد من النسيان. وقيل: أي كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة. وقيل: أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكَّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]. ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ قال أبو بَرْزة:

[٦٢٣١] سألت النبيّ ﷺ عن أشد آية في القرآن؟ فقال: «قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن

[٦٢٣١] ضعيف جداً والراجح الوقف. أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩٥ من حديث=

نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾» أي «كلما نضِجَتْ جُلودُهُمَ بَدَّلناهم جلوداً غيرَها» و «كلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)﴾ ذَكَر جزاء من اتقى مخالفة أمر الله «مَفازاً» موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار. ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها. ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢)﴾ هذا تفسير الفوز. وقيل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)﴾ إن للمتقين حدائقَ؛ جمع حديقة، وهي البستان المُحَوَّط عليه؛ يقال أحدق به: أي أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي كروم أعناب، فحذف. ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)﴾ كواعِب: جمع كاعِب وهي الناهد؛ يقال: كَعَبَت الجارية تَكْعَب كُعوباً، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعِيباً، ونَهَدت تَنْهَد نُهوداً. وقال الضحاك: ككواعب العَذَارَى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكم مِن حَصانٍ قد حَوَينا كريمةٍ ومِن كاعِبٍ لم تدرِ ما البؤسُ مُعْصِرِ

والأتراب: الأقران في السنّ. وقد مضى في سُورة «الواقعة» الواحد: ترب. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس: مُتْرعة مملوءة؛ يقال: أدهقت الكأس: أي ملأْتُها، وكأس دِهاق أي ممتلِئة؛ قال:

ألا فاسقِنِي صِرْفاً سقاني الساقِي مِـن مـائِهـا بِكـأسـك الـدِّهـاقِ

وقال خِدَاش بن زُهَير:

أتـانـا عـامِـرٌ يبغِـي قِـرانَـاً فـأتْـرعْـنـا لـه كـأسـاً دِهـاقـاً

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمة ومجاهد وابن عباس أيضاً: متتابعة، يَتبع بعضُها بعضاً؛ ومنه ادَّهَقتِ الحِجارة ادِّهاقاً، وهو شدّة تلازُبها ودخول بعضها في بعض؛ فالمتتابع كالمتداخل. وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسلم: صافية؛ قال الشاعر:

لأنـتِ إلـى الفـؤادِ أحـبُّ قـربـاً مِـن الصـادِي إلـى كـأسٍ دِهـاقِ

= الحسن عن أبي برزة مرفوعاً وأعله ابن كثير بجسر بن فرقد وقال: هو ضعيف بالكلية اهـ وأخرجه الطبراني كما في المجمع ٧/١٣٣ عن الحسن عن أبي برزة موقوفاً وأعله الهيثمي أيضاً بشعيب بن بيان وأنه ضعيف. ومع ذلك الوقف أشبه. والحسن هو ابن دينار وليس البصري المشهور كما بينه في الدر ٦/٥٠٢.

وهو جمع دَهَق، وهو خشبتان يغمز بهما الساق. والمراد بالكأس الخمر، فالتقدير: خمراً ذات دهاق، أي عُصِرت وصُفِّيت؛ قاله القشيريّ. وفي الصحاح: وأَدْهَقْت الماء: أي أفرغته إفراغاً شديداً: قال أبو عمرو: والدَّهَق ـ بالتحريك: ضرب من العذاب. وهو بالفارسية أَشْكَنْجَهْ. المبرد: والمدهوق: المعذَّب بجميع العذاب الذي لا فُرجة فيه. ابن الأعرابي: دَهَقْت الشيء كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقْته، وأنشد لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِق بَضْعَ اللحم لِلباعِ والندَى وبعضهُم تغلي بذمٍّ مَناقِعُه[1]

ودَهْمَقته بزيادة الميم: مثله. وقال الأصمعي: الدهمقة: لِين الطعام وطِيبهُ ورِقته، وكذلك كل شيء ليّن؛ ومنه حديث عمر: لو شئت أن يدُهْمَقَ لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح؛ ومنه الحديث:

[٦٢٣٢] «إذا قلت لصاحبك أنصِت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوْت» وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو؛ بخلاف أهل الدنيا. «ولا كِذّاباً»: تقدم، أي لا يُكَذِّب بعضهم بعضاً، ولا يسمعون كذباً. وقرأ الكسائي «كِذَاباً» بالتخفيف من كَذَبْت كِذَاباً أي لا يتكاذَبُون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنما خففها ها هنا لأنها ليست مقيَّدة بفعل يصير مصدراً له، وشدّد قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ لأن كذبوا يقيد المصدر بالكذَّاب. ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ نصب على المصدر. لأن المعنى جزاهم بما تقدّم ذكرُه، جَزَاءَه وكذلك ﴿عَطَاءً﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي أعطاهم عطاء. ﴿حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي كثيراً؛ قاله قتادة؛ يقال: أَحْسَبْت فلاناً: أي كَثَّرت له العطاء حتى قاله حَسْبِي. قال:[2]

ونُقْفِي[3] ولِيدَ الحيِّ إن كان جائِعاً ونُحْسِبُهُ إن كانَ ليس بِجائِعِ

وقال القُتَبِيّ: ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبِي. وقال الزجاج: «حِساباً»

[٦٢٣٢] تقدم في سورة الجمعة.

---

(١) المناقع: القدور الصغار.

(٢) بل قائلته امرأة من بني قشير.

(٣) نقفيه: أي نؤثره بالقفية، وهي ما يؤثر به الضيف والصبي.

أي ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أَحسبني كذا: أي كَفاني. وقال الكلبيّ: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً. مجاهد: حساباً لما عملوا، فالحساب بمعنى العدّ. أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم بسبعمائة ضِعْف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مِقدار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]. وقرأ أبو هاشم «عَطاء حَسَّاباً» بفتح الحاء، وتشديد السين، على وزن فَعَّال أي كَفافاً؛ قال الأصمعيّ: تقول العرب: حَسَّبْت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته؛ وأنشد قول الشاعر:

* إذا أتـاهُ ضيفُـه يُحسِّبـهْ *

وقرأ ٱبن عباس «حساناً» بالنون.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: قرأ ٱبن مسعود ونافع وأبو عمرو وٱبن كثير وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبره. أو بمعنى: هو رب السموات، ويكون «الرحمن» مبتدأ ثانياً. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب وٱبن محيصن كلاهما بالخفض، نعتاً لقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي جزاء من ربك رب السموات الرحمنِ. وقرأ ٱبن عباس وعاصم وحمزة والكسائي: «رَبِّ السموات» خفضاً على النعت، «الرحمن» رفعاً على الابتداء، أي هو الرحمن. وٱختاره أبو عُبيد وقال: هذا أَعدلُها؛ خفض «رَبِّ» لقربه من قوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فيكون نعتاً له، ورفع «الرحمن» لبعده منه، على الاستئناف، وخبرهُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾ أي لا يملكون أن يسألوه إلاّ فيما أَذِن لهم فيه. وقال الكسائي: «لا يملِكون مِنه خِطابا» بالشفاعة إلا بإذنه. وقيل: الخطاب: الكلام؛ أي لا يملكون أن يخاطبوا الربَّ سبحانه إلا بإذْنه؛ دليله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]. وقيل: أراد الكفار «لا يملِكُون منه خِطاباً»، فأمّا المؤمنون فيَشْفَعُون.

قلت: بعد أن يُؤْذن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩﴾ [طه: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ «يومَ» نصب على الظرف؛ أي يوم لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقوم الروح. وٱختلف في الروح على أقوال ثمانية: الأوّل ـ أنه مَلَك من الملائكة. قال ٱبن عباس: ما خلق الله مخلوقاً بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفّاً، وقامت الملائكة كلهم صفّاً، فيكون عِظَمُ خَلْقه مثل صفوفهم. ونحو منه عن ٱبن مسعود[1]؛ قال: الروح ملك أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال. وهو حِيال السماء الرابعة، يسبحُ اللَّهَ كل يوم ٱثنتي عشرة ألفَ تسبيحة؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً، فيجيء يوم القيامة وحده صفّاً، وسائر الملائكة صَفاً. الثاني ـ أنه جبريل عليه السلام. قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير. وعن ٱبن عباس: إن عن يمين العرش نَهْراً من نور، مثلَ السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبعة، يَدْخل جبريل كل يوم فيه سحراً فيغتسل، فيزداد نوراً على نوره، وجمالاً على جماله، وعظماً على عظمه، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه سبعين ألفَ مَلَك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً البيت المعمور، والكعبة سبعون ألفاً لا يعودُون إليهما إلى يوم القيامة. وقال وهب: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى تَرعَدَ فرائصُه؛ يخلق الله تعالى من كل رَعدة مائة ألف مَلَك، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رؤوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت؛ وهو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ في الكلام «وقال صواباً» يعني قول: «لا إله إلا أنت». والثالث ـ روى ٱبن عباس عن النبيّ ﷺ أنه قال:

[٦٢٣٣] «الرُّوح في هذه الآية جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكة، لهم رُؤوس وأيد وأرجل، يأكلون الطعام». ثم قرأ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾، فإن هؤلاء جُند، وهؤلاء جُند. وهذا قول أبي صالح ومجاهد. وعلى هذا هم خَلْق على صورة بني آدم، كالناس وليسوا بناس. الرابع ـ أنهم أشراف الملائكة؛ قاله مقاتل بن حَيّان. الخامس ـ أنهم حَفَظَة على الملائكة؛ قاله ٱبن أبي نجيح. السادس ـ أنهم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. فالمعنى ذوو الروح. وقال العَوْفي والقُرَظيّ: هذا مما كان يكتمه ٱبن عباس؛

[٦٢٣٣] باطل. أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٤١٢ من حديث ابن عباس، وفي إسناده مجاهيل والمتن منكر، ولو صح لما اختلف المفسرون في معنىٰ الروح في هذه الآية والصواب أنه جبريل. راجع تفسير ابن كثير ٤/٤٩٦.

---

(١) هذا الأثر وأشباهه لا يصح عن ابن مسعود وإنما هو من الإسرائيليات.

قال: الرُّوح: خلق من خلق الله على صور بني آدم، وما نَزَلَ مَلَك من السماء إلا ومعه واحد من الرُّوح. السابع ـ أرواح بني آدم تقوم صَفًّا، فتقوم الملائكة صفّاً، وذلك بين النفختين، قبل أن تردّ إلى الأجساد؛ قاله عَطية. الثامن ـ أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم، وقرأ «وكذلك أوحَيْنا إليك رُوحاً مِن أمرِنا». و«صفًّا»: مصدر أي يقومون صُفوفاً. والمصدر ينبيء عن الواحد والجمع، كالعدل والصوم. ويقال ليوم العيد: يوم الصف. وقال في موضع آخر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] هذا يدل على الصفوف، وهذا حينَ العرض والحساب. قال معناه القُتَبيُّ وغيره. وقيل: يقوم الروح صفاً، والملائكة صفاً، فهم صفان. وقيل: يقوم الكل صفاً واحداً. ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي لا يشفَعون ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ يعني حقًّا؛ قاله الضحاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: يَشفعون لمن قال لا إله إلا الله. وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة. وقيل: «لا يتكلمون» يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفاً، لا يتكلمون هيبة وإجلالاً «إلا من أذِن له الرحمنُ» في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا، وأنهم يوحّدون الله تعالى ويسبحونه. وقال الحسن: إن الرُّوح يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الكائن الواقع ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح؛ كأنه إذا عمل خيراً ردّه إلى الله عز وجل، وإذا عمل شراً عده منه. ويَنْظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «والخير كله بيديك، والشر ليس إليك»[1]. وقال قتادة: «مآباً»: سبيلاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾: يخاطب كفار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وقد قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦] قال معناه الكلبي وغيره. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين. قال مقاتل: هي قتلُ قريش ببدْر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مَقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْي والهوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] بيَّن وقت ذلك العذاب؛ أي

(١) تقدم تخريجه.

أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، أي يـراه، وقيل: ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى. والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن؛ أي يجد لنفسه عملاً، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تراباً. ولما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ [النبأ: ٤٠] علم أنه أراد بالمرء المؤمن. وقيل: المرء ها هنا: أبيّ بن خلف وعُقْبة بن أبي مُعَيط. «ويقول الكافِر» أبو جهل. وقيل: هو عام في كل أحد وإنسان يَرَى في ذلك اليوم جزاء ما كَسَب. وقال مُقاتل: نزل قوله «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه» في أبي سَلَمة بن عبد الأسَد المخزوميّ ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾: في أخيه الأسود بن عبد الأسد. وقال الثعلبيّ: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافر: ها هنا إبليس، وذلك أنه عاب آدم بأنه خُلِق من تراب، وٱفتخر بأنه خُلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه يكون بمكان آدم، فـ «يقول يا ليتنِي كنت ترابا» قال: ورأيته في بعض التفاسير للقُشَيري أبي نصر. وقيل: أي يقول إبليس يا ليتني خُلِقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم. وعن ٱبن عمر[1]: إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرض مَدَّ الادِيم، وحُشِر الدوابُّ والبهائم والوحوش، ثم يوضعُ القِصاص بين البهائم، حتى يُقْتَص للشاة الجمَّاء من الشاة القَرْناء بنطحتها، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾. ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، مجوداً والحمد لله. ذكر أبو جعفر النّحاس: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال حدثنا سَلَمة بن شبيب، قال حدثنا عبد الرازق، قال حدثنا مَعْمر، قال أخبرني جعفر بن بَرْقان الجَزَريّ، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال[1]: إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير كوني تراباً، فعند ذلك «يقول الكافر: يا ليتني كنتُ تُرابا». وقال قوم: «يا ليتنِي كنت ترابا»: أي لم أبعث، كما قال: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾. [الحاقة: ٢٥] وقال أبو الزّناد: إذا قُضِي بين الناس، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهلِ النار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ: عودُوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم «ياليتني كنت تراباً». وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجنّ يعودون تراباً. وقال عمر بن عبد العزيز والزهريّ والكلبيّ ومجاهد: مؤمنو الجِنةِ حول الجنة في رَبَضٍ ورِحاب وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة «الرحمن» بيان هذا، وأنهم مكلّفون: يُثابون ويعاقبون، فهم كبني آدم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) وقد ورد مرفوعاً بنحوه وقد تقدم.

سورة النازعات

مكية باجماع. وهي خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾: أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، على أن القيامة حقٌّ. و «النازعاتِ»: الملائكة التي تنزع أرواحَ الكفار؛ قاله عليّ رضي الله عنه، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد: هي الملائكة تَنْزِع نفوس بني آدم. قال ابن مسعود: يريد أنفسَ الكُفار يَنْزِعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نَزْعاً كالسَّفُّود[1] يُنزَع من الصُّوف الرَّطْب، ثم يغرِقها، أي يرجعها في أجسادهم، ثم ينزِعها؛ فهذا عمله بالكفار. وقاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: نُزِعت أرواحهم، ثم غرقت، ثم حُرِقت؛ ثم قُذِف بها في النار. وقيل: يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنها تغرَق. وقال السُّدِّيّ: و «النازِعاتِ» هي النفوس حين تَغْرَقُ في الصدور. مجاهد: هي الموت ينزِع النفوس. الحسن وقتادة: هي النجومُ تنزِع من أفق إلى أفق؛ أي تذهب، من قولهم: نَزَع إليه أي ذهب، أو من قولهم: نَزَعَت الخيل أي جرت. ﴿غَرْقًا ﴿١﴾﴾ أي إنها تغرقَ وتغيب وتطلُع من أفق إلى أفق آخر. وقاله أبو عُبيدة وابن كَيسان والأخفش. وقيل: النازعات القِسِيّ تنزع بالسّهام؛ قاله عطاء وعِكْرمة. و «غَرْقا» بمعنى إغراقاً؛ وإغراق النازع في القوس أن يبلغ غاية المدّ، حتى ينتهي إلى النصل. يقال: أغرق في القوس أي استوفى مدّها، وذلك بأن تنتهي إلى العَقَب الذي عند النصل الملفوف عليه. والاستغراق الاستيعاب. ويقال لقشرة البيضة الداخلة: «غِرقِىء». وقيل: هم الغُزاة الرُّماة.

قلت: هو والذي قبله سواء؛ لأنه إذا أقسم بالقِسِيّ فالمراد النازعون بها تعظيماً لها؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ [العاديات: ١] والله أعلم. وأراد بالإغراق:

(١) السّفّود: حديدة يشوىٰ بها.

المبالغة في النزع وهو سائغ في جميع وجوه تأويلها. وقيل: هي الوحش تنزع من الكلأ وتنفر. حكاه يحيى بن سلام. ومعنى «غرقا» أي إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ قال ٱبن عباس: يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن، فتقبضها كما يُنْشَط العِقال من يد البعير: إذا حُلَّ عنه. وحكى هذا القول الفراء ثم قال: والذي سمعت من العرب أن يقولوا أُنشِطت وكأنما أُنشِط من عِقال. ورَبْطها نَشْطُها والرابط الناشط، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نَشطْته، فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت مُنْشِط. وعن ٱبن عباس أيضاً: هي أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشَط للخروج؛ وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا وتُعرض عليه الجنة قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يدعونه إليها، فنفسه إليهم نشطَة أن تخرج فتأتيهم. وعنه أيضاً قال: يعني أنفس الكفار والمنافقين تنْشط كما ينشَط العقب، الذي يعقب به السهم. والعقَب بالتحريك: العصب الذي تعمل منه الأوتار، الواحدة عَقَبة؛ تقول منه: عَقَبَ السهم والقدح والقوس عَقْباً: إذا لوى شيئاً منه عليه. والنشط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة: عقدة يسهل ٱنحلالها إذا جذِبت مثل عقدة التكة. وقال أبو زيد: نشطت الحبل أَنشِطه نَشْطاً: عقدته بأنشوطة، وأَنشطته أي حللته، وأَنشطْت الحبل أي مددته حتى ينحلّ. وقال الفراء: أُنشِط العقال أي حُلّ، ونُشِط: أي رَبط الحبل في يديه. وقال الليث: أنشطته بأُنشوطة وأُنشوطتين أي أوثقته، وأَنشطت العِقال: أي مددت أُنشوطته فٱنحلت. قال: ويقال نشط بمعنى أنشط، لغتان بمعنى؛ وعليه يصح قول ٱبن عباس المذكور أوّلاً. وعنه أيضاً: الناشطات الملائكة لنشاطها، تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان. وعنه أيضاً وعن عليّ رضي الله عنهما: هي الملائكة تنشِط أرواح الكفار، ما بين الجلد والأظفار، حتى تخرجها من أجوافهم نَشْطاً بالكَرْب والغمّ، كما تَنْشِط الصوف من سَفُّود الحديد، وهي من النَّشْط بمعنى الجذب؛ يقال: نَشَطْت الدلو أَنشِطُها بالكسر، وأَنشُطها بالضم: أي نزعتها. قال الأصمعي: بئر أنشاط: أي قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة. وبئر نَشوط؛ قال: وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى تُنْشَط كثيراً. وقال مجاهد: هو الموت يَنْشِط نفس الإنسان. السُّدي: هي النفوس حين تنشِط من القدمين. وقيل: النازعات: أيدي الغُزاة أو أنفسهم، تنزع القِسِيّ بإغراق السهام، وهي التي تَنْشِط الأوهاق[1]. عِكرمة وعطاء: هي الأوهاق تَنْشِط السهام. وعن عطاء أيضاً وقتادة والحسن والأخفش: هي النجوم تنشِط من أفق إلى

(١) الأوهاق: جمع وهق، الحبل تشد به الإبل والخيل لئلا تند.

أفق: أي تذهب. وكذا في الصحاح. «والناشِطاتِ نشطا» يعني النجوم من بُرْج إلى برج، كالثور الناشط من بلد إلى بلد. والهموم تنشِط بصاحبها؛ قال هِميان بن قُحافة:

أَمْسَت همومِي تنشِط المناشِطَا   الشامَ بِي طوراً وطوراً واسِطَا

أبو عبيدة وعطاء أيضاً: الناشطات: هي الوحش حين تنشِطُ من بلد إلى بلد، كما أن الهموم تنشِطُ الإنسان من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان:

* أمست همومي... * البيت

وقيل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ للكافرين ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ للمؤمنين، فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق، والنزع جذب بشدة، والنشط جذب بِرِفق. وقيل: هما جميعاً للكفار والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾ قال عليّ رضي الله عنه: هي الملائكة تسبَح بأرواح المؤمنين. الكلبي: هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، كالذي يسبح في الماء، فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع، يُسلونها سَلاًّ رفيقاً بسهولة، ثم يدعونها حتى تستريح. وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله؛ كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع في جريه. وعن مجاهد أيضاً: الملائكة تسبح في نزولها وصعودها. وعنه أيضاً: السابحات: الموت يسبح في أنفس بني آدم. وقيل: هي الخيل الغزاة؛ قال عنترة:

والخيلُ تعلَمُ حين تَسْـ   ـبَحُ في حِياضِ الموت سَبْحا

وقال أمرؤ القيس:

مِسَحَّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى   أَثَرْنَ غُباراً بالكَديد المُرَكَّلِ[1]

قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، وكذا الشمس والقمر؛ قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣]. عطاء: هي السُّفن تسبح في الماء. أبن عباس: السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج.

قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ قال عليّ رضي الله عنه: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروق ومجاهد. وعن مجاهد أيضاً وأبي رَوْق: هي الملائكة سبقت أبن آدم بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه. وعن مجاهد أيضاً: الموت يسبق الإنسان. مقاتل: هي الملائكة

---

(١) مِسح: سريع الجري. الونى: الفتور. الكديد: الموضع الغليظ. المركل: الذي يركل بالأرجل.

تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. ٱبن مسعود: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقْبضونها وقد عاينت السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوس تسبق بالخروج عند الموت. وقال قتادة والحسن ومعمر: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير. عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. وقيل: يحتمل أن تكون السابقات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار؛ قاله الماوردي. وقال الجُرجانيّ: ذكر «فالسابقات» بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها؛ أي واللائي يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت: قام وذهب، لم يكن القيام سبباً للذهاب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ قال القُشَيريّ: أجمعوا على أن المراد الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: أحدهما الملائكة؛ قاله الجمهور. والقول الثاني هي الكواكب السبعة. حكاه خالد بن مَعْدان عن مُعاذ بن جبل. وفي تدبيرها الأمر وجهان: أحدهما تدبير طلوعها وأفولها. الثاني تدبيرها ما قضاه الله تعالى فيها من تقلّب الأحوال. وحكىٰ هذا القول أيضاً القشيري في تفسيره، وأن الله تعالى علّق كثيراً من تدبير أمر العالم بحركات النجوم، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله، كما يسمى الشيء باسم ما يجاوره. وعلى أن المراد بالمدبِّرات الملائكة، فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله؛ قاله ٱبن عباس وقتادة وغيرهما. وهو إلى الله جل ثناؤه، ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك؛ كما قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] يعني جبريل نزله على قلب محمد ﷺ، والله عز وجل هو الذي أنزله. وروى عطاء عن ٱبن عباس: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾: الملائكة وُكِّلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك. قال عبد الرحمن بن سابطٍ: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة؛ جبريل وميكائيل وملك الموت وٱسمه عزرائيل - وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقَطْر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس في البر والبحر، وأما إسرافيل فهو يتنزل بالأمر عليهم، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل، وبينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام. وقيل: أي وُكّلوا بأمور عرَّفهم الله بها. ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لنا ذلك إلا به عز وجل. وجواب القسم مضمر، كأنه قال: والنازعات وكذا وكذا لَتُبعَثُنّ ولتحاسَبُن. أضمر لمعرفة السامعين بالمعنى؛ قاله الفراء. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ ألست ترى أنه

كالجواب لقولهم: «أئِذا كنا عِظاما نَخِرةً» نُبْعَث؟ فاكتفى بقوله: «ائِذا كنا عِظاماً نخِرةً»؟ وقال قوم: وقع القسم على قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا ٱختيار التِّرمذي ابن عليّ[1]. أي فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون «لعِبرة لمِن يخشى» ولكنّ وَقْع القسم على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أَحْرى وأقمن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيما قال ٱبن الأنباريّ: وهذا قبيح، لأن الكلام قد طال فيما بينهما. وقيل: جواب القسم «هل أتاك حدِيث موسى» لأن المعنى قد أتاك. وقيل: الجواب ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ على تقدير ليَوم ترجُف، فحذف اللام. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره يوم ترجُف الراجفة وتتبعها الرادفة والنازعات غرقاً. وقال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعات. ٱبن الأنباريّ: وهذا خطأ؛ لأن الفاء لا يُفْتح بها الكلام، والأوّل الوجْه. وقيل: إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجفّ، وأبصارهم تخشع، فانتصاب «يومَ ترجُف الراجفة» على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه. قال الزجاج: أي قلوب واجفة يوم ترجُف. وقيل: ٱنتصب بإضمار ٱذكر. و«ترجُف» أي تضطرب. والراجفة: أي المضطربة كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرض، والرادِفة الساعة. مجاهد: الراجفة الزلزلة ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ الصيْحة. وعنه أيضاً وٱبن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي النفختان. أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى. وجاء في الحديث عن النبيّ ﷺ قال: «بينهما أربعون سنة»[2] وقال مجاهد أيضاً: الرادفة حين تنشق السماء وتُحمل الأرضُ والجبال فتدك دكة واحدة، وذلك بعد الزلزلة. وقيل: «الراجفة تَحرُّك الأرض، والرادفة زلزلة أخرى تفني الأَرَضين». فالله أعلم. وقد مضى في آخر «النمل» ما فيه كفاية في النفخ في الصور. وأصل الرجفة الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ وليست الرجفة ها هنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعد يرجُف رَجْفاً ورَجيفاً: أي أظهر الصوتَ والحركةَ، ومنه سميت الأراجيف، لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس فيها؛ قال[3]:

أبِالأراجِيف يا بن اللومِ تُوعِدنِي ... وفِي الأَرَاجِيف خِلتُ اللؤمَ والخورَا

وعن أُبيّ بن كعب:

(١) هو الحكيم صاحب نوادر الأصول. واسمه محمد.

(٢) هو عند مسلم ٢٩٥٥ وتقدم.

(٣) قائله: منازل بن ربيعة. والرواية المشهورة للبيت «أبا الأراجيز».

[٦٢٣٤] أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال: «يأيها الناس أذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي خائفة وجلة؛ قاله ابن عباس وعليه عامة المفسرين. وقال السُّدّي: زائلة عن أماكنها. نظيره ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾. [غافر: ١٨] وقال المؤرِّج: قلقة مُسْتَوْفِزة، مرتكضة(١) غير ساكنة. وقال المبرد: مضطربة. والمعنى متقارب، والمراد قلوب الكفار؛ يقال وَجَفَ القلب يجِف وجِيفا إذا خَفَق، كما يقال: وجَب يَجِب وَجيبا، ومنه وجيف الفرس والناقة في العدو، والإيجاف حمل الدابة على السير السريع، قال:

بُــدِّلْــنَ بعــد جــرةٍ صَــرِيفَــا وبعــد طــولِ النَّفَــسِ الــوجِيفــا

و«قلوب» رفع بالابتداء و «واجفة» صفتها. و ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ خبرها؛ مثل قوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] ومعنى «خاشِعة» منكسرة ذليلة من هول ما ترى. نظيره: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣] والمعنى أبصار أصحابها، فحذف المضاف. ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ أي يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩] يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، أي رجع من حيث جاء؛ قاله قتادة. وأنشد ابن الأعرابي:

أحــافِــرةً علــى صَلَــعٍ وشَيْــبٍ مَعَــاذ اللَّــهِ مِــن سَفَــهٍ وعــارِ

يقول: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبت وصَلِعت! ويقال: رجع على حافرته: أي الطريق الذي جاء منه. وقولهم في المثل: النقدُ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أوّل كلمة. ويقال: التقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة. أي

[٦٢٣٤] ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٤٥٧ وأحمد ١٣٦/٥ والطبري ٣٦٢٠٤ من حديث أبي بن كعب، وقال الترمذي: حسن صحيح! مع أن مداره علىٰ عبد الله بن محمد بن عقيل وهو لين الحديث وتغير بأخرة ولذا اضطرب فيه ففي رواية «إذا ذهب ربع الليل» ورواية الترمذي «إذا ذهب ثلثا الليل» وهو مطول عند الترمذي ولفظ أحمد «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة. جاء الموت بما فيه» ورواية الطبري: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة﴾ فقال: جاءت الراجفة تتبعها الرادفة. جاء الموت بما فيه» اهـ وليس فيه ذكر قيامه من الليل ولا عند أحمد فهذا اضطراب في المتن في أربعة مواضع ذكرتها لك تدل علىٰ وهن الحديث ولو صح أنه يقوم في الليل فيقول ذلك لكان الذي يسمعه أزواجه أولاً والله أعلم.

---

(١) مرتكضة: مضطربة.

عند أوّل ما ٱلتقوا. وقيل: الحافرة العاجلة؛ أي أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟ قال الشاعر:

آليـتُ لا أنسـاكُـمُ فـٱعلَمـوا حَتَّـى يُـردَّ النـاسُ فـي الحـافِـرهْ

وقيل: الحافرة: الأرض التي تُحْفَر فيها قبورُهم، فهي بمعنى المحفورة؛ كقوله تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٦] و ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة: ٢١]. والمعنى أئنا لمردودون في قبورنا أَحْياء. قاله مجاهد والخليل والفرّاء. وقيل: سميت الأرض الحافرة؛ لأنها مستقرّ الحوافر، كما سميت القدم أرضاً؛ لأنها على الأرض. والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشِي على أقدامنا. وقال ٱبن زيد: الحافرة: النار، وقرأ ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾. وقال مقاتل وزيد بن أسلم: هي ٱسم من أسماء النار. وقال ٱبن عباس: الحافِرة في كلام العرب: الدنيا. وقرأ أبو حَيْوة: «الحَفِرة» بغير ألف، مقصور من الحافر. وقيل: الحفِرة: الأرض المنتنة بأجساد موتاها؛ من قولهم: حَفِرت أسنانُه، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها. يقال: في أسنانه حَفَر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْرا، مثل كسر[1] يكسِر كسراً، إذا فسدت أصولها. وبنو أسد يقولون: في أسنانه حَفَر بالتحريك. وقد حفِرت مثال تعِب تعبا، وهي أردأ اللغتين؛ قاله في الصحاح. ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ أي بالية متفتّتةً. يقال: نخِرَ العظم بالكسر: أي بلِي وتفتت؛ يقال: عظام نخِرة. وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة، وٱختاره أبو عُبيد؛ لأن الآثار التي تذكر فيها العظام، نظرنا فيها فرأينا نخِرة لا ناخرة. وقرأ أبو عمرو وٱبنه عبد الله وٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر «ناخِرة» بألف، وٱختاره الفرّاء والطَّبريّ وأبو معاذ النحويّ؛ لِوِفاق رؤوس الآي. وفي الصحاح: والناخِر من العظام التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير. ويقال: ما بها ناخر، أي ما بها أحد. حكاه يعقوب عن الباهليّ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التي لم تنخر بعد، أي لم تبل ولا بدّ أن تنخر. وقيل: الناخر المُجَوَّفة. وقيل: هما لغتان بمعنى؛ كذلك تقول العرب: نخِر الشيء فهو نخِر وناخِر؛ كقولهم: طمِع فهو طمِع وطامِع، وحذِرٌ وحاذِر، وبخِلٌ وباخِل، وفَرِه وفارِه؛ قال الشاعر:

يظَلّ بِها الشيخُ الذِي كان بادِنا يَـدِب علـى عُـوجٍ لـه نَخِـراتِ

عُوج: يعني قوائم. وفي بعض التفسير: ناخرة بالألف: بالِية؛ ونخِرة: تنخر فيها الريح أي تمر فيها، على عكس الأوّل؛ قال[2]:

(١) لعل الصواب «كسرت تكسر كسراً، أو يكون ما قبله «حفر يحفر حفراً».
(٢) قائله: الهمداني، يوم القادسية.

وقال بعضهم: الناخرة: التي أُكِلت أطرافها وبقيت أوساطها. والنخرة: التي فسدت كلها. قال مجاهد: نخرة أي مرفوتة؛ كما قال تعالى: ﴿عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ ونُخْرة الريح بالضم: شدّة هبوبها. والنُّخْرة أيضاً والنُّخَرة مثال الهُمَزة: مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير؛ يقال: هشم نُخْرَته: أي أنفه. ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي رَجْعة خائبة، كاذبة باطلة، أي ليست كائبه؛ قاله الحسن وغيره. الربيع بن أنس: «خاسِرة» على من كذب بها. وقيل: أي هي كرة خُسران. والمعنى أهلها خاسرون؛ كما يقال: تجارة رابحة أي يربح صاحبها. ولا شيء أخسر من كَرَّة تقتضي المصير إلى النار. وقال قتادة ومحمد بن كعب: أي لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنحْشَرَنّ بالنار، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار. والكر: الرجوع؛ يقال: كره، وكر بنفسه، يتعدى ولا يتعدى. والكرة: المرة، والجمع الكرات. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال: «فإنما هِي زَجْرة واحدة». ورَوى الضحاك عن ٱبن عباس قال: نفخة واحدة ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي الخلائق أجمعون ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي على وجه الأرض، بعد ما كانوا في بطنها. قال الفرّاء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نَوم الحيوان وسهرهم. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهِرة، بمعنى ذاتِ سَهَر؛ لأنه يُسْهَر فيها خوفاً منها، فوصفها بصفة ما فيها؛ وٱستدل ٱبن عباس والمفسرون بقول أمية بن أبي الصَّلْت:

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبحرٌ ... وما فاهوا بِهِ لَهمُ مُقِيمُ

وقال آخر[1] يوم ذي قارٍ لفرسه:

أَقدم مَحَاجِ إنها الأساوِرهْ ... ولا يَهُولَنَّكَ رِجْل نادِرهْ

فإنما قَصْرُكَ تُربُ الساهِرهْ ... ثم تعودُ بعدَها في الحافِرهْ

* مِن بعدِ ما صِرت عِظاما ناخِرَهْ *

وفي الصحاح. ويقال: الساهور: ظِل الساهِرة، وهي وجه الأرض. ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا هُمْ بِالساهِرةِ﴾، قال أبو كبير الهذليّ:

يَرتَدْنَ ساهِرةً كأَنّ جميمَها ... وعمِيمَها أَسْداف ليلٍ مُظلِم[2]

---

(١) هو الهمداني، ومحاج: اسم فرس الشاعر.

(٢) الجميم: النبت الذي قد نبت وارتفع قليلاً، ولم يتم كل التمام. العميم: المكتمل التام من النبت. والأسداف: ظلمة الليل.

ويقال: الساهور: كالغِلاف للقمر يدخُل فيه إذا كُسِف، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصَّلْت:

* قَمـر وساهورٌ يُسَـلّ ويُغْمَـدُ *

وأنشدوا لآخَر في وصف آمرأة:

كـأنهـا عِـرقُ سـامٍ عِنـد ضـارِبِـهِ أَوْ شُقةٌ خرجَتْ مِن جوفِ ساهورِ

يريد شُقَّة القمر. وقيل: الساهرة: هي الأرض البيضاء. ورَوى الضحاك عن ابن عباس قال: أرض من فِضة لم يعص الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ. وقيل: أرض جددها الله يوم القيامة. وقيل: الساهرة آسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض. وقال الثوري: الساهرة: أرض الشام. وهب بن منبه: جبل بيت المقدس. عثمان بن أبي العاتكة: إنه آسم مكان من الأرض بعينه بالشام، وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان يمده الله كيف يشاء. قتادة: هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم. وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ. وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم؛ أي يوقفون بأرض القيامة، فيدوم السهر حينئذ. ويقال: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية سميت، بذلك، لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة: جارية الماء، وفي ضدها: نائمة؛ قال الأشعث بن قيس:

وسـاهـرة يُضْحِـي السـرابُ مُجَلِّلاً لِأَقطـارِهـا قـد جئْتُهـا متلثِّمـا

أو لأن سالكها لا ينام خَوف الهَلَكة.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ (٢٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)﴾ أي قد جاءك وبلغك «حديث موسى» وهذا تسلية للنبي ﷺ. أي إن فرعون كان أقوى من كفار عصرك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: «هل» بمعنى «ما» أي ما أتاك، ولكن أُخبرت به، فإن فيه عِبرةً لمن يخشَى. وقد مضى من خبر موسى وفرعونَ في غير موضع ما فيه كفاية. وفي «طُوًى» ثلاث قراءات: قرأ آبن محيصن وآبن عامر والكوفيون «طُوى» منونا وآختاره أبو عبيد لخفة الاسم. الباقون بغير تنوين؛ لأنه معدول مثل عُمر وقُثَم؛ قال الفرّاء:

طوَى: واد بين المدينة ومصر. قال: وهو معدول عن طاوٍ، كما عدل عمر عن عامر. وقرأ الحسن وعِكرمة «طِوَى» بكسر الطاء، ورُوي عن أبي عمْرو، على معنى المُقَدَّس مرة بعد مرة؛ قاله الزَّجاج؛ وأنشد[1]:

أَعَـاذِلَ إنّ اللـوم فـي غيـرِ كنهِـهِ ... علـيَّ طِـوَى مِـن غَيّـكِ المتـردِّدِ

أي هو لوم مكرر عليّ. وقيل: ضم الطاء وكسرها لغتان، وقد مضى في «طه» القول فيه. ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي ناداه ربه، فحذف، لأن النداء قول؛ فكأنه؛ قال له ربه ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي جاوز القدر في العصيان. ورُوي عن الحسن قال: كان فرعون عِلْجا من هَمْدان. وعن مجاهد قال: كان من أهل إصطَخر. وعن الحسن أيضاً قال: من أهل أَصْبهان، يقال له ذو ظفر، طوله أربعة أشبار. ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي تسلِم فتطهرَ من الذنوب. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي وأُرشدك إلى طاعة ربك ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ أي تخافه وتتقيه. وقرأ نافع وٱبن كثير «تَزَّكَّى» بتشديد الزاي، على إدغام التاء في الزاي لأن أصلها تتزكى. الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيف الزاي على معنى طرح التاء. وقال أبو عمرو: «تَزَّكَّى» بالتشديد تَتَصَدَّق بـالصدقة، و «تَزَكّى» يكون زكياً مؤمناً. وإنما دعا فرعون لِيكون زكياً مؤمناً. قال: فلهذا ٱخترنا التخفيف. وقال صخر بن جُوَيْرية: لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له: «ٱذهب إلى فِرعون» إلى قوله ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ ولن يفعل؛ فقال: يا رب، وكيف أذهب إليه وقد علمتَ أنه لا يفعل؟ فأوحى الله إليه أن ٱمض إلى ما أمرتك به، فإن في السماء ٱثني عشر ألف ملَك يطلبون علم القَدر، فلم يبلغوه وَلا يدركوه. ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي العلامة العُظْمَى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تَبرُق كالشمس. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: الآية الكبرى قال العصا. الحسن: يده وعصاه. وقيل: فَلْق البحر. وقيل: الآية: إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته. ﴿فَكَذَّبَ﴾ أي كذب نبيّ الله موسى ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي عصى ربه عز وجل. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي ولى مدْبراً معرِضاً عن الإيمان «يسعَى» أي يعمل بالفساد في الأرض. وقيل: يعمل في نكاية موسى. وقيل: «أدبر يسعَى» هارباً من الحية. ﴿فَحَشَرَ﴾ أي جمع أصحابه ليمنعوه منها. وقيل: جمع جنوده للقتال والمحاربة، والسَّحَرة للمعارضة. وقيل: حشر الناس للحضور. ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أي قال لهم بصوت عال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي لا رب لكم فوقي. ويروَى: إن إبليس تصور لفرعون في صورة

(١) قائله: عدي بن زيد.

الإنس بمصر في الحمام، فأنكره فرعون، فقال له إبليس: ويْحَك! أما تعرفني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ ألست القائل أنا ربُّكم الأعلَى. ذكره الثعلبيّ في كتاب العرائس. وقال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها، فقال أنا رب أصنامكم. وقيل: أراد القادة والسادةَ، هو ربهم، وأولئك هم أرباب السَّفلة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر؛ لأن النداء يكون قبل الحشر. ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ أي نكال قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وقوله بعد: «أنا ربكم الأعلَى» قاله ٱبن عباس ومجاهد وعِكرمة. وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ٱبن عباس. والمعنى: أمهله في الأولى، ثم أخذه في الآخرة، فعذبه بكلمتيه. وقيل: نكالُ الأولى: هو أن أغرقه، ونكال الآخرة: العذابُ في الآخرة. وقاله قتادة وغيره. وقال مجاهد: هو عذاب أوّل عمره وآخره. وقيل: الآخرة قوله «أنا ربكم الأعلَى» والأولى تكذيبه لموسى. عن قتادة أيضاً. و «نكالَ» منصوب على المصدر المؤكّد في قول الزَّجاج؛ لأن معنى أخذه الله: نكَّل الله به، فأخرج نكالَ مكانَ مصدر من معناه، لا من لفظه. وقيل: نصب بنزع حرف الصفة، أي فأخذه الله بنكال الآخرة، فلما نزع الخافض نُصِب. وقال الفرّاء: أي أخذه الله أخذاً نكالاً، أي للنكال. والنكال: ٱسم لما جعل نكالاً للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به. يقال: نكَّل فلان بفلان: إذا أثخنه عقوبة. والكلمة من الامتناع، ومنه النكولُ عن اليمين، والنِّكْل القيد. وقد مضى في سورة «المزمل» والحمد لله. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي ٱعتباراً وعظة. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ أي يخاف الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: يريد أهل مكة، أي أخلقكم بعد الموت أشدّ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾ فمن قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة؛ كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾[يس: ٨١]، فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ. ثم وصف السماء فقال: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي أعلى سقفها في الهواء؛ يقال: سَمَكت الشيءَ أي رفعته في الهواء، وسَمَك الشيءُ سُمُوكاً: ٱرتفع. وقال الفرّاء: كل شيء حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك. وبناء

مَسْمُوك وسَنام سامِك تامِك أي عالٍ، والمسموكات: السَّمَوات. ويقال: أَسْمُك في الدَّيم، أي أصعد في الدرجة.

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ أي خلقها خلقاً مستوياً، لا تفاوت فيه، ولا شُقوق، ولا فُطُور. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلماً؛ غَطِشَ الليلُ وأغطشُه الله؛ كقولك: ظَلِم الليلُ وأظلمه الله. ويقال أيضاً: أغطشَ الليلُ بنفسه، وأغطشه الله؛ كما يقال: أظلَم الليلُ، وأظلمه الله. والغَطَش والغَبَش: الظلمة. ورجل أغطَش: أي أعمى، أو شبيه به، وقد غَطِش، والمرأة غَطْشاء؛ ويقال: ليلة غَطْشاء، وليلٌ أغطش، وفلاة غَطْشَى لا يُهْتَدَى لها؛ قال الأعشى:

ويَهْماءَ بالليلِ غَطشَى الفَلا ... ةِ يؤنِسني صوتُ فَيادِها[1]

وقال الأعشى أيضاً:

عَقَرْتُ لهمْ مَوْهِناً ناقتِي ... وغامِرُهُمْ مدلهِمٌّ غَطِشْ

يعني بغامرهم ليلهم، لأنه غمرهم بسواده. وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضاف إلى السماء؛ ويقال: نجوم الليل، لأن ظهورها بالليل. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ أي أبرز نهارَها وضوءها وشمسها. وأضاف الضُّحا إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها. ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ أي بسطها. وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء. وقد مضى القول فيه في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] مستوفًى. والعرب تقول: دَحَوْت الشيءَ أدحوه دحواً: إذا بسطته. ويقال لعش النعامة أُدحِيّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض. وقال أمية بن أبي الصلت:

وبثَّ الخلقَ فيها إذ دَحاها ... فهُمْ قُطَّانُها حتّى التنادِي

وأنشد المبرّد:

دحاها فلما رآها آستوت ... على الماءِ أرسى عليها الجِبالاَ

وقيل: دحاها سوّاها؛ ومنه قول زيد بن عمرو:

وأَسلمتُ وجهي لمن أَسلمتْ ... له الأرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا

دحاها فلما آستوت شَدَّها ... بأيْدٍ وأرسَى عليها الجِبالا

(١) اليهماء: الفلاة لا يهتدىٰ فيها. الفياد. ذكر البوم.

وعن ابن عباس: خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان، قبل أن يخلق الدنيا بألف عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت. وذكر بعض أهل العلم أنّ «بعد» في موضع «مع» كأنه قال: والأرض مع ذلك دحاها؛ كما قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٣]. ومنه قولهم: أنت أحمق وأنت بعد هذا سَيِّءُ الخلق؛ قال الشاعر:

فقلت لها عَنِّي إليكِ فإنّني حَرَامٌ وإني بعد ذاك لَبيبُ

أي مع ذلك لبيب. وقيل: بعد: بمعنى قبل؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي من قبل الفرقان؛ قال أبو خِرَاش الهذليّ:

حَمدتُ إلهِي بعد عروة إذ نجا خِراشٌ وبعض الشر أهون مِن بعضِ

وزعموا أَن خِراشاً نجا قبل عروة. وقيل: «دحاها»: حرثَها وشقها. قاله ابن زيد. وقيل: دحاها مهّدها للأقوات. والمعنى متقارب. وقراءة العامة «والأَرضَ» بالنصب، أي دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون «والأرض» بالرفع، على الابتداء؛ لرجوع الهاء. ويقال: دحا يدحو دَحْوا ودَحَى يَدْحى دحيا؛ كقولهم: طغَى يطغَى ويطغُو، وطغِيَ يطغى، ومحا يمحو ويمحي، ولَحَى العودَ يلحى ويلحو، فمن قال: يدحو قال دحوت ومن قال يدحي قال دحْيت. ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي أخرج من الأرض ﴿مَاءَهَا﴾ أي العيون المتفجرة بالماء. ﴿وَمَرْعَاهَا ۝٣١﴾ أي النبات الذي يُرْعَى. وقال القُتَبي: دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء. ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢﴾ قراءةُ العامة «والجبالَ» بالنصْب، أي وأرسَى الجبال «أرساها» يعني: أثبتها فيها أوتاداً لها. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم «والجِبالُ» بالرفع على الابتداء. ويقال: هلا أدخل حرف العطف على «أخرج» فيقال: إنه حال بإضمار قد؛ كقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠] ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ أي منفعة لكم. ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٣﴾ من الإبل والبقر والغنم. و «متاعا» نصب على المصدر من غير اللفظ؛ لأن معنى «أخرج مِنها ماءها ومرعاها» أمتع بذلك. وقيل: نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ۝٣٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾ أي الداهية العظمى، وهي النفخة

الثانية، التي يكون معها البعث؛ قاله ٱبن عباس في رواية الضحاك عنه، وهو قول الحسن. وعن ٱبن عباس أيضاً والضحاك: أنها القيامة؛ سميت بذلك لأنها تطِمُّ على كل شيء، فتعم ما سواها لعظم هولها؛ أي تقلبه. وفي أمثالهم:

* جرى الوادِي فَطمَّ على القَرِيِّ[1] *

المبرد: الطامّة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طم الفرس طميماً إذا ٱستفرغ جهده في الجري، وطم الماء إذا ملأ النهر كله. غيره: هي مأخوذة من طمّ السيلُ الرّكِية[2] أي دفنها، والطمّ: الدفن والعلو. وقال القاسم بن الوليد الهمْداني: الطامة الكبرى حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار. وهو معنى قول مجاهد. وقال سفيان: هي الساعة التي يُسْلَم فيها أهل النار إلى الزبانية. أي الداهية التي طَمَّت وعظمت؛ قال:

إن بعض الحبِّ يُعْمِي ويصِمّ وكذاك البغضُ أدْهَى وأَطَمّ

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي ما عمل من خير أو شر. ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ ﴾ أي ظهرت. ﴿ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ قال ٱبن عباس: يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذي بصرَ. وقيل: المراد الكافر لأنه الذي يرى النار بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلَى الكافر بالنار. وجواب «فإذا جاءتِ الطامَّةُ» محذوف أي إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة. وقرأ مالك بن دينار: «وَبَرَزَتِ الجحِيمُ». عِكرمة: وغيره: «لِمن ترى» بالتاء، أي لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. والخطاب له عليه السلام، والمراد به الناس.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ﴾ أي تجاوز الحد في العِصيان. قيل: نزلت في النضْر وٱبنه الحارث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة. وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: من ٱتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طَغى. وروى جُوَيبر عن الضحّاك قال: قال حذيفة: أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون. ويروى أنه وجد في الكتب: إن الله جل ثناؤه قال «لا

(١) القَرِيّ: مجرى الماء في الروضة.
(٢) الركية: البئر، أي جرى سيل الوادي.

يؤثِرُ عبدٌ لي دنياه على آخرته، إلا بثثت عليه همومه وضيعته، ثم لا أبالي في أيّها هلك».

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي مأواه. والألف واللام بدل من الهاء. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي حَذِر مقامه بين يدي ربه. وقال الربيع: مقامه يوم الحساب. وكان قتادة يقول: إن للَّهِ عز وجل مَقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عندَ مواقعة الذنب فيقلع. نظيره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي زجرها عن المعاصي والمحارم. وقال سهل: ترك الهوى مِفتاح الجنة؛ لقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمان يقود الهَوَى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي المنزل. والآيتان نزلتا في مصْعَب بن عُمير وأخيه عامر بن عمير؛ فروَى الضحاك عن ابن عباس قال:

[٦٢٣٥] أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أُسِر يوم بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مُصْعَب بن عُمير، فلم يشدُّوه في الوثاق، وأكرموه، وبيتوه عندهم، فلما أصبحوا حدّثوا مصعَب بن عُمَير حديثه؛ فقال: ما هو لي بأخٍ، شدّوا أسيركم، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً. فأوثقوه حتى بعثت أمّه في فِدائه. «وأما من خاف مقام ربه» فمصْعَب بن عمير، وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أُحد حين تفرّق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص في جوفه. وهي السهام، فلما رآه رسول الله ﷺ متشحِّطاً في دمه قال: «عندَ الله أحتسبك» وقال لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بُردان ما تعرف قِيمتهما وإن شراك نعليه من ذَهب». وقيل: إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامِراً يوم بدر. وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلت هذه الآية في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزوميّ ومصعب بن عمير العبدريّ. وقال السُّدِّي: نزلت هذه الآية «وأما من خاف مقام ربهِ» في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام، وكان يسأله من أين أتيت بهذا، فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله وأكله؛ فقال له غلامه: لِمَ لا تسألني اليوم؟ فقال: نسيت، فمن أين لك هذا الطعام. فقال: تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطَوْنيه. فتقايأه من ساعته وقال: يا رب ما بقي في العروق فأنت حبَسته فنزلت: «وأما من خاف مقام ربهِ». وقال الكلبيّ: نزلت في من هَمّ بمعصية وقدر عليها في خَلْوة ثم تركها من خوف الله. ونحوه عن ابن عباس. يعني من خاف عند المعصية مَقامه بين يدَي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

[٦٢٣٥] الصواب أن الآية عامة، ومثل هذا لا يصح عن ابن عباس، الضحاك لم يلق ابن عباس، وراوية الضحاك هو جويبر بن سعيد، وهو متروك.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾ قال ٱبن عباس: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة ٱستهزاء، فأنزل الله عز وجل الآية. وقال عُروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾؟ لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة، حتى نزلت هذه الآية ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾. ومعنى «مُرْساها» أي قيامُها. قال الفرّاء: رُسُوُّها قيامها كرسوّ السفينةِ. وقال أبو عبيدة: أي منتهاها، ومرسَىٰ السفينة حيث تنتهي. وهو قول ٱبن عباس. الربيع بن أنس: متى زمانها. والمعنى متقارب. وقد مضى في «الأعراف» بيان ذلك. وعن الحسن أن رسول الله ﷺ قال:

[٦٢٣٦] «لا تقوم الساعة إلا بغَضْبة يغضَبُها ربك». «فِيم أنت مِن ذِكراها» أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ وليس لك السؤال عنها. وهذا معنى ما رواه الزُّهْرِيّ عن عُروة بن الزُّبير قال:

[٦٢٣٧] لم يزل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ أي منتهى علمها؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك، فقيل له: لا تسأل، فلست في شيء من ذلك. ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له؛ أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانَه، ولست ممن يَعلَمه. رُوِي معناه عن ٱبن عباس. والذكرَى بمعنى الذكر. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ أي منتهى علمها، فلا يُوجَد عند غيره عِلم الساعة؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾. أي مخوِّف؛ وخَصَّ الإنذار بمن يَخْشى، لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذراً لكل مكلف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿إنما تنذِر منِ ٱتبع الذكر وخشِي الرحمن بِالغيب﴾ [يسٓ: ١١]. وقراءة العامة «منذِر» بالإضافة غير منون؛ طلب التخفيف، وإلا فأصله التنوين؛ لأنه للمستقبل وإنما لا ينون في الماضي. قال الفراء: يجوز التنوين وتركه؛ كقوله تعالى: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣]، و ﴿بَالِغٌ أَمْرَه﴾ و ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

[٦٢٣٦] هذا مرسل، ومراسيل الحسن واهية.

[٦٢٣٧] أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٣٤٩٢ عن عروة به. وأخرجه البزار ٢٢٧٩ والطبري ٣٦٣/١٤ عن عروة عن عائشة به وإسناده صحيح، وكرره الطبري ٣٦٣١٥ عن طارق بن شهاب مرسلاً.

[الانفال: ١٨] و «موهِنٌ كيدَ الكافِرين» والتنوين هو الأصل، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبة والأعرج وابن مُحيصن وحُميد وعياش عن أبي عمرو «منذِرٌ» منونا، وتكون في موضع نصب، والمعنى نصب، إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة. وقال أبو علي: يجوز أن تكون الإضافة للماضي، نحو ضارب زيدٍ أمس؛ لأنه قد فعَلَ الإنذار، الآية ردّ على من قال: أحوال الآخرة غير محسوسةٍ، وإنما هي راحة الرُّوح أو تألمها من غير حِسّ. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني الكفار يَرَونَ الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ أي في دنياهم، ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي قدر عشية ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ أي أو قدر الضُّحا الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [يونس: ٤٥]. ورَوَي الضحاك عن ابن عباس: كأنهم يوم يَرَوْنَها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً. وقيل: «لم يلبثوا» في قبورهم «إلا عشِية أو ضحاها»، وذلك أنهم استقصروا مدّة لَبْثِهِم في القبور لمَا عاينوا من الهول. وقال الفرّاء: يقول القائل: وهل للعشية ضُحاً؟ وإنما الضحا لصدر النَهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب؛ يقولون: آتيك الغداةَ أو عشيتَها، وآتيك العشيةَ أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أوّل النهار؛ قال: وأنشدني بعض بني عُقَيل:

نحنُ صَبَحْنا عامِرا في دارِها ... جُرْداً تَعَادَى طَرَفَي نهارِها

* عشيةِ الهِلالِ أو سِرارِها *

أراد: عشيةِ الهلالِ، أو سِرار العشية، فهو أشدّ من آتيك الغداة أو عَشِيَّها.

سورة عبس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي كلح بوجهه؛ يقال: عبس وبَسَر. وقد تقدّمَ. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ أي أعرض بوجهه ﴿أَن جَآءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصب لأنه مفعول له، المعنى لأن جاءه الأعمى، أي الذي لا يبصر بعينيه. فروى أهل التفسير أجمع أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقْطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية. قال مالك: إن هشام بن عُروة حدّثه عن عروة، أنه قال:

[٦٢٣٨] نزلتْ «عبس وتولى» في أبن أمّ مكتوم؛ جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول: يا محمد أستدنني[١]، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يُعرِض عنه ويُقْبل على الآخر، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً»؟ فيقول: لا والدُّمَى[٢] ما أرى بما تقول بأساً؛ فأنزل الله «عبس وتولى». وفي الترمذي مسنداً قال: حدّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُموي، حدّثني أبي، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة، قالت:

[٦٢٣٩] نزلت «عبس وتولى» في أبن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل

[٦٢٣٨] مرسل. أخرجه مالك ١/٢٠٣ عن عروة مرسلاً وانظر ما بعده.

[٦٢٣٩] أخرجه الترمذي ٣٣٣١ وابن حبان ٥٣٥ والحاكم ٢/٥١٤ والطبري ٣٦٣١٨ والواحدي ٨٤٥ من حديث عائشة وصححه الحاكم علىٰ شرطهما لكن أشار إلىٰ أن بعضهم أرسله. قال الذهبي: قلت: وهو الصواب اهـ لكن له شواهد كثيرة راجع الدر ٦/٥١٧ ـ ٥١٨.

---

(١) أي قربني.

(٢) الدمى: جمع دمية، وهي الصورة، يريد بها الأصنام.

يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعْرِض عنه، ويُقْبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً» فيقول: لا؛ ففي هذا نزلت؛ قال: هذا حديث غريب.

الثانية ـ الآية عتاب من الله لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم. ويقال: عمرو بن أم مكتوم، وٱسم أمّ مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو ٱبن قيس بن زائدة بن الأصمّ، وهو ٱبن خال خديجة رضي الله عنها. وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين، يقال كان الوليد بن المغيرة. ٱبن العربي: قاله المالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس. وقال قتادة: هو أمية بن خلف[1] وعنه: أبيّ بن خلف. وقال مجاهد: كانوا ثلاثة عتبة وشيبة ٱبنا ربيعة وأبيّ بن خلف. وقال عطاء عتبة بن ربيعة. سفيان الثوري: كان النبي ﷺ مع عمه العباس. الزمخشري: كان عنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ٱبنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رَجاء أن يُسْلم بإسلامهم غيرهم. قال ٱبن العربيّ: أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وٱبن أمّ مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفرداً، ولا مع أحد.

الثالثة ـ أقبل[2] ٱبن أمّ مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوِي طمعه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ٱبن أمّ مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العُميان والسَّفلة والعبيد؛ فعبَس وأعرض عنه، فنزلت الآية. قال الثَّوريّ: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أمّ مكتوم يبسط له رداءه ويقول: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي». ويقول: «هل من حاجة»؟ وٱستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما. قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكباً وعليه درع ومعه راية سوداء.

الرابعة ـ قال علماؤنا: ما فعله ٱبن أمّ مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأن

---

(١) في الأصل «خلص».

(٢) ذكره الواحدي ص ٤٧١ بدون إسناد وانظر الدر ٦/٥١٨ ـ ٥١٩ وتفسير ابن كثير ٤/٥٠٢.

النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية. على ما تقدّم. وقيل: إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل، ثقة بما كان في قلب ٱبن أمّ مكتوم من الإيمان؛ كما قال:

[٦٢٤٠] «إني لأصل الرجل وغيره أحب إليّ منه، مخافة أن يكُبه الله في النار على وجهه».

الخامسة ـ قال ٱبن زيد: إنما عبس النبي ﷺ لابن أمّ مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقودهِ أن يكفه، فدفعه ٱبن أمّ مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوعُ جفاء منه. ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: «عبَس وتولّى» بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً له ولم يقل: عبَستَ وتوليتَ. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي يعلمك ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعني ٱبن أمّ مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ بما ٱستدعَى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه. وقيل: الضمير في «لعله» للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذَّكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق وما يُدْريك أن ما طمعت فيه كائن. وقرأ الحسن «آأَن جاءه الأعمى» بالمدّ على الاستفهام فـ«ـأن» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عبس وتولى» التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على «وتولّى»، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهي قراءة العامة.

السادسة ـ نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] وما كان مثله، والله أعلم: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ بما تقول ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ أي العظة. وقراءة العامة «فتنفعُه» بضم العين، عطفاً على «يَزَّكَّى». وقرأ عاصم وٱبن أبي إسحاق وعيسى «فتنفعَه» نصباً. وهي قراءة السُّلَمِيّ وزِرّ بن حُبَيش، على جواب لعل، لأنه غير موجَب؛ كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر: ٣٦] ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ [الصافات: ٥٥].

[٦٢٤٠] صحيح. أخرجه البخاري ٢٧ و ١٤٨٧ ومسلم ١٥٠ وأبو داود ٤٦٨٣ والحميدي ٦٨ وأحمد ١٧٦/١ وأبو يعلىٰ ٧١٤ من حديث سعد بن أبي وقاص بأتم منه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ أي كان ذا ثروة وغِنًى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي تَعَرّضُ له، وتُصْغِي لكلامه. والتصدِّي: الإصغاء؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كأَنَّ جَبِينَه ... سراجُ الدُّجَى يَحْنِي إليه الأساوِرُ

وأصله تتصدَّد من الصُّدّ، وهو ما ٱستقبلك، وصار قِبالتك؛ يقال: داري صدَدُ داره أي قِبالتها، نُصِب على الظرف. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي تتعرض له كما يتعرّض العطشان للماء، والمصَاداة: المعارضة. وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف، على طرح التاء الثانية تخفيفاً. وقرأ نافع وٱبن مُحيصن بالتشديد على الإدغام. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ يطلب العلم لله ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي يخاف الله. ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي تُعرض عنه بوجهك وتُشْغَل بغيره. وأصله تتلهى؛ يقال: لَهِيتُ عن الشيء أَلْهَى: أي تشاغلت عنه. والتلهي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَلهيتُ: بمعنى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ «كلاّ» كلمة ردع وزجر؛ أي ما الأمرُ كما تفعل مع الفريقين؛ أي لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغنِيّ، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبيّ ﷺ كان تركَ الأولَى كما تقدّم، ولو حُمِل على صغيرة لم يبعد؛ قاله القُشيري. والوقف على «كَلاّ» على هذا الوجه: جائز. ويجوز أن تقف على «تَلَهَّى» ثم تبتدىء «كَلاّ» على معنى حَقّاً. ﴿إِنَّهَا﴾ أي السورة أو آيات القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ أي موعظة وتبصرة للخلق ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ أي ٱتعظ بالقرآن. قال الجُرجاني: «إنها» أي القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذَكَّره لجاز؛ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾ [المدثر: ٥٤]. ويدل على أنه أراد القرآن قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ أي كان حافظاً له غير ناس؛ وذكَّر الضمير، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. وروى الضحاك عن ٱبن عباس في قوله

تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ قال من شاء اللَّهُ تبارك وتعالى ألهمه. ثم أخبر عن جلالته فقال: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ جمع صحيفة ﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ أي عند الله؛ قاله السُّدِّي. الطبريّ: «مُكَرَّمةٍ» في الدين لما فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرام الحفظة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ. وقيل: «مكرمة» لأنها نزلت من كريم؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه. وقيل: المراد كُتُب الأنبياء؛ دليله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩]. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة، قاله يحيى بن سلام. الطبريّ: مرفوعة الذكر والقدر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقض. ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ قال الحسن: من كل دنس. وقيل: مصانة عن أن ينالها الكفار. وهو معنى قول السُّدّيّ. وعن الحسن أيضاً: مطهّرة من أن تنزل على المشركين. وقيل: أَي القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرؤونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة. ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية. ورَوى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ قال: كَتَبَةٍ. وقاله مجاهد أيضاً. وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: سافر؛ كقولك: كاتب وكَتَبة. ويقال: سَفَرْتُ أي كتبتُ، والكتاب: هو السفر، وجمعه أسفار. قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب سِفْر، بكسر السين، وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه. يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسَفَرتِ المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. قال: ومنه سَفَرْت بين القومِ أَسْفِر سفارة: أصلحت بينهم. وقاله الفراء، وأنشد:

فمـا أَدَعُ السِّفـارةَ بيـنَ قـومِـي ... ولا أَمشِـي بغِـشٍّ إن مَشَيْـتُ

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم، والجمع: سفراء، مثل فقيه وفقهاء. ويقال للورّاقين سُفَراءُ، بلغة العِبرانية. وقال قتادة: السَّفَرة هنا: هم القُرّاء، لأنهم يقرؤون الأسفار. وعنه أيضاً كقول ٱبن عباس. وقال وهب بن مُنَبّه: «بِأيدِي سَفَرةٍ. كِرامٍ بَرَرَةٍ» هم أصحاب النبي ﷺ. قال ٱبن العربيّ: لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سَفَرةً، كِراماً بَرَرَة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادِين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركُهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرهم. ورُوي في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال:

[٦٢٤١] «مَثَل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له، مع السَّفَرة الكرام البررة؛ ومثَل الذي يقرؤه وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران» متفق عليه، واللفظ للبخاريّ.

﴿كِرَامِۭ﴾ أي كرام على ربهم؛ قاله الكلبيّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وروى الضحاك عن ٱبن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرمون أن يكونوا مع ٱبن آدم إذا خلا بزوجته، أو تبرز لغائطه. وقيل: أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم.

﴿بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة؛ يقال: بر وبارّ إذا كان أهلاً للصدق، ومنه بَرَّ فلان في يمينه: أي صدق، وفلان يَبَرّ خالقه ويتبرره: أي يطيعه؛ فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم. وقد مضى في سورة «الواقعة» قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩] أنهم الكرام البَرَرَة في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾؟ «قتِل» أي لعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنما عُني به الكافر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال[1]: نزلت في عُتْبة بن أبي لَهَب، وكان قد آمن، فلما نزلت «والنجم» ٱرتدّ، وقال: آمنت بالقرآن كلّه إلا النجم، فأنزل الله جل ثناؤه فيه «قتِل الإنسان» أي لُعن عُتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمْ سلِّطْ عليه كلبك أسد الغاضِرة» فخرج من فوره بتجارة إلى الشام، فلما ٱنتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي ﷺ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيا، فجعلوه في وسط الرُّفقة، وجعلوا المتاع حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب، فإذا هو فوقه فمزقه، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال: ما قال محمد شيئاً قَطُّ إلا كان. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس «ما أكفره»: أيُّ شيء أكفره؟ وقيل: «ما» تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه؛

[٦٢٤١] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٧ ومسلم ٧٩٨ وأبو داود ١٤٥٤ والترمذي ٢٩٠٤ والدارمي ٢/٤٤٤ وابن ماجه ٣٧٧٩ والطيالسي ١٤٩٩ وابن أبي شيبة ١٠/٤٩٠ وأحمد ٦/٤٨ وابن حبان ٧٦٧ والبغوي ١١٧٣ من حديث عائشة.

---

(١) خبر عتبة تقدم في سورة النجم ويأتي في سورة تبت. وأما كونه سبب نزول لهذه الآية فليس بصحيح والضحاك لم يلق ابن عباس.

والمعنى: أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضاً؛ قال ابن جريج: أي ما أشد كفره وقيل: «ما» استفهام أي أيّ شيء دعاه إلى الكفر فهو استفهام توبيخ. و «ما» تحتمل التعجب، وتحتمل معنى أيّ، فتكون استفهاماً. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨﴾ أي من أيّ شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر؟ أي اعجبوا لخلقه. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من ماء يسيرٍ مَهين جَماد ﴿خَلَقَهُ﴾ فلَم يغلط في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين. ﴿فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ في بطن أمه. كذا روى الضحاك عن ابن عباس: أي قدّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسناً ودميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقياً وسعيداً. وقيل: «فقدّره» أي فسواه كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ [الكهف: ٣٧]. وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ [الانفطار: ٧]. وقيل: «فقدّره» أطواراً أي من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تم خَلْقه. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل: يسَّره للخروج من بطن أمه. مجاهد: يسَّره لطريق الخير والشر؛ أي بيَّن له ذلك. دليله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] و ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]. وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضاً في رواية أبي صالح عنه. وعن مجاهد أيضاً قال: سبيل الشقاء والسعادة. ابن زيد: سبيل الإسلام. وقال أبو بكر بن طاهر: يَسَّر على كل أحد ما خلقه له، وقدَّره عليه؛ دليله قوله عليه السلام:

[٦٢٤٢] «اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لما خُلِق له». ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١﴾ أي جعل له قبراً يوارَى فيه إكراماً، ولم يجعله مما يُلقَى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي[1]؛ قاله الفرّاء. وقال أبو عبيدة: «أقبره»: جعل له قبراً، وأمر أن يُقبَر. قال أبو عبيدة: ولما قَتَل عمرُ بن هُبيرة صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقبِرنا صالحاً؛ فقال: دونكموه. وقال: «أقبره» ولم يقل قَبَره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، قال الأعشى:

لو أَسْندتْ مَيْتاً إلى نحرِها ... عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابِرِ

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي صيره بحيث يُقْبر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترت ذَنَب البعير، وأبتره الله، وعضبت قَرْن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلاناً، والله أطرده، أي صيره طريداً. ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢﴾ أي أحياه بعد موته. وقراءة

[٦٢٤٢] متفق عليه، وقد تقدم.

---

(١) العوافي: كل طالب فضل أو رزق.

العامة «أَنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيْوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة «شاء نشره» بغير ألف، لغتان فصيحتان بمعنى؛ يقال: أنشر الله الميت ونَشَره؛ قال الأعشى:

حتى يقولَ الناس مما رأَوا ... يا عَجَبًا لِلميتِ الناشِرِ

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ قال مجاهد وقتادة: «لَمّا يَقْضِ»: لا يقضي أحد ما أُمِرَ به. وكان ابن عباس يقول: «لما يقضِ ما أمره» لم يف بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صلب آدم. ثم قيل: «كَلَّا» ردع وزجر، أي ليس الأمر كمَا يقول الكافر؛ فإن الكافر إذا أُخبر بالنُّشور قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ربما يقول قد قضيت ما أمِرْت به. فقال: كلاّ لمْ يقض شيئاً بلْ هو كافر بي وبرسولي. وقال الحسن: أي حَقّاً لم يقض: أي لم يَعمل بما أُمر به. و «ما» في قوله: «لَمّا» عماد للكلام؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون: ٤٠] وقال الإمام ابن فُورَك: أي: كَلاّ لَمّا يقض الله لهذا الكافر ما أَمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. ابن الأنباريّ: الوَقف على «كَلاّ» قبيح، والوقف على «أَمَرَه» و «أنشره»[1] جيد؛ فـ «كلاّ» على هذا بمعنى حَقًّا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يُسِّر من رزقه؛ أي فلينظر كيف خَلَق الله طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي ليتدبر كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد. ورُوِي عن الحسن ومجاهد قالا: «فلينْظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» أي إلى مُدْخله ومُخْرجه. وروى ابن أبي خيثمة[2] عن الضحاك بن سفيان الكلابيّ قال:

[٦٢٤٣] قال لي النبي ﷺ: «يا ضحاكُ ما طعامك» قلت: يا رسول الله! اللَّحم واللبن؛ قال: «ثم يصير إلى ماذا» قلت إلى ما قد علمته؛ قال: «فإنّ الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا». وقال أبيّ بن كعب:

[٦٢٤٣] حسن. أخرجه أحمد ٣/ ٤٥٢ والطبراني ٨١٣٨ بإسناد ضعيف لضعف علي بن زيد، لكن له شاهد من حديث سلمان أخرجه ابن المبارك ٤٩٢ بإسناد رجاله ثقات، ويشهد له ما بعده.

---

(١) في الأصل «نشره».
(٢) وقع في الأص «خيثمة» وهو تحريف واضح والمثبت هو الصواب.

[٦٢٤٤] قال النبي ﷺ: «إن مَطْعَمَ ٱبن آدم جُعِل مثلاً للدنيا وإن قَزَحَه[1] ومَلَّحه فٱنظر إلى ما يصير». وقال أبو الوليد: سألت ٱبن عمر عن الرجل يدخل الخَلاء فينظر ما يخرج منه؛ قال: يأتيه الملك فيقول ٱنظر ما بَخِلت به إلى ما صار؟

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ قراءة العامة «إنا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيْس عن يعقوب «أَنّا» بفتح الهمزة، فـ «ـأنا» في موضع خفض على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: «فلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» إلى «أنا صببنا»، فلا يحسُن الوقف على «طعامِهِ» من هذه القراءة. وكذلك إن رفعت «أَنا» بإضمار هو أنا صببنا؛ لأنها في حال رفعها مترجِمة عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنا صببنا الماء، فأخرجنا به الطعام، أي كذلك كان. وقرأ الحسين بن عليّ «أنّى» ممال، بمعنى كيف؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال: الوقف على «طعامه» تام. ويقال: معنى «أنّى» أين، إلا أنّ فيها كناية عن الوجوه؛ وتأويلها: من أي وجه صَببنا الماء؛ قال الكميت:

أنّـى ومِـنْ أيـنَ آبـكَ[2] الطَّـرَبُ ... مِـن حيـثُ لا صَبْـوةٌ ولا رِيـبُ

«صببنا الماء صباً»: يعني الغيث والأمطار. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾: أي بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي قمحاً وشعيراً وسُلْتاً[3] وسائر ما يُحْصَد ويدّخر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ وهو القَتّ والْعَلَف؛ عن الحسن: سمي بذلك لأنه يُقْضَب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة. قال القُتَبيّ وثعلب: وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب. وقال ٱبن عباس: هو الرّطب لأنه يُقضب من النخل: ولأنه ذكر العِنب قبله. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصة وهو القَتّ الرطب. وقال الخليل: القضب الفِصْفِصة الرطبة. وقيل: بالسين، فإذا يبست فهو قَتٌّ. قال: والقَضْب: ٱسم يقع على ما يُقْضب من أغصان الشجرة، ليتخذ منها سِهام أو قِسِيّ. ويقال: قَضْباً، يعني جميع ما يقضب، مثل القَتّ والكُرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصْلها. وفي الصحاح: والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة، وهي الإسفِسْت بالفارسية، والموضع الذي يَنْبُت فيه مَقْضَبة. ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي بساتين واحدها حديقة. قال الكلبي: وكل شيء أُحيط عليه من نخيل أو

[٦٢٤٤] حسن. أخرجه ابن المبارك ٤٩٣ و ٤٩٤ وعبد الله بن أحمد ٥/١٣٦ وصححه ابن حبان ٧٠٢ ورجاله كلهم ثقات.

---

(١) قَزَحَهُ: تَبَلَه، وهو التابل الذي يطرح في القدر، كالكمون والكزبرة ونحو ذلك.
(٢) آبك: آتاك. الريب: صروف الدهر.
(٣) السُلت: ضرب من الشعير.

شجر فهو حديقة، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة. ﴿غُلْبًا ۝٣٠﴾ عظاماً شجرها؛ يقال: شجرة غَلْباء، ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مُصْمَت العنق، لا يلتفت إلا جميعاً؛ قال العجاج:

ما زِلتُ يوم البَيْن أَلوِي صَلَبِي والرأسَ حتى صِرتُ مِثْلَ الأَغلبِ

ورجل أغلب بيّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغَلَب: الرقاب فٱستعير؛ قال عمرو بن مَعْدِي كرِب:

يَمشِي بها غُلْبُ الرقابِ كأنهم بُزْل كُسِين مِن الكُحَيْلِ جِلالا[١]

وحديقة غلباء: ملتفة وحدائق غُلْب. وٱغلَولَب العشب: بلغ وٱلتف البعض بالبعض. قال ٱبن عباس: الغُلْب: جمع أغلب وغلباء وهي الغِلاظ. وعنه أيضاً الطِّوال. قتادة وٱبن زيد: الغُلْب: النخل الكرام. وعن ٱبن زيد أيضاً وعِكرمة: عظام الأوساط والجذوع. مجاهد: ملتفة. ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخَوْخ وغيرهما ﴿وَأَبًّا ۝٣١﴾ هو ما تأكله البهائم من العُشب؛ قال ٱبن عباس والحسن: الأَبُّ: كل ما أنبتت الأرض، مما لا يأكله الناس، ما يأكله الآدميون هو الحَصيد؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

لَه دَعْوة مَيْمونة ريحُها الصَّبا بها يُنبِتُ الله الحصِيدة والأَبَّا

وقيل: إنما سمي أَبًّا؛ لأنه يُؤَبُّ أي يُؤَمّ ويُنْتجَع. والأَب والأم: أَخَوان؛ قال:

جِذمنا قيسٌ ونجدٌ دارنا ولنا الأَبُّ بِهِ والمَكْرَع[٢]

وقال الضحاك: والأب: كل شيء ينبت على وجه الأرض. وكذا قال أبو رَزِين: هو النبات. يدلّ عليه قول ٱبن عباس قال: الأَبُّ: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام. وعن ٱبن عباس أيضاً وٱبن أبي طلحة: الأبّ: الثمار الرَّطْبة. وقال الضحاك: هو التين خاصة. وهو محكي عن ٱبن عباس أيضاً؛ قال الشاعر:

فما لَهُم مَرْتَعٌ لِلسَّوا مِ[٣] والأَبُّ عندَهم يُقْدَرُ

الكلبيّ: هو كل نبات سوى الفاكهة. وقيل: الفاكهة: رَطْب الثمار، والأب يابسها. وقال إبراهيم التيميّ: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال:

---

(١) الكحيل: نوع من القطران تطلى به الإبل للجرب.
جلّ الدابة: الذي تلبسه لتصان به.

(٢) الجذم: الأصل. المكرع: من الكرع، أراد به الماء الصالح للشرب.

(٣) السوام والسائمة: المال الراعي من الإبل والغنم وغيرها.

أيُّ سماء تُظِلني، وأيُّ أرض تُقِلّني إذا قلت: في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعَمْر اللَّهِ التكلُّف، وما عليك يا بن أم عُمَر ألاّ تدري ما الأب؟ ثم قال: ٱتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال:

[٦٢٤٥] «خُلِقتم من سبْع، ورزِقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبْع». وإنما أراد بقوله: «خلقتم من سبع» يعني ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥] الآية، والرزق من سبع، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾، ثم قال: ﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم. والله أعلم. ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب علىٰ المصدر المؤكِّد، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات. وهذا ضرب مثلٍ ضربه الله تعالى لبعث الموتَى من قبورهم؛ كنبات الزرع بعد دُثُوره، كما تقدم بيانه في غير موضع. ويتضمن ٱمتناناً عليهم بما أنعم به، وقد مضى في غير موضع أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما ٱمتَنَّ به عليهم. والصاخّة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تَصُخ الأسماع: أي تُصِمُّها فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء. وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصِيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا: أي ٱستمع إليه، ومنه الحديث:

[٦٢٤٦] «ما من دابة إلاّ وهي مُصِيخة يومَ الجمعة شَفَقاً من الساعة إلاّ الجنَّ والإنس». وقال الشاعر:

لا تطلع الشمس ولا تغرب إلا

[٦٢٤٥] لم أره.

[٦٢٤٦] أخرجه أبو داود ١٠٤٦ وابن حبان ٢٧٧٠ و ٢٧٧٢ ومالك ١/١٠٨ ـ ١١٠ والحاكم ١/٢٧٨ وأحمد ٢/٤٨٦ من حديث أبي هريرة بأتم منه، صححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وهو علىٰ شرطهما.

يُصِيـــخُ لِلنَّبْـــأَةِ أَسْمــــاعَـــــهُ إصــــاخــــةَ المُنْشِـــدِ لِلمنْشِـــدِ

قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل، قال الخليل: الصاخَّة: صيحة تَصُخّ الآذان صَخًّا أي تُصِمُّها بشدة وقعتها. وأصل الكلمة في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صَخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يـا جـارتِـي هـل لـكِ أن تجـالِـدِي جــلادة كــالصَّــك بــالجَــلامِــدِ

ومن هذا الباب قول العرب: صَخَّتْهمُ الصّاخة وباتتهم البائتة، وهي الداهية. الطبريّ: وأحسبه من صَخّ فلان فلاناً: إذا أصماه. قال ابن العربيّ: الصاخّة التي تُورِث الصَّمَم، وإنها لمُسمِعة، وهذا من بَديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

* أَصَمَّ بِكَ الناعِي وإنْ كان أَسْمَعا *

وقال آخر:

أَصَمَّنِـي سِـرُّهـم أيـامَ فُـرقتهـم فهل سمِعتم بسِر يُورِث الصَّمَما

لعمر اللّهِ إنّ صيحة القيامة لمسمِعة تُصِم عن الدنيا، وتُسمِعُ أمور الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ أي يهرب، أي تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي يشغله عن غيره. وقيل: إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلا يرَوْا ما هو فيه من الشدة. وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعون ولا يغنون عنه شيئاً؛ كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١]. وقال عبد الله بن طاهر الأبهري: يفرّمنهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى. ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي زوجته. ﴿وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ أي أولاده.

وذكر الضحاك عن ابن عباس قال: يفرّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفر النبيُّ ﷺ من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من ابنه، ولوط من امرأته، وآدم من سَوْأة بنيه. وقال الحسن: أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه: إبراهيم، وأوّل من يفرّ من ابنه نوح، وأوّل من يفرّ من امرأته لوط. قال: فيَرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾. في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:

[٦٢٤٧] سمعت رسول الله ﷺ يقول «يُحْشَر الناس يوم القيامة حفُاة عُراة غُرْلاً» قلت، يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض». خرّجه التِّرمذي عن ٱبن عباس:

[٦٢٤٨] أن النبي ﷺ قال: «يُحشرون حفاة عُراة غُرْلاً» فقالت ٱمرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة» «لكل ٱمرِيءٍ مِنهم يومئذٍ شأن يغنِيهِ. قال: حديث حسن صحيح. وقراءة العامة بالغين المعجمة؛ أي حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ ٱبن مُحيصن وحُميد «يَعْنِيهِ» بفتح الياء، وعين غير معجمة؛ أي يعنيه أمره. وقال القُتَبي: يعنيه: يصرفه ويصُدّه عن قرابته؛ ومنه يقال: ٱعْنِ عني وجهك: أي ٱصرفْه وٱعنِ عن السفيه؛ قال خُفاف:

سَيَعْنِيــك حــرب بنــي مــالِــكٍ عن ٱلفُحْشِ والجهلِ في الْمَحفِل

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: أي مُشرقة مضيئة، قد علمت ما لها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي مسرورة فَرِحة. ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾: أي بما آتاها الله من الكرامة. وقال عطاء الخُراساني: «مُسْفِرة» من طول ما ٱغْبرت في سبيل الله جل ثناؤه. ذكره أبو نَعِيم. الضحاك: من آثار الوضوء. ٱبن عباس: من قيام الليل؛ لما رُوي في الحديث:

[٦٢٤٩] «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» يقال: أسفر الصبح إذا أضاء. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي غبار ودخان ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تغشاها ﴿قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي كسوف وسواد. كذا قال ٱبن عباس. وعنه أيضاً: ذِلة وشِدّة. والقَتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيد؛ وأنشد الفرزدق:

مُتَــوَّجٌ بِــرِداء الملــكِ يَتْبعــه مَوجٌ ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا

وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم: القَتَرة: ما ٱرتفعت إلى السماء، والغَبَرة: ما ٱنحطت إلى الأرض، والغبار والغَبَرة: واحد. ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ جمع كافر ﴿ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ جمع فاجر، وهو الكاذب المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ يقال: فجر فجوراً: أي فسق، وفجر: أي كذب. وأصله: الميل، والفاجر: المائل. وقد مضى بيانه والكلام فيه. والحمد لله وحده.

[٦٢٤٧] مضىٰ تخريجه.

[٦٢٤٨] مضىٰ تخريجه مراراً.

[٦٢٤٩] حديث باطل وإن كان معناه صحيحاً وتقدم باستيفاء.

سورة التكوير

مكية في قول الجميع . وهي تسع وعشرون آية

وفي الترمذيّ: عن ٱبن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٢٥٠] «من سره أن ينظر إلىٰ يوم القيامة كأنه رَأيُ عينٍ فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء ٱنفطرت، وإذا السماء ٱنشقت». قال: هذا حديث حسن غريب.

بِسم الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ قال ٱبن عباس: تكويرها: إدخالها في العرش. والحسن: ذهاب ضوئها. وقاله قتادة ومجاهد، وروي عن ٱبن عباس أيضاً. سعيد بن جُبير: عُوِّرَتْ. أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحي. وقال الربيع بن خيثم: «كورت» رمُي بها؛ ومنه: كوّرته فتكوّر، أي سقط.

قلت: وأصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لاثها وجمعها فهي تُكَوَّر ويمحى ضوؤها، ثم يُرمٰى بها في البحر. والله أعلم. وعن أبي صالح: كوّرت: نكِّستْ. ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي تهافتت وتناثرت. وقال أبو عبيدة: ٱنصبَّت كما تنصَبّ العُقاب إذا ٱنكسرت. قال العجّاج يصف صقراً:

أَبصرَ خِربانَ فضاءٍ فانكدر ... تقضِّيَ البازِي إذا البازِي كَسَر

[٦٢٥٠] جيد. أخرجه الترمذي ٣٣٣٣ وأحمد برقم ٤٨١٦ و٤٩٣٤ و٤٩٤١ و ٤٨٥٥ والحاكم ٢/ ٥١٥ من حديث ابن عمر وصححه الحاكم ووافقه الذهبي والأرناؤط في جامع الأصول ٦٢٧٦ وحسنه الترمذي وهو حديث قوي الإسناد.

ورَوَى أبو صالح عن ٱبن عباس قال:

[٦٢٥١] قال رسول الله ﷺ: «لا يَبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض، حتى يفزَع أهل الأرض السابعة مما لَقِيت وأصاب العليا»، يعني الأرض. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: تساقطت؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها. ويحتمل أن يكون ٱنكدارها طَمْس آثارها. وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها. وعن ٱبن عباس أيضاً: ٱنكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارب. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ يعني قُلِعت من الأرض، وسيرت في الهواء؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]. وقيل سيرُها تحوّلها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيباً مَهِيلا، أي رملاً سائلاً، وتكون كالعِهن، وتكون هباء منثوراً، وتكون سَراباً، مثل السَّراب الذي ليس بشيء. وعادت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أَمتا. وقد تقدم في غير موضع والحمد لله. ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها؛ الواحدة عُشَراء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك ٱسمها حتى تضع، وبعد ما تضع أيضاً. ومن عادة العرب أن يسمُّوا الشيء باسمه المتقدّم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قَرِح: هاتوا مُهْري، وقربوا مُهري يسميه بمتقدّم ٱسمه؛ قال عنترة:

لا تــذكــرِي مُهْــرِي ومــا أطعمتُــه فيكونَ جِلدكِ مثلَ جِلدِ الأَجرب

وقال أيضاً:

* وحَمَلْتُ مُهرِي وسْطَها فمضاها *

وإنما خص العِشار بالذكر، لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس يُعَطلها أهلها إلا حال القيامة. وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَرَاءَ، ولكن أراد به المثل؛ أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشَراءُ لعطَّلها وٱشتغل بنفسه، وقيل:

[٦٢٥١] موضوع. وأبو صالح هو باذام ضعفه البخاري وقال النسائي: ليس بثقة. وقال الكلبي: قال لي أبو صالح: كلما حدثتك به فهو كذب راجع الميزان للذهبي. ثم إن الإنس والجن والدواب والهوامّ إنما هم على ظهر الأرض لا في داخلها ولا في طبقاتها كما يظن بعض من لا دراية له، فالحديث مركب من وضع الكلبي فإنه كذاب أو أبي صالح والله أعلم.

إنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضاً، ورأوا الوُحوش والدوابّ محشورة، وفيها عِشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبئوا بها، ولم يهمَّهم أمرُها. وخُوطبت العرب بأمر العِشار؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: عُطِّلت: عَطَّلها أهلها، لاشتغالهم بأنفسهم. وقال الأعشى:

هـو الـواهِـبُ المـائـةَ المصطفـا ... ةَ إمـا مَخـاضـاً وإمـا عِشـارَا

وقال آخر:

ترى المرءَ مهجوراً إذا قلَّ مالهُ ... وبيـتُ الغِنـى يُهْـدَى لـه ويُـزارُ
ومـا ينفـعُ الـزوّارِ مـالُ مَـزُورِهِـم ... إذا سَـرَحَـتْ شَـوْلٌ لـه وعِشـارُ

يقال: ناقة عُشَراء، وناقتان عُشَراوان، ونوق عِشارٌ وعُشَراوات، يبدلون من همزة التأنيث واواً. وقد عَشَّرت الناقة تعشيراً: أي صارت عُشَراء. وقيل: العِشار: السحاب يُعَطَّل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل. وقيل: الديار تُعَطَّل فلا تُسكن. وقيل: الأرض التي يُعَشَّر زرْعها تعطل فلا تزرع. والأوّل أشهر، وعليه من الناس الأكثر. ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ أي جمعتْ. والحشر: الجمع. عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقال ٱبن عباس: حَشْرها: موتها. رواه عنه عِكرمة. وحَشْر كل شيء: الموت غيرَ الجن والإنس، فإنهما يُوافيان يوم القيامة. وعن ٱبن عباس أيضاً قال: يُحْشَر كل شيء حتى الذُّباب. قال ٱبن عباس: تحشر الوحوش غداً: أي تجمع حتى يُقتصَّ لبعضها من بعض، فيقتصَّ للجَمّاء من القَرْناء، ثم يقال لها كوني تراباً فتموت. وهذا أصح مما رواه عنه عِكرمة، وقد بيناه في كتاب «التذكرة» مستوفى، ومضى في سورة «الأنعام» بعضُه. أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم. وقيل: عُنِي بهذا أنها مع نُفْرتها اليوم من الناس وتنددها في الصحارَى، تنضم غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم. قال معناه أبيُّ بن كعب. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أي ملئت من الماء؛ والعرب تقول: سَجَرت الحوضَ أسجرهُ سَجْرا: إذا ملأته، وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملآن. وروى الربيع بن خيثم: سُجِّرت: فاضت ومُلِئت. وقاله الكلبيّ ومقاتل والحسن والضحاك. قال ٱبن أبي زَمْنين: سُجِّرت: حقيقته مُلِئت، فيفيض بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً. وهو معنى قول الحسن. وقيل: أرسِل عَذْبها على مالحها، ومالحها على عذبها، حتى ٱمتلأت. عن الضحاك ومجاهد: أي فُجرت فصارت بحراً واحداً. القشيريّ: وذلكِ بأنِ يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمت

الأرض كلها، وصارت البحار بحراً واحداً. وقيل: صارت بحراً واحداً من الحميم لأهل النار. وعن الحسن أيضاً وقتادة وأبن حيان: تيبس فلا يبقى من مائها قطرة. القُشَيْريّ: وهو من سَجَرْت التنور أَسْجُره سَجْرا: إذا أحميته، وإذا سُلّط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة، وتُسَيَّر الجبال حينئذ، وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً، بأن يُمْلأَ مكان البحار بتراب الجبال. وقال النحاس: وقد تكون الأقوال متفقة؛ يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض، بعضها إلى بعض، فتقلَب ناراً.

قلت: ثم تُسَيَّر الجبال حينئذ، كما ذكر القشيري، والله أعلم. وقال أبن زيد وشَمِر وعطية وسفيان ووهب وأُبي وعليّ بن أبي طالب وأبن عباس في رواية الضحاك عنه: أُوقدت فصارت ناراً. قال أبن عباس: يُكَوِّر الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، ثم يبعث الله عليها ريحاً دَبُوراً، فتنفخُه حتى يصير ناراً. وكذا في بعض الحديث[1]: يأمر الله جل ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرون في البحر، ثم يبعث الله جل ثناؤه الدَّبور فيسجِّرها ناراً، فتلك نار الله الكبرى، التي يعذب بها الكفار. قال القشيْري: قيل في تفسير قول أبن عباس ﴿سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ أوقدت، يحتمل أن تكون جهنم في قُعور من البحار، فهي الآن غير مسْجورة لِقوام الدنيا، فإذا أنقضت الدنيا سُجِّرت، فصارت كلها ناراً يدخلها الله أهلها. ويحتمل أن تكون تحت البحر نار، ثم يوقد الله البحر كله فيصير ناراً. وفي الخبَر:

[٦٢٥٢] «البحر نار في نار» وقال معاوية بن سعيد: بحر الروم وسْط الأرض، أسفله آبار مُطْبقة بنُحاس يُسَجَّر ناراً يوم القيامة. وقيل: تكون الشمس في البحر، فيكون البحر ناراً بحر الشمس. ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراطها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة.

قلت: رُوِي عن عبد الله بن عمرو: لا[2] يتوضأ بماء البحر لأنه طَبَق جَهَنم. وقال

[٦٢٥٢] ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٢٧٩ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً وصدره «البحر لا يجزىء من جنابة ولا يتوَضأ منه لأن تحت البحر ناراً وتحت النار بحر حتى عد سبعة أبحر وسبع نيران اهـ وقال ابن الجوزي رحمه الله: هذا موضوع وابن المهاجر قال ابن حبان: يضع الحديث أ هـ وورد هذا الحديث مرفوعاً وهو باطل.

---

(١) ورد عن ابن عباس من قوله راجع تفسير السمرقندي ٣/ ٤٥٠ والدر المنثور ٦/ ٥٢٥.

(٢) لا يصح عن ابن عمرو كما تقدم وهو معارض بحديث «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وغير ذلك من الأحاديث.

أبيّ بن كعب: ست آيات من قَبْل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودُهِشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحرّكت واضطربت واحترقت، فصارت هباء منثوراً، ففزعت الإنس إلى الجنّ والجنّ إلى الإنس، واختلطت الدوابُّ والوحوش والهوامُّ والطير، وماج بعضها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ ثم قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجَّج، فبينما هم كذلك تصدَّعتِ الأرض صَدْعة واحدة إلى الأرض السابعة السُّفلَى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذا جاءتهم ريح فأماتتهم. وقيل: معنى «سُجِّرت»: هو حُمْرة مائها، حتى تصير كالدم؛ مأخوذ من قولهم: عين سَجْراء: أي حمراء. وقرأ ابن كثير «سُجِرَت» وأبو عمرو أيضاً، إخباراً عن حالها مرة واحدة. وقرأ الباقون بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ قال النعمان بن بشير:

[٦٢٥٣] قال النبي ﷺ «وإذا النفوس زُوّجت» قال: «يُقْرَن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله». وقال عمر بن الخطاب: يُقْرَن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة، السابقون زوج ـ يعني صنفاً ـ وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج. وعنه أيضاً قال: زُوّجت نفوس المؤمنين بالحُور العين، وقُرن الكافر بالشياطين، وكذلك المنافقون. وعنه أيضاً: قُرِن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المَبرِّز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله؛ فالتزويج أن يُقرن الشيء بمثله؛ والمعنى: وإذا النفوس قُرنت إلى أشكالها في الجنة والنار. وقيل: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من مَلِك وسلطان، كما قال تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد: جُعلوا أزواجاً على أشباه أعمالهم ليس بتزويج، أصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج، والسابقون زوج؛ وقد قال جل ثناؤه: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي أشكالهم. وقال عِكرمة: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ قرنت الأرواح بالأجساد؛ أي

[٦٢٥٣] ضعيف جداً والراجح الوقف. أخرجه الطبري ٣٦٤٥١ وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/٥٠٨ عن النعمان بن بشير مرفوعاً ومداره على الوليد بن أبي ثور وهو متروك الحديث وورد عن النعمان عن عمر موقوفاً من عدة طرق أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٣٥١٥ والحاكم ٢/٥١٥ والطبري ٣٦٤٤٦ و ٣٦٤٤٧ و ٣٦٤٤٨ و ٣٦٤٤٩ و ٣٦٤٥٠ من طرق كلهم عن النعمان عن عمر موقوفاً من قوله، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

ردت إليها. وقال الحسن: ألحق كل امرىء بشيعته: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يُلْحَق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يُقْرَن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، على جهة البغض والعداوة، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين. وقيل: قُرِنت النفوس بأعمالها، فصارت لاختصاصها به كالتزويج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ الموءودة المقتولة؛ وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها أي يثقلها حتى تموت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يثقله؛ وقال متمم بن نُويرة:

ومَوءودة مَقبورة فِي مَفازةٍ بآمتِها[1] مَوْسودة لم تُمَهّد

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين؛ إحداهما كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفاً من السبيْ والاسترقاق. وقد مضى في سورة «النحل» هذا المعنى، عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩] مستوفًى. وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه، حتى أفتخر به ألفرزدق، فقال:

ومِنّا الّذي منعَ الوائِداتِ فأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ

يعني جدّه صعصعة كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة. وقال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردّتِ التراب عليها، وإن ولدت غلاماً حبسته، ومنه قول الراجز:

سَمَّيتها إذ وُلِدتْ تموتُ والقبرُ صِهرٌ ضامِنٌ زِمِّيتُ

الزِّميت الوقور، والزميت مثال الفِسيق أوقر من الزِّمِيتِ، وفلان أزمت الناس أي أوقرهم، وما أشد تَزُمّتَهُ؛ عن الفراء. وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله: «وإذا الموءودة سئِلت» قال عمر في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ قال:

(١) الآمة: ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه.
المعاوز: خرق يلف بها الصبي.

[٦٢٥٤] جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني وأدت ثمانَ بنات كنّ لي في الجاهلية، قال: «فأعتِق عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: «فأهْدِ عن كل واحدة منهنّ بَدَنة إن شئت». وقوله تعالى: «سُئِلت» سؤال الموءودة سُؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرِب: لم ضُرِبت؟ وما ذنبك؟ قال الحسن: أراد الله أن يُوبِّخ قاتلها؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب. وقال ابن أسلم: بأي ذنب ضُرِبت، وكانوا يضربونها. وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى «سئلت» قال: طُلِبت؛ كأنه يريد كما يُطلب بدم القتيل. قال: وهو كقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥] أي مطلوباً. فكأنها طُلِبت منهم، فقيل أين أولادكم؟! وقرأ الضحاك وأبو الضُّحا عن جابر بن زيد وأبي صالح «وإذا الموءودة سَألت» فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأيّ ذنب قتلتني؟! فلا يكون له عذر؛ قاله ابن عباس وكان يقرأ «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ» وكذلك هو في مصحف أُبيّ. وروى عِكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال:

[٦٢٥٥] «إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدُها بثدييها، ملطخاً بدمائه، فيقول يا ربّ، هذه أمي، وهذه قتلتني» والقول الأوّل عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، على جهة التوبيخ والتبكيت لهم، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب، فبأيّ ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها، كان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها. والله أعلم. وقرىء «قُتِّلت» بالتشديد، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعَذَّبون، وعلى أن التعذيب لا يُستَحقّ إلا بذنب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ أي فُتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كَتَبَت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تُطْوَى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. وروَى مَرْثَد بن وَدَاعة قال: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة: ٢٢] إلى قوله: ﴿ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤] وتقع

[٦٢٥٤] أخرجه البزار ٢٢٨٠ والطبراني ١٨/٣٣٧ من حديث عمر، وقال في المجمع ٧/ ١٣٤: رجال البزار رجال الصحيح غير حسن بن مهدي الأيلي وهو ثقة، وأخرجه الطبراني ١٨/٣٣٨ عن خليفة بن حصين مرفوعاً وفيه يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف قاله في المجمع.

[٦٢٥٥] لم أره.

صحيفة الكافر في يده ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٢ - ٤٤]. ورُوِي عن أمّ سلمة رضي الله عنها:

[٦٢٥٦] أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاة عراة» فقلت: يا رسول الله! فكيف بالنساء؟ قال: «شُغِل الناس يا أمَّ سَلَمة». قلت: وما شَغَلَهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل الخردل». وقد مضى في سورة «سُبْحان» قول أبي الثوّار العدَوِيّ: هما نَشْرَتان وطَيّة، أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك المنشورة، فأملِ فيها ما شئت، فإذا مِت طويت، حتى إذا بُعثت نشِرت «اقرأ كِتابك كفى بِنفسِك اليوم عليك حسِيباً». وقال مقاتل: إذا مات المرء طُوِيت صحيفة عمله، فإذا كان يوم القيامة نُشِرت. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا بن آدم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو «نُشِرَتْ» مخففة، على نشرت مرة واحدة، لقيام الحجة. الباقون بالتشديد، على تكرار النشر، للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع. وقيل: لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾: الكشط: قَلْع عن شدّة التزاق؛ فالسماء تُكْشَط كما يكْشَط الجلد عن الكبش وغيره، والقَشْط: لغة فيه. وفي قراءة عبد الله «وَإِذَا السَّمَاءُ قُشِطَتْ» وكَشَطْتُ البعير كشطاً: نزعت جلده،ولا يقال سَلَخْته؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كَشَطْته أو جَلَّدته، وانكشط: أي ذهب؛ فالسماء تُنْزَع من مكانها كما ينزع الغِطاء عن الشيء. وقيل: تُطْوَى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، [الأنبياء: ١٠٤] فكأن المعنى: قلِعت فطويت. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ أي أوقدت فأُضْرمت للكفار وزيدَ في إحمائها. يقال: سَعَّرْتُ النار وأسعرتها. وقراءة العامة بالتخفيف من السعير. وقرأ نافع وابن ذَكوانَ ورُوَيْس بالتشديد؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة. قال قتادة: سَعَّرها غضب الله وخطايا بني آدم. وفي الترمذِيّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

[٦٢٥٧] «أوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء مُظلمة» ورُوِي موقوفاً.

[٦٢٥٦] ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/٧٠٩ فقال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث أم سلمة وأصله في الصحيحين من حديث عائشة اهـ قلت: حديث عائشة تقدم تخريجه.

[٦٢٥٧] تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ أي دَنَتْ وقُرِّبت من المتقين. قال الحسن: إنهم يُقَرَّبون منها؛ لا أنها تزول عن موضعها. وكان عبد الرحمن بن زيد يقول: زُينت: أزْلِفَتْ؟ والزلفى في كلام العرب: القُربة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾، [الشعراء: ٩٠] وتزلف فلان تقرب.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ يعني ما عملت من خير وشر. وهذا جواب ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ وما بعدها. قال عمر رضي الله عنه لهذا أُجري الحديث. ورُوِيَ عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنهما قرآها، فلما بلغا «علِمت نفس ما أحْضَرت» قالا لهذا أجريت القصة؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء، علمت نفس ما أحضرت من عملها. وفي الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال:

[٦٢٥٨] قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل» وقال الحسن: «إذا الشمس كورت» قسم وقع على قوله: «علِمت نفس ما أحضرت» كما يقال: إذا نفَرَ زيد نفر عمرو. والقول الأوّل أصح. وقال ابن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ اثنتا عشرة خصلة: ست في الدنيا، وست في الآخرة؛ وقد بينا الست الأولى بقول أبيّ بن كعب.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي أقسم، و«لا» زائدة، كما تقدّم. ﴿بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ هي الكواكب الخمسة الدَّراريّ: زُحَل والمُشترِي وعُطارِد والمِرّيخُ والزُّهَرة، فيما ذكر أهل التفسير. والله أعلم. وهو مَرويّ عن عليّ كرم الله وجهه. وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان: أحدهما ـ لأنها تَستقبل الشمس؛ قاله بكر بن عبد الله المُزَني. الثاني ـ لأنها تقطع المجرّة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت، وقاله عليّ رضي الله عنه، قال: هي النجوم تخنِس

[٦٢٥٨] صحيح. أخرجه البخاري ١٤١٣ و ١٤١٤ ومسلم ١٠١٦ وابن أبي شيبة ٣/ ١١٠ والطيالسي ١٠٣٩ وأحمد ٤/ ٢٥٦ والنسائي ٥/ ٧٥ وابن حبان ٤٧٣ و ٦٦٦ و ٧٣٧٣ من حديث عدي بن حاتم.

بالنهار، وتظهر بالليل؛ وتكنِس في وقت غروبها؛ أي تتأخر عن البَصر لخفائها، فلا تُرَى. وفي الصحاح: و «الخُنَّس»: الكواكب كلها. لأنها تخنِس في المغيب، أو لأنها تخنِس نهاراً. ويقال: هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾: إنها النجوم الخمسة؛ زُحل والمشترِي والمِرّيخ والزُّهَرة وعطارد؛ لأنها تَخنِس في مجراها، وتَكْنِس، أي تستتر كما تكنِس الظباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت خُنَّسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خَنَس عنه يَخْنُس بالضم خنوساً: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلَّفه ومضى عنه. والخَنَس تأخر الأنف عن الوجه مع ٱرتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خُنْس. وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ﴾: هي بقرة الوحش. روى هُشَيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شُرَحبيل قال قال لي عبد الله بن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش؛ قال: وأنا أرى ذلك. وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله. وروي عن ٱبن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عِكرمة قال: «الخُنَّس»: البقر و «الكنَّس»: هي الظباء، فهي خُنَّس إذا رأين الإنسان خَنَسْنَ وٱنقبضن وتأخرن ودخلن كِناسهنّ. القشيريّ: وقيل على هذا «الخُنَّس» من الخَنَس في الأنف، وهو تأخُر الأرنبة وقصر القَصَبة، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك.

قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك. وقد جاء عن ٱبن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعي أنها: بقر الوحش. وعن ٱبن عباس وسعيد بن جُبير: أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكُنَّس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد النجوم. وقد قيل: إنها الملائكة؛ حكاه الماورديّ. والكُنَّس الغُيَّب؛ مأخوذة من الكِناس، وهو كِناس الوحش الذي يختفي فيه. قال أَوس بن حَجَر:

ألم تر أنَّ اللَّهَ أنزلَ مُزْنَهُ — وعُفْرُ الظباءِ في الكِناس تَقَمَّعُ[1]

وقال طَرَفة:

كأَنْ كِناسَيْ ضالةٍ يَكْنُفانِها — وأَطْرَ قِسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ[2]

(١) تقمع: تحرك رأسها من القمعة، وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب أو يقع عليها فيلسعها.

(٢) الكناسى: يستكن الحيوان بالغداة في ظلها وبالعشي في فيئها. الضال: السدر البري. الأطر: العطف، المؤيد: المقوى.

وقيل: الكُنوس أن تأوي إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحش والظباء. قال الأعشى:

فلمَّا أتينا الحي أَتْلَعَ آنسٌ كما أَتلَعَتْ تحتَ المكانِس رَبْربُ

يقال: تَلَع النهار ٱرتفع وأتلعتِ الظبية من كِناسها: أي سَمَت بجيدها. وقال ٱمرُؤ القيس:

تَعَشَّى قليلاً ثم أنحى ظُلُوفه يثير التراب عن مَبِيتٍ ومَكْنِسِ[(١)]

والكُنَّس: جمع كانِس وكانِسة، وكذا الخُنَّس جمع خانِس وخانِسة. والجواري: جمع جارية من جرى يجري. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعسَ أدبَر؛ حكاه الجوهريّ. وقال بعض أصحابنا: إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. المهدويّ. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أدبر بظلامه؛ عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما. وروي عنهما أيضاً وعن الحسن وغيره: أقبل بظلامه. زيد بن أسلم: «عسعسَ» ذهب. الفرّاء: العرب تقول عسعس وسَعْسَع إذا لم يبق منه إلا اليسير. الخليل وغيره: عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر. المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ٱبتداء الظلام في أوّله، وإدباره في آخره؛ وقال علقمة بن قرط:

حتى إذا الصبحُ لها تنفّسا وٱنجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسَا

وقال رُؤْبة:

يا هندُ ما أسرعَ ما تَسَعْسَعَا من بَعْدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعَا[(٢)]

وهذه حجة الفراء. وقال ٱمرؤ القيس:

عَسْعَسَ حتّى لو يشاءُ ٱدَّنا كانَ لنا مِن نارِهِ مَقْبِسُ

فهذا يدل على الدنوّ. وقال الحسن ومجاهد: عَسَعَسَ: أظلم؛ قال الشاعر:

حتى إذا ما ليلُهن عسعسَا ركبن مِن حد الظلامِ حِندِسَا

الماورديّ: وأصل العسّ الامتلاء؛ ومنه قيل للقدح الكبير عُسّ لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه؛ وأطلق على إدباره لانتهاء ٱمتلائه على ظلامه؛ لاستكمال ٱمتلائه به. وأما قول ٱمرىء القيس:

* أَلمَّا على الربعِ القديم بِعسْعَسَا *

---

(١) تعشى: دخل في العشاء وهو أول الليل. ظلوفه: حوافره.

(٢) تسعسعا: أدبر وفنى. السرعرع: الشاب الناعم.

فموضع بالبادية. وعسعس أيضاً اسم رجل؛ قال الراجز[1]:

* وعَسْعَسَ نِعْمَ الفتى تبياه *

أي تعتمده. ويقال للذئب العَسْعَس والعَسْعاس والعَسَّاس؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويطلب. ويقال للقنافذ العَسَاعس لكثرة ترددها بالليل. قال أبو عمرو: والتعسعس الشم، وأنشد:

* كمنخر الذِّئبِ إذا تَعَسْعَسَا *

والتعسعس أيضاً: طلب الصيد بالليل.

قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي امتدّ حتى يصير نهاراً واضحاً؛ يقال للنهار إذا زاد: تنفس. وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: «إذا تنفس» أي انشق وانفلق؛ ومنه تنفست القوس أي تصدعت. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ هذا جواب القسم. والرسول الكريم جبريل؛ قاله الحسن وقتادة والضحاك. والمعنى «إنه لقول رسولٍ» عن الله «كريم» على الله. وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام، ثم عداه عنه بقوله «تنزيل مِن رب العالمِين» ليعلم أهل التحقيق في التصديق، أن الكلام لله عز وجل. وقيل: هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: من جعله جبريل فقوّته ظاهرة؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال: من قوّته قلعه مدائن قوم لُوط بقوادم جناحه. ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي عند الله جل ثناؤه ﴿مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي ذي منزلة ومكانة؛ فروي عن أبي صالح قال: يدخل سبعين سُرادِقاً بغير إذن. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾: أي في السموات؛ قال ابن عباس: من طاعة الملائكة جبريل، أنه لما أُسْرِي برسول الله ﷺ قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان: افتح له، ففتح، فدخل ورأى ما فيها، وقال لمالك خازن النار: افتح له جهنم حتى ينظر إليها، فأطاعه وفتح له. ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي مؤتمن على الوحي الذي يجيء به. ومن قال: إن المراد محمد ﷺ فالمعنى «ذِي قوةٍ» على تبليغ الرسالة «مُطاعٍ» أي يطيعه من أطاع الله جلّ وعزّ. ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ يعني محمداً ﷺ ليس بمجنون حتى يتهم في قوله وهو من جواب القسم. وقيل: أراد النبي ﷺ أن يرى جبريل في الصورة التي يكون بها عند ربه جلّ وعزّ فقال: ما ذاك إليّ؛ فأذن له الرب جل ثناؤه، فأتاه وقد سدّ الأفق، فلما نظر إليه النبي ﷺ خرّ مغشياً عليه، فقال المشركون: إنه مجنون، فنزلت: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ وإنما رأى جبريل على صورته فهابه، وورد عليه ما لم تحتمل بِنيته، فخرّ مغشياً عليه.

---

(١) في الأصل «الرجز».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ أي رأى جبريل في صورته، له ستمائة جَناح. ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ أي بمطلع الشمس من قِبل المَشْرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مُبين. أي من جهته تُرَى الأشياء. وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها؛ قال الشاعر.

أخَذْنا بِآفاقِ السماءِ عليكُمُ　　　لنا قَمراها والنجومُ الطوالِعُ

الماورديّ: فعلى هذا، فيه ثلاثة أقاويل؛ أحدها: أنه رآه في أفق السماء الشرقيّ؛ قاله سفيان. الثاني: في أفق السماء الغربيّ، حكاه ٱبن شجرة. الثالث: أنه رآه نحو أجياد، وهو مَشْرق مكة؛ قاله مجاهد. وحكى الثعلبيّ[١] عن ٱبن عباس، قال النبي ﷺ لجبريل: «إني أحبُّ أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء» قال: لن تقدر على ذلك. قال: «بلى» قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: «بالأبطح» قال: لا يسعُني. قال: «فبِمنًى» قال: لا يسعني. قال: «فبعرفات» قال: ذلك بالحرى أن يسعني. فواعده فخرج النبي ﷺ للوقت، فإذا هو قد أقبل بخَشْخَشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عَرَفات، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب؛ ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ خرّ مغشياً عليه، فتحول جبريل في صورته، وضمه إلى صدره. وقال: يا محمد لا تخف؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من خشية الله، حتى يصير مثل الوَصَع[٢] ـ يعني العصفور ـ حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته. وقيل: إن محمداً عليه السلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين. وهو معنى قول ٱبن مسعود. وقد مضى القول في هذا في «والنجم» مستوفًى، فتأمله هناك. وفي «المبين» قولان: أحدهما أنه صفة الأفق؛ قاله الربيع. الثاني أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد. «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ» بالظاء، قراءة ٱبن كثير وأبي عمرو والكسائيّ، أي بمتَّهم، والظنة التُّهمَة؛ قال الشاعر:

أما وكِتابِ اللّـهِ لا عن شناءةٍ　　　هُجِرتُ ولكِنّ الظنِينَ ظَنِينُ

(١) تفرد به الثعلبي وهو غير حجة فإنه كحاطب ليل كما قال الحافظ ابن تيمية في المقدمة في أصول التفسير. وفي بعض ألفاظه نكارة تدل على أنه مكذوب على ابن عباس.

(٢) الوصع: العصفور الصغير.

واختاره أبو عُبيد؛ لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كذبوه؛ ولأن الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنما يقولون: ما أنت على هذا بمتَّهم. وقرأ الباقون «بِضَنِينٍ» بالضاد: أي ببخيل من ضَنِنْت بالشيء أضنّ ضِنًّا فهو ضنِين. فروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: لا يضنّ عليكم بما يعلم، بل يُعَلِّم الخَلْقَ كلام الله وأحكامه. وقال الشاعر:

أَجود بِمكنونِ الحديثِ وإنني بِسِرِّكِ عمن سالني لضَنِينُ

والغَيْب: القرآن وخبر السماء. ثم هذا صفة محمد عليه السلام. وقيل: صفة جبريل عليه السلام. وقيل: بظَنين: بضعيف. حكاه الفراء والمبرد؛ يقال: رجل ظَنِين: أي ضعيف. وبئر ظَنونٌ: إذا كانت قليلة الماء؛ قال الأعشى:

ما جُعِل الجُدُّ الظَّنونُ الذي جُنِّب صَوْبَ اللجِبِ الماطِرِ
مِثلَ الفُراتِيِّ إذا ما طما يقذِف بالبُوصِيِّ والماهِرِ(١)

والظَّنون: الدين الذي لا يدري أيقضيه آخذه أم لا؟ ومنه حديث عليّ عليه السلام في الرجل يكون له الدين الظنون، قال: يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقاً. والظَّنون: الرجل السيِّيء الخلق؛ فهو لفظ مشترك. ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي مرجوم ملعون، كما قالت قريش. قال عطاء: يريد بالشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قال قتادة: فإلى أين تعدِلون عن هذا القول وعن طاعته. كذا روَى مَعْمر عن قتادة؛ أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي. وقال الزجاج: فأيّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بَيَّنت لكم. ويقال: أين تذهب؟ وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشامَ وخرجت العراقَ وانطلقت السوقَ: أي إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة؛ وأنشد بعض بني عُقَيل:

تصِيح بنا حنِيفةُ إذْ رأتنا وأيَّ الأرضِ تذهبُ بالصياحِ

يريد إلى أي أرض تذهب، فحذف إلى. وقال الجنيد: معنى الآية مقرون بآية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] المعنى: أيَّ طريق تسلكون أبينَ من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قول الزجاج. ﴿إِنْ هُوَ﴾

(١) الجد: البئر تكون في موضع كثير الكلأ. الفراتي: نسبة إلى الفرات.
البوصي: ضرب من سفن البحر. الماهر: السابح.

يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي مَوْعظة وزَجْر. و«إنْ» بمعنى «ما». وقيل: ما محمد إلا ذِكر. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي يتبع الحق ويقيم عليه. وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا. إن شئنا ٱستقمنا، وإن شئنا لم نستقم ـ وهذا هو القَدَر، وهو رأس القَدَرية ـ فنزلت: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله، ولا شراً إلا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وقال وهب بن مُنبه: قرأتُ في سبعة وثمانين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر. وفي التنزيل: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] والآي في هذا كثير، وكذلك الأخبار، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام، وأضل بالكفر، كما تقدم في غير موضع. ختمت السورة والحمد لله.

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهي تسع عشرة آية

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ أي تشققت بأمر الله؛ لنزول الملائكة؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥]. وقيل: تفطَّرت لهيبة الله تعالى. والفَطْر: الشَّقُّ؛ يقال: فطرته فانفطر، ومنه فَطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطَّر الشيء: شقَّق، وسيفٌ فُطار أي فيه شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقةِ وهو كِمعِي ... سِلاحِي لا أَفلَّ ولا فُطَارا[1]

وقد تقدّم في غير موضع. ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ أي تساقطت؛ نثرت الشيء أنثره نثراً، فانتثر، والاسم النِّثار. والنُّثار بالضم: ما تناثر من الشيء، ودُرّ مُنثَّر، شدد للكثرة. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ أي فجر بعضها في بعض، فصارت بحراً واحداً، على ما تقدّم. قال الحسن: فُجِّرت: ذهب ماؤها ويبست؛ وذلك أنها أوّلا راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرّقت، فذهب ماؤها. وهذه الأشياء بين يدي الساعة، على ما تقدّم في ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾. ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ أي قُلِبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء؛ يقال: بعثرت المتاع: قلبته ظهراً لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفرّاء: «بعثِرت»: أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ مثل: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٣]، وتقدّم. وهذا جواب «إذا السماء انفطرت» لأنه قَسَم في قول الحسن وقع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك. وقيل: أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة،

---

(١) العقيقة: شعاع البرق الذي يبدو كالسيف. الكمع: الضجيع.

فحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها. وقيل: هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ خاطب بهذا منكري البعث. وقال ابن عباس: الإنسان هنا: الوليد بن المغيرة. وقال عكرمة: أبيّ بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحِيّ. عن ابن عباس أيضاً: «ما غرك بربك الكريم» أي ما الذي غرك حتى كفرت؟ «بربك الكريم» أي المتجاوز عنك. قال قتادة: غره شيطانه المسلَّط عليه. الحسن: غره شيطانه الخبيث. وقيل: حمقه وجهله. رواه الحسن عن عمر رضي الله عنه. وروى غالب الحنفي قال:

[٦٢٥٩] لما قرأ رسول الله ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ﴾ قال: «غره الجهل» وقال صالح بن مسمار: بلغنا أن رسول الله ﷺ قرأ «يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم»؟ فقال: «غره جهلُه». وقال عمر رضي الله عنه: كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقيل: غره عفو الله، إذ لم يعاقبه في أوّل مرة. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه، فقال لك: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ﴾ [الانفطار: ٦]؟ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول غرَّني سُتُورك المرخاة، لأن الكريم هو الستَّار. نظمه ابن السَّماك فقال:

يا كاتمَ الذنب أما تستحي ... واللَّهُ في الخُلْوة ثانيكَا
غَرَّكَ من ربك إمهالُهُ ... وسَتْرُه طولَ مَساويكَا

وقال ذو النون المصريّ: كم من مغرور تحت السَّتْر وهو لا يشعر.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري:

يا من غلا في العُجْب والتيهِ ... وغره طولُ تماديهِ
أَمْلَى لك الله فبارزته ... ولم تخف غِبّ مَعاصيهِ

[٦٢٥٩] ضعيف جداً. أخرجه عبد بن حميد كما في الدر ٦/ ٥٣٤ عن صالح بن مسمار بلاغاً وكذا نسبه ابن حجر في تخريج الكشاف ٤/ ٧١٥ لأبي عبيد في «فضائل القرآن» عن صالح بن مسمار. وصالح هذا شبه مجهول وهو تابعي صغير فمرسله واهٍ جداً. وغالب الحنفي لم أعثر له على ترجمة وقد ورد عن عمر موقوفاً وهو أشبه راجع الدر ٦/ ٥٣٤ وعن ابن عمر موقوفاً راجع تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٣ والله أعلم.

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يُلَبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجبني؟ فقال. لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه فأعتقه. وناس يقولون: ما غرك: ما خَدَعك وسَوَّل لك، حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال ٱبن مسعود: ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له: يا بن آدم ماذا غرك بي؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي قدرّ خلقَك من نطفة ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ أي جعلك معتدلاً سَوِيّ الخَلْق؛ كما يقال: هذا شيء معدّل. وهذه قراءة العامة، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفراء: وأبو عبيد: يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]. وقرأ الكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي: «فعدَلك» مخففاً أي: أمالك وصرفك إلى أيّ صورة شاء، إما حسناً وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً. وقال موسى بن عليّ بن أبي رَباح اللَّخْمي عن أبيه عن جده قال:

[٦٢٦٠] قال لي النبي ﷺ: «إن النطفة إذا ٱستقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم». أما قرأت هذه الآية ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾: «فيما بينك وبين آدم» وقال عكرمة وأبو صالح: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾: إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وقال مكحول: إن شاء ذكراً، وإن شاء أنثى. قال مجاهد: «فِي أي صورةٍ» أي في أي شبه من أبٍ أو أم أو عم أو خالٍ أو غيرهم. و «في» متعلقة بـ «ركبك»، ولا تتعلق بـ «عدَلك»، على قراءة من خفف؛ لأنك تقول عَدَلْت إلى كذا، ولا تقول عَدَلت في كذا؛ ولذلك منع الفراء التخفيف؛ لأنه قدّر «في» متعلقة بـ «عدَلك»، و «ما» يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في أي صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قِرد أو حمار أو خنزير، فـ «ما» بمعنى الشرط والجزاء؛ أي في صورة ما شاء يركبك ركبك.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ يجوز أن تكون «كَلَّا» بمعنى حقًّا و «ألاَ» فيبتدأ بها. ويجوز أن تكون بمعنى «لا»، على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من

[٦٢٦٠] ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في الكبير ٤٦٢٤ والطبري ٣٦٥٦٧ من حديث موسىٰ بن علي بن أبي رباح عن أبيه عن جده ومداره علىٰ مطهّر بن الهيثم وهو متروك قاله في المجمع ٧/١٣٥ برقم ١١٤٧٣. وضعفه أيضاً ابن كثير ٤/٥١٤. والصواب أنه واه جداً.

أنكم في عبادتكم غير الله محقُّون. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ وكذلك يقول الفراء: يصير المعنى: ليس كما غُررت به. وقيل: أي ليس الأمر كما تقولون، من أنه لا بعث. وقيل: هو بمعنى الردع والزجر. أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه، فتتركوا التفكر في آياته. ابن الأنباريّ: الوقف الجيّد على «الدين»، وعلى «ركبك»، والوقف على «كَلّا» قبيح. ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ يأهل مكة ﴿بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي بالحساب، و «بل» لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلوماً، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ أي رُقباء من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ أي عليّ؛ كقوله: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١٦] وهنا ثلاث مسائل:

الأولى ـ رُوِي عن رسول الله ﷺ:

[٦٢٦١] «أكرِمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الخِرَاءة أو الجماع، فإذا ٱغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو بعيره(1)، أو ليستره أخوه». ورُوي عن عليّ رضي الله عنه قال: لا يزال المَلَكُ مولياً عن العبد ما دام باديَ العورة. ورُوِي:

[٦٢٦٢] «إن العبد إذا دخل الحمام بغير مِئزر لعنه ملكاه».

الثانية ـ وٱختلف الناس في الكُفّار هل عليهم حفَظَة أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد؛ قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]. وقيل: بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]

[٦٢٦١] أخرجه البزار ١/ ١٦٠ من حديث مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً مع اختلاف يسير فيه، وفيه حفص بن سليمان غير قوي لكن توبع فقد ورد من وجه آخر عن مجاهد مرسلاً أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٤ وهو مرسل صحيح. والله أعلم.

[٦٢٦٢] لم أره هكذا، وأخرج الترمذي ٢٨٠١ والنسائي ١/ ١٩٨ من حديث جابر: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام بغير إزار» وحسن إسناده الأرناؤوط في جامع الأصول ٥٣٨٥، وله شواهد كثيرة، وانظر مجمع الزوائد ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

---

(١) وقع في الأصل «بغيره» وهو تصحيف والتصويب عن سنن البزار وتفسير ابن كثير والدر المنثور ٦/ ٥٣٥.

وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠]، فأخبر أن الكفار يكون لهم كُتّاب، ويكون عليهم حفَظَة. فإن قيل: الذي على يمينه أيَّ شيء يكتب ولا حسنة له؟ قيل له: الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه، ويكون شاهداً على ذلك وإن لم يكتب. والله أعلم.

الثالثة ـ سئل سفيان: كيف تعلم الملائكة أن العبدَ قد هم بحسنة أو سيئة؟ قال: إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن. وقد مضى في «ق» عند قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨] زيادة بيان لمعنى هذه الآية. وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لمفارقة الملك العبد عند ذلك. وقد مضى في آخر «آلِ عِمران» القول في هذا. وعن الحسن: يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم. وقيل: يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ تقسيم مثل قوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧]. وقال: ﴿**يومئذ يتفرقون**[١] * **فأما الذين آمنوا**﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٥] الآيتين. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يصيبهم لهبُها وحَرُّها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ أي يوم الجزاء والحساب، وكرر ذكره تعظيماً لشأنه؛ نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١ ـ ٣] وقال ابن عباس فيما روي عنه: كل شيء من القرآن من قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾؟ فقد أدراه، وكل شيء من قوله: «وما يُدْرِيك» فقد طُوِي عنه. ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «يومُ» بالرفع على البدل من «يومُ الدينِ» أو رداً على اليوم الأوّل، فيكون صفة ونعتاً لـ«يوم الدينِ». ويجوز أن يرفع بإضمار هو. الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلا أنه، نصب؛ لأنه مضاف غير متمكن؛ كما تقول: أعجبني يوم يقومُ زيد. وأنشد المبرد:

مِن أيِّ يومَيَّ مِنَ الموتِ أَفِرّ ... أيومَ لم يقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة، عن الترجمة عن اليومين الأوّلين، إلا أنهما

---

(١) في النسخ «يصَّدَّعون» وهو سبق قلم.

نُصِبَا في اللفظ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محضٍ. وهذا اختيار الفراء والزجّاج. وقال قوم: اليوم الثاني منصوب على المحل، كأنه قال في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. وقيل: بمعنى: إن هذه الأشياء تكون يومَ، أو على معنى يُدانون يومَ؛ لأن الدِّين يدل عليه، أو بإضمار أذكر. ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾ لا ينازعه فيه أحد؛ كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦ ـ ١٧].

تمت السورة والحمد لله.

سورة المطففين

مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل
ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وهي ست وثلاثون آية

قال مقاتل: وهي أوّل سورة نزلت بالمدينة. وقال ٱبن عباس وقتادة: مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ إلى آخرها، مكي. وقال الكلبيّ وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة.

بِسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ روَى النَّسائي عن ٱبن عباس قال:

[٦٢٦٣] لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وعن ٱبن عباس أيضاً قال: هي: أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا ٱشتَروا ٱستوْفَوا بكيل راجح، فإذا باعوا بَخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة ٱنتهوا، فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وقال قوم[1]: نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، وٱسمه عمرو؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر؛ قاله أبو هريرة رضي الله عنه.

[٦٢٦٣] جيد. أخرجه النسائي في التفسير ٦٧٤ وابن ماجه ٢٢٢٣ والحاكم ٢/ ٣٣ والواحدي ٨٤٨ والطبري ٣٦٥٧٧ من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن صحيح، وقد صححه السيوطي في الدر ٦/ ٥٣٦.

---

(١) ذكره الواحدي ٨٥٠ عن السدي بدون إسناد وانظر الآتي بإثر ٦٢٦٥.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾ أي شدة عذاب في الآخرة. وقال ٱبن عباس: إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صَديد أهل النار، فهو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ أي الذين يَنْقصون مكاييلهم وموازينهم. ورُوِي عن ٱبن عمر قال: المطفِّف: الرجل يستأجر المكيال وهو يعلم أنه يَحِيف في كيله فوزره عليه. وقال آخرون: التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث. وفي الموطّأ قال مالك: ويقال لكل شيء وفاءٌ وتطفيف. وروي عن سالم بن أبي الجعْد قال: الصلاة بمكيال، فمن أوفَى له ومن طَفَّف فقد علمتم ما قال الله عز وجل في ذلك: «ويل لِلمطففين».

الثالثة ـ قال أهل اللغة: المطفِّف مأخوذ من الطَّفِيف، وهو القليل، والمطفِّف هو المقِلّ حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن. وقال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا مطفِّف؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف، وإنما أخذ من طَفِّ الشيءِ وهو جانبه. وطِفاف المَكُّوك وطَفافه بالكسر والفتح: ما ملأ أصباره، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه؛ وفي الحديث:

[٦٢٦٤] «كلكم بنو آدم طَفَّ الصاعِ لم تملؤوه». وهو أن يقرب أن يمتلىء فلا يفعل؛ والمعنى بعضُكم من بعض قريب، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى. والطُّفاف والطُّفافة بالضم: ما فوق المكيالِ. وإناء طُفاف: إذا بلغ المِلء طفافه؛ تقول منه: أطفَفْت. والتطفيف: نقص المِكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره، أي جوانبه؛ يقال: أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها. وقول ٱبن عمر[(١)] حين ذكر النبي ﷺ سَبْق الخيل: كنت فارساً يومئذ فسبقت الناس حتى طَفَّف بي الفَرَس مسجدَ بني زُرَيق، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي.

الرابعة ـ المطفِّف: هو الذي يُخْسر في الكيل والوزن، ولا يوفى حَسْب ما بيناه؛ وروى ٱبن القاسم عن مالك: أنه قرأ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فقال: لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُب[(٢)]، ولكن أرسلْ وصُبّ عليه صَبّاً، حتى إذا ٱستوفى أرسل يدك ولا تُمْسِك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطُّفاف،[(٣)] وقال: إن البركة في رأسه. قال: وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديد.

[٦٢٦٤] أخرجه أحمد ٤/١٤٥ ـ ١٥٨ من حديث عقبة بن عامر في أثناء حديث وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أي لا تغش ولا تخدع.
(٣) هذا معضل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ قال الفَراء: أي من النِاس؛ يقال: أكتلت منك: أي أستوفيت منك، ويقال أكتلت ما عليك: أي أخذت ما عليك. وقال الزَّجاج: أي إذا أكتالوا من الناس أستوفَوا عليهم الكيل؛ والمعنى: الذين إذا أستوفوا أخذوا الزيادة، وإذا أوفَوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضَون للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبري: «على» بمعنى عند.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أي كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام، فتعدى الفعل فَنَصب؛ ومثله نصحتك ونصحت لك، وأمرتك به وأمرتكه؛ قاله الأخفش والفراء. قال الفراء: وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَر الناسُ أتينا التاجرَ فيكيلنا المُدّ والمُدّين إلى الموسم المقبل. وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على «كالُوا» و «وزنوا» حتى تصل به «هُمْ» قال: ومن الناس من يجعلها توكيداً، ويجيز الوقف على «كالُوا» و «وزَنوا» والأوّل الاختيار؛ لأنها حرف واحد. هو قول الكسائيّ. قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، ويقف على «كالوا» و «وزنوا» ويبتدىء «هُمْ يُخْسِرُون»[1] قال: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما: الخطّ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا «كالوا» و «وزنوا» بالألف، والأخرى: أنه يقال: كِلْتك ووزنتُك بمعنى كلت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي؛ كما يقال: صِدْتُك وصِدْت لك، وكسبتُك وكسبْتُ لَك، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك. قوله: ﴿يُخْسِرُونَ ۝٣﴾: أي يَنْقُصون؛ والعرب تقول: أخسرت الميزان وخَسَرته. و «هم» في موضع نصب، على قراءة العامة، راجع إلى الناس، تقديره «وإذا كالوا» الناس «أو وزنوهم يُخْسِرون» وفيه وجهان: أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف الجار، وأوصل الفعل، كما قال:

ولقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وعساقِلاً ... ولقد نهيتُك عن بنات الأَوبرِ

أراد: جنيت لك، والوجه الآخر: أن يكون على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، والمضاف هو المكيل والموزون. وعن أبن عباس رضي الله عنه: إنكم معاشر الأعاجم وَلِيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجم، لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعاً، وكانا مُفَرقين في الحَرَمين؛ كان أهل مكة

(١) في الأصل «يجسرون».

يزِنون، وأهل المدينة يكيلون. وعلى القراءة الثانية «هُمْ» في موضع رفع بالابتداء؛ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون. ولا يصح؛ لأنه تكون الأُولى مُلغاة، ليس لها خبر، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها: وإذا كالوا هم يَنْقُصون، أو وزنوا هم يُخْسرون.

الثانية ـ قال ٱبن عباس قال النبي ﷺ:

[٦٢٦٥] «خمس بخمسٍ: ما نقض قوم العهد إلا سَلَّط الله عليهم عدوّهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيلَ إلا مُنعوا النَّبَاتَ، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حَبَس الله عنهم المَطَر» خرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ٱبن عمر[١]. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال مالك بن دينار: دَخَلْت على جار لي قد نزل به الموت، فجعل يقول: جَبَلين من نار! جبلين من نار! فقلت: ما تقول؟ أتهجر؟[٢] قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان، أكيل بأحدهما، وأكتال بالآخر؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، حتى كَسَرتهما، فقال: يا أبا يحيى، كلما ضربت أحدهما بالآخر ٱزداد عِظَماً، فمات من وجَعه. وقال عكرمة: أشهدُ على كل كَيال أو وزّان أنه في النار. قيل له: فإن ٱبنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. قال الأصمعيّ: وسمعت أعرابية تقول: لا تَلْتَمِس المروءة ممن مروءته في رؤوس المكاييل، ولا ألسنة الموازين. ورُوي ذلك عن عليّ رضي الله عنه، وقال عبدُ خير: مر عليّ رضي الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح، فأكفأ الميزان، ثم قال: أقم الوزن بالقسط؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت. كأنه أمره بالتسوية أوّلاً ليعتادها، ويُفضل الواجبَ من النفل. وقال نافع: كان ٱبن عمر يمر بالبائع فيقول: ٱتق الله وأوف الكيل والوزن بالقسط، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم. وقد رُوِي أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبيّ ﷺ إلى خيبر وٱستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة، فقال أبو هريرة: فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ في الركعة الأولى «كهيعص» وقرأ في الركعة الثانية «ويل لِلمطففِين» قال أبو هريرة: فأقول في صلاتي: ويْل لأبي فلان، كان له مكيالان إذا ٱكتال ٱكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص[٣].

[٦٢٦٥] أخرجه الديلمي ٢٩٧٨ وغيره وتقدم تخريجه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هجر في نومه، ومرضه يهجر هجراً: هذى.

(٣) أخرجه البزار ٢٢٨١ بإسناد لين، وتقدم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطرون التطفيف ببالهم، ولا يُخَمِّنون تخميناً ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ فمسؤولون عما يفعلون. والظن هنا بمعنى اليقين؛ أي ألا يُوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظن بمعنى التردد، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنُّوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ شأنه وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ العامل في «يومَ» فعل مضمر، دل عليه «مبعوثون». والمعنى يبعثون «يومَ يقوم الناس لرب العالمين». ويجوز أن يكون بدلاً من يوم في «لِيوم عظِيم»، وهو مبني. وقيل: هو في موضع خفض؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن. وقيل: هو منصوب على الظرف أي في يوم، ويقال: أقم إلى يومَ يخرج فلانٌ، فتنصب يوم، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذ يخفضون ويقولون: أقم إلى يومِ خروج فلان. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير: إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم.

الثانية ـ وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيلٍ ولا وزْن. وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظن، ووصفِ اليوم بالعظيم، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته برب العالمين، بيان بليغ لِعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، في كل أخذٍ وإعطاءٍ، بل في كل قول وعمل.

الثالثة ـ قرأ ابن عمر:

[٦٢٦٦] ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ فبكى

[٦٢٦٦] غريب بهذا السياق. والمرفوع منه مع اختلاف يسير فيه أخرجه مسلم ٢٨٦٤ والترمذي ٢٤٢١ وأحمد ٦/٣ ـ ٤ والبغوي ٤٥٨/٤ والطبراني ٢٠/٦٠٢ وابن حبان ٧٣٣٠ من حديث المقداد وورد من حديث عقبة بن عامر أخرجه أحمد ١٥٧/٤ وابن حبان ٧٣٢٩ والحاكم ٥٧١/٤ وصححه ووافقه الذهبي. وحديث ابن عمر سيأتي برقم ٦٢٦٨ مختصراً. وليس فيه.

حتى سَقَط، وأمتنع من قراءة ما بعده، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول «يومَ يقوم الناس لرب العالمين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فمنهم من يبلغ العَرَق كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حِقْويه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يبلغ أذنيه، حتى إن أحدهم ليغيب في رَشْحه كما يغيب الضِّفدع»[1]. ورَوى ناس عن أبن عباس قال: يقومون مقدار ثلثمائة سنة. قال: ويهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة. ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال:

[٦٢٦٧] «يقومون ألف عام في الظُّلة». ورَوَى مالك عن نافع عن أبن عمر عن النبيّ ﷺ قال:

[٦٢٦٨] «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وعنه أيضاً عن النبيّ ﷺ:

[٦٢٦٩] «يقوم مائة سنة». وقال أبو هريرة قال النبيُّ ﷺ لبشير الغِفاريّ:

[٦٢٧٠] «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين، لا يأتيهم فيه خبر، ولا يؤمر فيه بأمر» قال بشير: المستعان الله.

قلت: قد ذكرناه مرفوعاً ـ من حديث أبي سعيد الخدريّ عن النبي ﷺ:

[٦٢٧١] «إنه لَيُخَفَّف عن المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة

[٦٢٦٧] غريب هكذا. وورد نحوه من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه الطبراني كما في المجمع ١٨٣٤٩ وقال الهيثمي: فيه هشام بن بلال لم أعرفه. وانظر الدر المنثور ٦/ ٥٣٧ فقد ذكر ههنا روايات كثيرة مختلفة.

[٦٢٦٨] صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٣٨ ومسلم ٢٨٦٢ وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٣٣ وأحمد ٢/ ١٢٥ والترمذي ٢٤٢٢ وابن ماجه ٤٢٧٨ وهناد في «الزهد» ٣٢٦ والطبري ٣٦٥٧٩ و ٣٦٥٨٠ و ٣٦٥٨٢ و ٣٦٥٨٤ و ٣٦٥٨٥ و ٣٦٥٨٧ من طرق كلهم من حديث ابن عمر.

[٦٢٦٩] أخرجه الطبري ٣٥٨٦ بسنده عن ابن عمر موقوفاً، وهو أشبه من المرفوع، وذلك للاضطراب في مقدار ذلك الزمن. فقد ذكر القرطبي أقوالاً عديدة في ذلك منها أنهم يقومون ألف سنة ومنها أنهم يقومون ثلاثمائة سنة... إلخ وانظر الدر المنثور ٦/ ٥٣٧.

[٦٢٧٠] أخرجه الطبري ٣٦٥٩٠ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده عبد السلام بن عجلان قال أبو حاتم: يكتب حديثه. وتوقف غيره في الاحتجاج به ا هـ الميزان فالحديث غير قوي.

[٦٢٧١] أخرجه أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلىٰ ١٣٩٠ وصححه ابن حبان ٧٣٣٤ من حديث أبي سعيد مع أن مداره علىٰ درّاج عن أبي الهيثم لكن له شواهد منها حديث أبي هريرة أخرجه أبو يعلىٰ ٦٠٢٥ وصححه ابن حبان ٧٣٣٣ وإسناده علىٰ شرط البخاري لكن فيه «كتدلي الشمس للغروب إلىٰ أن تغرب» وقد مضىٰ تخريجه. وانظر «المجمع» ١٠/ ٣٣٦/ ١٨٣٤٨.

---

(١) أي كما يغيب الضفدع في الماء.

يصلّيها في الدنيا» ـ في «سأل سائل». وعن ابن عباس: يَهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة. وقيل: إن ذلك المقام على المؤمن كزوال الشمس؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢] ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣] جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده. ومنه آمين. وقيل: المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين؛ قاله ابن جُبير. وفيه بُعد؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحة ثابتة، وحسُبك بما في صحيح مسلم والبخاريّ والترمذيّ من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ:

[٦٢٧٢] «يوم يقوم الناس لِرب العالمِين» قال: «يقوم أحدهم في رشْحه إلى نصف أذنيه». ثم قيل: هذا القيام يوم يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء.

الرابعة ـ القيام لله رب العالمين سبحانه حَقير بالإضافة إلى عظمته وحقه، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فاختلَف فيه الناس؛ فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه. وقد رُوي أن النبيّ ﷺ قام إلى جعفر بن أبي طالب واعتنقه[(١)]، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه[(٢)]. وقول النبي ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بن مُعاذ: «قوموا إلى سيِّدكم»[(٣)]. وقال أيضاً: «من سره أن يتمثل له الناس قياماً فَلْيتبوأْ مقعده من النار»[(٤)]. وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظَر ذلك واعتقده لنفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه. وقد مضى في آخر سورة «يوسف» شيء من هذا.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

[٦٢٧٢] مضىٰ برقم: ٦٢٦٨.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم في خبر توبة كعب في سورة التوبة.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية: ﴿كَلَّآ﴾: ردْع وتنبيه؛ أي ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان، أو تكذيب بالآخرة، فليرتدعوا عن ذلك. فهي كلمة رَدْع وزَجْر، ثم ٱستأنف فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾. وقال الحسن: ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى حَقًّا. ورَوَى ناس عن ٱبن عباس «كَلَّا» قال: ألا تصدقون؛ فعلى هذا: الوقفُ «لِرب العالِمين». وفي تفسير مقاتل: إن أعمال الفجار. وروى ناس عن ٱبن عباس قال: إن أرواح الفجار وأعمالهم «لفِي سجِينٍ». وروى ٱبن أبي نجَيح عن مجاهد قال: سِجِّين صخرة تحت الأرض السابعة[1]، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها. ونحوه عن ٱبن عباس وقتادة وسعيد بن جُبير ومقاتل وكعب؛ قال كعب: تحتها أرواح الكفار تحت خدّ إبليس. وعن كعب أيضاً قال: سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة، مكتوب فيها ٱسم كل شيطان، تلقى أنفس الكفار عندها. وقال سعيد بن جبير: سجين تحت خد إبليس. يحيى بن سلام: حجر أسود تحت الأرض، يكتب فيه أرواح الكفار. وقال عطاء الخُراساني: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها إبليس وذرّيته. وعن ٱبن عباس قال: إن الكافر يحضُره الموت، وتحضره رسل الله، فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه، أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يُرُوه من الشر، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سِجِّين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا فيها كتابه. وعن كعب الأحبار في هذه الآية قال: إن رُوح الفاجر إذا قبضت يُصْعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ثم يُهْبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبلَها، فتدخل في سبع أرضين، حتى يُنْتَهَىٰ بها إلى سِجِّين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من سجين من تحت خدّ إبليس رَقّ، فيرقم فيوضع تحت خد إبليس. وقال الحسن: سِجِّين في الأرض السابعة. وقيل: هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم. قال مجاهد: المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء. وقال: سجين صخرة في الأرض السابعة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال:

[٦٢٧٣] «سجين جُب في جهنم وهو مفتوح» وقال في الفلق: «إنه جُبّ مغطى».

[٦٢٧٣] باطل. أخرجه الطبري ٣٦٦١٤ من حديث أبي هريرة لكن علىٰ التقديم والتأخير. وفيه شعيب بن صفوان، قال أبو حاتم لا يحتج به وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. وقال الحافظ ابن كثير ٥١٧/٤: هو حديث غريب منكر لا يصح اهـ وقد فسر الله عز وجل سجين بأنه «كتاب مرقوم» فما سواه باطل.

---

(١) هذا الأثر ونحوه من الإسرائيليات.

وقال أنس: هي دَرَكَة في الأرض السفلى. وقال أنس قال النبي ﷺ:

[٦٢٧٤] «سجين أسفلَ الأرض السابعة». وقال عِكرمة: «سجين: خسار وضلال؛ كقولهم لمن سقط قدره: قد زلق بالحضيض. وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج: «لَفِي سِجِينٍ» لفي حبس وضيق شديد، فِعِّيل[1] من السَّجْن؛ كما يقول: فِسِّيق وشِرِّيب؛ قال ٱبن مقبل:

وَرُفقةٍ يضربون البَيْضَ ضاحِيةً ضَرْباً تواصتْ به الأبطالُ سجِّيناً

والمعنى: كتابهم في حبس؛ جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم، أو لأنه يَحُل من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَلّ الزجر والهوان. وقيل: أصله سِجِّيل، فأبدلت اللام نوناً. وقد تقدّم ذلك. وقال زيد بن أسلم: سِجِّين في الأرض السافلة، وسجيل في السماء الدنيا. القُشيريّ: سِجِّين: موضع في السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليل على خبث أعمالهم، وتحقير الله إياها؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار: «يشهده المقربون». ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك. ثم فسره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ أي مكتوب كالرقْم في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحى. وقال قتادة: مرقوم أي مكتوب، رقم لهم بشر، لا يُزاد فيهم أحد ولا يَنْقُص منهم أحد. وقال الضحاك: مرقوم: مختوم، بلغة حمير؛ وأصل الرقم: الكتابة؛ قال:

سأرقم في الماءِ القَراحِ[1] إليكُمُ على بعدِكُم إن كان لِلماءِ راقِمُ

وليس في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربياً، كما لا يدل في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ بل هو تعظيم لأمر سجين. وقد مضى في مقدّمة الكتاب ـ والحمد لله ـ أنه ليس في القرآن غير عربيّ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ أي شدةٌ وعذاب يوم القيامة للمكذبين. ثم بيَّن تعالى أمرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾ أي بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد. ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ أي فاجر جائز عن الحق، معتد على الخلق في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيم في ترك أمر الله. وقيل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل

[٦٢٧٤] ضعيف جداً. أخرجه البغوي ٤/٤٢٨ من حديث البراء وفيه المسيب بن شريك وهو متروك. وقد أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٨٩٨ عن مجاهد من قوله وهو مأخوذ عن الإسرائيليات لا حجة فيه البتة. وذكره المؤلف آنفاً من قول كعب الأحبار وهو أشبه وأولىٰ.

---

(١) القراح: الماء الذي لا ثقل فيه.

ونظرائهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ وقراءة العامة «تُتْلَى» بتاءين، وقراءة أبي حَيْوة وأبي سِماك وأشهب العُقَيلي والسُّلَمي: «إذا يُتْلَى» بالياء. وأساطير الأولين: أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها. واحدها أُسْطورة وإسطارة، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: «كَلّا»: ردْع وزجْر، أي ليس هو أساطيرَ الأوّلينَ. وقال الحسن: معناها حقاً «رَانَ على قُلُوبهمْ». وقيل: في الترمذيّ:

[٦٢٧٥] عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نُكْتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صُقِل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلُوَ على قلبه، وهو (الرَّانُ) الذي ذكر الله في كتابه «كَلّا بلْ رَانَ على قُلُوبهمْ ما كانوا يَكْسِبون»». قال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب. قال مجاهد: هو الرجل يُذْنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تُغَشِّي الذنوب قلبه. قال مجاهد: هي مثل الآية التي في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ . . . [البقرة: ٨١] الآية. ونحوه عن الفراء؛ قال: يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَّيْنُ عليها. ورُوي عن مجاهد أيضاً قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذنب انقبض، وضم أخرى، حتى ضم أصابعه كلها، حتى يُطْبَع على قلبه. قال: وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّيْن، ثم قرأ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ومثله عن حذيفة رضي الله عنه سواء. وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانياً صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخُل، أو كالغِربال، لا يعي خيراً، ولا يثبُت فيه صلاح. وقد بيّنا في «البقرة» القولَ في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا معنى لإعادتها. وقد روى عبد الغني بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئاً الله أعلم بصحته[1]؛ قال:

[٦٢٧٥] تقدم في أول سورة البقرة.

(١) مداره علىٰ موسىٰ بن عبد الرحمن، وهو كذاب، قال ابن حبان: وضع علىٰ ابن جريج كتاباً في التفسير راجع «الميزان» ٤/٢١١.

هو الرَّان الذي يكون على الفخذين والساق والقدم، وهو الذي يُلْبس في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطر الذي يخطر بقلب الرجل. وهذا مما لا يُضْمن عُهْدة صحتِه. فالله أعلم. فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا. وكذلك أهلُ اللغة عليه؛ يقال: رَانَ على قلبه ذنبُه يَرِينُ رَيْنا ورُيونا أي غلب. قال أبو عُبيدة في قوله: «كَلاَّ بلْ رَانَ علَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكسِبُونَ» أي غلب؛ وقال أبو عُبيد: كل ما غلبك وعَلاَكَ فقد ران بك، ورانك، وران عليك؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قلب فاجِرٍ   فتابَ مِن الذنبِ الذي رَانَ وانجلَى

ورانتْ الخمر على عقله: أي غلبته، وران عليه النُّعاسُ: إذا غطّاه؛ ومنه قول عمر في الأُسَيفع ـ أُسَيْفعِ جُهَيْنة ـ: فأصبح قد رِينَ به. أي غلبته الديون، وكان يَدَّانُ؛ ومنه قول أبي زُبَيد يصفَ رجلاً شرب حتى غلبه الشراب سُكْراً، فقال:

ثــم لمــا رآه رانــتْ بِــهِ الخمــ   ــرُ وأَنْ لا تَــرِينَــه بِــاتقــاءِ

فقوله: رانت به الخمر، أي غلبت على عقله وقلبه. وقال الأمويّ: قد أران القوم فهم مُرِينون: إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم، فلا يستطيعون احتماله. قال أبو زَيد يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْنا: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له وقال: أبو مُعاذ النحويّ: الرَّين: أن يسودّ القلب من الذنوب، والطَّبَع أن يُطْبَع على القلب، وهذا أشد من الرَّين، والإقفال أشد من الطَّبَع. الزَّجّاج: الرَّيْن: هو كالصدأ يُغَشِّي القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، يقال: غِين على قلبه: غُطِّي. والغَين: شجر ملتف، الواحدة غيناء، أي خضراء، كثيرة الورق، ملتفة الأغصان. وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب. وذكر الثعلبيّ عن ابن عباس: «ران على قلوبهم»: أي غطّي عليها. وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل «ران» بالإمالة؛ لأن فاء الفعل الراء، وعينه الألف منقلبة من ياء، فحسنت الإمالة لذلك. ومن فتح فعلى الأصل؛ لأن باب فاء الفعل في (فَعَلَ) الفتح، مثل كال وباع ونحوه. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ووقف حفص «بَلْ» ثم يبتدىء «رَانَ» وقفاً يُبَيِّن اللام، لا للسكت.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ أي حقاً «إنهم» يعني الكفار ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾. وقيل: «كلاَّ» ردع وزجر، أي ليس كما يقولون، بل ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾. قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرىَ في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون.

وقال جل ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه، وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دل على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي ملازموها، ومحترقون فيها غير خارجين منها، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]. ويقال: الجحيم الباب الرابع من النار. ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم أي تقول لهم خزنة جهنم ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ رسل الله في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ «كَلَّا» بمعنى حقاً، والوقف على «تكذبون». وقيل: أي ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا، بل كتابهم في سجين، وكتاب المؤمنين في عِليين. وقال مقاتل: كَلّا، أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه. ثم ٱستأنف فقال: «إن كتاب الأبرارِ» مرفوع في عليين على قدر مرتبتهم. قال ٱبن عباس: أي في الجنة. وعنه أيضاً قال: أعمالهم في كتاب الله في السماء. وقال الضحاك ومجاهد وقتادة: يعني السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. ورَوَى ٱبن الأجلح عن الضحاك قال: هي سِدْرة المنتهى، ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها، فيقولون: ربِّ! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب. فذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾. وعن كعب الأحبار قال: إن روح المؤمن إذا قبضت صُعد بها إلى السماء، وفُتحت لها أبواب السماء، وتلقَّتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم من تحت العرش، رَقّ فيرقم ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقربون. وقال قتادة أيضاً: «فِي عِلِّيِّن» هي فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى. وقال البَرَاء بن عازِب قال النبي ﷺ:

[٦٢٧٦] عِلِّيون في السماء السابعة تحت العرش». وعن ٱبن عباس أيضاً: هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه. وقال الفراء: عِليون ٱرتفاع بعد ٱرتفاع. وقيل: عليون أعلى الأمكنة. وقيل: معناه علوّ في علوّ مضاعف، كأنه لا غاية له؛ ولذلك جمع بالواو والنون. وهو معنى قول الطبريّ. قال الفراء: هو ٱسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من لفظه؛ كقولك: عشرون وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية، قالوا في المذكر والمؤنث بالنون. وهي معنى قول الطبري. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع، كما تقول: هذه قِنَّسْرون، ورأيت قِنسرين. وقال يونس النحوي: واحدها: عِليّ وعِلية. وقال أبو الفتح: عِليين: جمع عِليّ، وهو فِعِّيل من العلوّ. وكان سبيله أن يقول عِلِّية كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنها من العلو، فلما حذف التاء من عِلية عوضوا منها الجمع بالواو والنون، كما قالوا في أرضين. وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم الملأ الأعلى؛ كما يقال: فلان في بني فلان؛ أي هو في جملتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديث ٱبن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال:

[٦٢٧٧] «إن أهل عِليين لينظرون إلى الجنة من كذا، فإذا أشرف رجل من أهل عِليين أشرقت الجنة لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟ فيقال أشرف رجل من أهل عِليين الأبرار أهل الطاعة والصدق». وفي خبر آخر:

[٦٢٧٨] «إن أهل الجنة ليرون أهل عِليين كما يُرى الكوكب الدُّرِّيُّ في أفق السماء» يدل على أن عِليين ٱسم الموضع المرتفع. وروى ناس عن ابن عباس في قوله «عِليين» قال: أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة. ثم قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون؟ على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسره له فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾. وقيل: إن «كتاب مرقوم» ليس تفسيراً لِعِليين، بل تم الكلام عند قوله «عليون» ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار؛ قاله القشيريّ.

[٦٢٧٦] ضعيف جداً. أخرجه البغوي ٤/٤٢٨ من طريق الثعلبي عن البراء مرفوعاً وفي إسناده المسيب بن شريك متروك الحديث قاله الإمام مسلم وغيره. وورد من قول ابن عباس وكعب الأحبار وغيرهما وهو أشبه راجع الدر ٦/٥٤١.

[٦٢٧٧] ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ من حديث أبي سعيد دون عجزه، وإسناده ضعيف لضعف عطية العوفي.

[٦٢٧٨] صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١ من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

وروي: أن الملائكة تصعد بعمل العبد فيستقلّونه[1] [ويحتقرونه،][2] فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفَظَة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه أخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله، فاجعلوه في سِجِّين.

قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. وقال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل عليه السلام، فإذا عمل المؤمن عمل البر، صَعِدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض، حتى ينتهي بها إلى إسرافيل، فيختم عليها ويكتب فهو قوله: «يشهده المقربون» أي يشهد كتابتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ أي أهل الصدق والطاعة. ﴿لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي نَعْمة، والنَّعمة بالفتح: التنعيم؛ يقال: نَعَّمه الله وناعمه فتنعم، وامرأة منعَّمة ومناعَمة بمعنى. أي إن الأبرار في الجنات يتنعمون. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي الأسرة في الحِجال ﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد. وقال مقاتل: ينظُرون إلى أهل النار. وعن النبيّ ﷺ: «ينظرون إلى أعدائهم في النار»[3] ذكره المَهْدَوِيّ. وقيل: على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي بهجته وغضارته ونوره؛ يقال: نضر النبات: إذا أزهر ونوّر. وقراءة العامة «تعرِفُ» بفتح التاء وكسر الراء «نَضْرةَ» نصباً؛ أي تعرف يا محمد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق: «تُعْرَف» بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول «نضرة» رفعاً. ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي من

---

(١) وقع في كافة نسخ الأصل «فيستقبلونه» والتصويب عن تفسير الكشاف ٤/ ٧٢٢. والدر المنثور ٦/ ٥٤٢.

(٢) مستدرك من الدر المنثور ٦/ ٥٤٢ وبه يتضح المعنىٰ والله أعلم.

(٣) باطل. وقد ذكره البغوي ٤/ ٤٣١ فجعله من قول أبي صالح. وأخرجه عبد الرزاق ٣٥٤٦ عن قتادة عن كعب الأحبار من قوله، وهو أشبه من المرفوع بل هو من بدع التأويل. والمهدوي يروي الموضوعات الكثيرة كالثعلبي والواحدي وغيرهما.

شراب لا غِش فيه. قاله الأخفش والزجّاج. وقيل، الرحيق الخمر الصافية. وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر. والمعنى واحد. الخليل: أصفى[1] الخمر وأجودها.
وقال مقاتل وغيره: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة، قال حسان:

يَسْقـون مَـنْ وَرَدَ البـريـصَ علَيْهِـمُ ... بَـرَدَى يُصَفَّـق بـالـرحيـقِ السلسـلِ

وقال آخر[2]:

أمْ لا سبِيـلَ إلـى الشبـاب وذكـره ... أَشْهـى إلـيّ مِـن الـرحيـقِ السَّلْسَـلِ

قوله تعالى: ﴿ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ قال مجاهد: يختم به آخر جُرْعة. وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، اُنختم ذلك بخاتم المسْك. وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك. ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه. وهو حسن؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكَدَر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وعن مسروق عن عبد الله: قال المختوم الممزوج. وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يَفُكَّ ختامها الأبرار. وقرأ عليّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي «خاتَمه» بفتح الخاء والتاء وألف بينهما. قاله علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتَمه مسكاً، تريد آخره. والخاتم والخِتام متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والخِتام المصدر، قاله الفراء. وفي الصحاح: والخِتام: الطين الذي يُختم به. وكذا قال مجاهد وابن زيد: خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطين. حكاه المهدويّ. وقال الفرزدق:

* وبِت أَفُضّ أغلاق الخِتامِ *[3]

وقال الأعشى:

* وأبرزها وعليها خَتَمْ *[4]

أي عليها طينة مختومة؛ مثل نَفْضٍ بمعنى منفوضٍ، وقَبْضٍ بمعنى مقبوضٍ. وذكر ابن المبارك وابن وهب، واللفظ لابن وهب، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «خِتامه مِسْك»: خَلْطه، ليس بخاتم يختم، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم: إن خِلْطه

---

(١) وقع في الأصل «أقصى» والتصويب عن تفسير الماوردي.
(٢) هو أبو كبير الهذلي.
(٣) صدر البيت * فبتن جنابتي مصرعات *.
(٤) صدر البيت * وصهباء طاف يهوديها *.

من الطِّيب كذا وكذا. إنما خِلْطه مسك؛ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختِمون به آخر أشربتهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها. وروى أُبَيُّ بن كعب قال:

[٦٢٧٩] قيل: يا رسول الله ما الرحيق المختوم؟ قال: «غُدْران الخمر». وقيل: مختوم في الآنية، وهو غير الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي فليرغب الراغبون؛ يقال: نَفَسْت عليه الشيء أَنْفَسه نفاسة: أي ضنِنت به، ولم أحبَّ أن يصير إليه. وقيل: الفاء بمعنى إلى، أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل؛ نظيره: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]. ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل؛ ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور. وروي عن عبد الله قال: تسنيم عين في الجنة يشرب بها المقرّبون صِرْفاً، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب. وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. [السجدة: ١٧] وقيل: التسنيم عين تجري في الهواء بقدرة الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهل الجنة على قدر مائها، فإذا امتلأت أمسك الماء، فلا تقع منه قطرة على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة. ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش. وكذا في مراسيل الحسن. وقد ذكرناه في سورة «الإنسان». ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدنٍ، وهم أفاضل أهل الجنة، صِرْفاً، وهي لغيرهم مِزاج. و«عينا» نصب على المدح. وقال الزجاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنِيم معرفة، ليس يعرف له اشتقاق، وإن جعلته مصدراً مشتقاً من السنام فـ «عينا» نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤] وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم. وعند الأخفش بـ «يُسْقَون» أي يسقون عينا أو من عين. وعند المبرد بإضمار أعني على المدح.

[٦٢٧٩] لم أجد له أصلاً. ذكره الماوردي في تفسيره ٤/ ٢٣٠ وقال مخرجه: لم أجده اهـ وبحثت عنه فلم أجده لا في الدر المنثور ولا غيره، وأمارة الوضع لائحة عليه، وقد اختلف المفسرون في الرحيق المختوم ولو وجد حديث مرفوع لما اختلفوا في ذلك راجع تفسير الماوردي وابن كثير ٤/ ٥١٩ - ٥٢٠ والدر ٦/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم، والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك. روى ناس عن ابن عباس قال: هو الوليد بن المغيرة، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث؛ وأولئك ﴿ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ من أصحاب محمد ﷺ مثل عَمار، وخَبَّاب وصُهَيب وبلال ﴿ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ على وجه السخرية. ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ ﴾ عند إتيانهم رسول الله ﷺ ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي يعيِّرونهم بالإسلام ويعيبونهم به؛ يقال: غمزت الشيء بيدي؛ قال:

وكنت إذا غمزتُ قناةَ قومٍ   كَسَرْت كُعوبَها أو تستقيما

وقالت عائشة: كان النبي ﷺ إذا سجد غمزني، فقبضت رجلي[1]. الحديث؛ وقد مضى في «النساء». وغمزته بعيني. وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال غمزه: أي عابه، وما في فلان غَمْزة أي عيب. وقال مقاتل[2]: نزلت في عليّ بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي ﷺ فَلَمَزهُمُ المنافقون، وضحكوا عليهم وتغامزوا. ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ ﴾ أي انصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي مُعَجَّبين منهم. وقيل: مُعْجَبون بما هم عليه من الكفر، متفكهون بذكر المؤمنين. وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسلميّ: «فَكِهِين» بغير ألف. الباقون بألف. قال الفراء: هما لغتان مثل طَمِع وطامِع وحذِر، وحاذِر وقد تقدم في سورة «الدخان» والحمد لله. وقيل: الفكِه: الأشِر البطر والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد ﷺ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ في اتباعهم محمداً ﷺ ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ يعني هذا اليوم الذي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفرد به مقاتل وهو غير حجة فيما ينفرد به وكذا ذكره السمرقندي ٣/ ٤٥٨ والزمخشري ٤/ ٧٢٤ بدون إسناد ومن غير عزو لقائل وهو غير صحيح فإن علي بن أبي طالب سيد الشجعان وأحد صناديد الصحابة وأنىٰ للمنافقين أن ينالوا منه ومن أمثاله. فتنبه والله أعلم.

هو يوم القيامة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بمحمد ﷺ ﴿ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا. نظيره في آخر سورة «المؤمنين» وقد تقدم. وذكر ٱبن المبارك: أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة في قوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ قال: ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول: إن بين الجنة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا ٱطلع من بعض الكُوَى؛ قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الصافات: ٥٥] قال: ذُكِر لنا أنه ٱطلع فرأى جماجم القوم تَغْلي. وذكر ٱبن المبارك أيضاً: أخبرنا الكلبيّ عن أبي صالح في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥] قال: يقال لأهل النار وهم في النار: ٱخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا ٱنتهوا إلى أبوابها غُلِّقت دونهم؛ فذلك قوله؛ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥] ويضحك منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم فذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾. ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وقد مضى هذا في أول سورة «البقرة». ومعنى «هل ثُوِّب» أي هل جُوزي بسخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك. وقيل: إنه متعلق بـ«ينظرون» أي ينظرون: هل جُوزي الكفار؟ فيكون معنى هل التقرير وموضعها نصباً بـ«ينظرون». وقيل: ٱستئناف لا موضع له من الإعراب. وقيل: هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض «هل ثُوِّب الكفار» أي أُثيب وجُوزي. وهو من ثاب يثوب أي رجع؛ فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشَّر. ختمت السورة والله أعلم.

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آية

بسم اللَّهِ الرَّحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾ أي ٱنصدعت، وتفطرتْ بالغَمام، والغَمام مثل السحاب الأبيض. وكذا رَوَى أبو صالح عن ٱبن عباس. وروى عن عليّ عليه السلام قال: تُشَقّ من المجرة. وقال: المَجَرَّة باب السماء. وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها. ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ أي سمِعت، وحق لها أن تسمع. رُوِي معناه عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما؛ ومنه قوله ﷺ:

[٦٢٨٠] «ما أَذِن الله لشيء ما أَذِنَ[1] لنبيّ يتغنى بالقرآن» أي ما ٱستمع الله لشيء؛ قال الشاعر:

صُـمٌّ إذا سمِعـوا خيـراً ذُكِـرتُ بِـه   وإن ذُكِـرت بِسُـوءٍ عِنـدهـم أَذِنُـوا

أي سمعوا. وقال قعنب بن أمّ صاحب:

إنْ يـأذَنُـوا رِيبـةً طـاروا بهـا فـرحـاً   ومـا هُـمُ أَذِنـوا مـن صـالـحٍ دَفَنُـوا

وقيل: المعنى وحقّق الله عليها الاستماعَ لأمره بالانشقاق. وقال الضحاك: حُقَّتْ: أطاعت، وحُقّ لها أن تطيع ربها، لأنه خلقها؛ يقال: فلان محقوق بكذا. وطاعة السماء: بمعنى أنها لا تمتنع مما أراد الله بها، ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب. وقال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك؛ ومنه قول كثير:

فـإن تكـنِ العُتْبـى فـأهـلاً ومَـرْحَبـاً   وحُقَّـتْ لهـا العُتْبـى لـدينـا وقَلَّـتِ

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ ﴾ أي بُسِطَت ودُكَّت جِبالها. قال النبي ﷺ:

[٦٢٨١] «تُمَدّ مَدَّ الأديم» لأن الأديم إذا مدّ زال كل ٱنثناء فيه وٱمتدّ وٱستوى. قال

[٦٢٨٠] صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤. ومسلم ٧٩٢ من حديث أبي هريرة.

[٦٢٨١] أخرجه الحاكم ٤/ ٥٧٠ بأتم منه من حديث جابر بأتم منه وصححه علىٰ شرطهما لكنه أشار إلىٰ أنه روي مرسلاً، وسكت الذهبي، وجوده السيوطي في الدر ٦/ ٥٤٧. وتقدم مراراً وله شواهد.

(١) في الأصل «كَأَذَنَه» وعامة الروايات كما هو مثبت.

ابن عباس وابن مسعود: ويزاد، وسعتها كذا وكذا؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه، لكثرة الخلائق فيها. وقد مضى في سورة «إبراهيم» أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهي الساهِرة في قول ابن عباس على ما تقدم عنه. ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ أي أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم. وقال ابن جُبَير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها، وتخلت منها. أي خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تَخَلَّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها. وقيل: أَلْقَتْ ما ٱستُودِعتْ، وتخلت مما ٱستحفظت؛ لأن الله تعالى ٱستودعها عباده أحياء وأمواتاً، وٱستحفظها بلاده مزارعة وأقواتاً. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي في إلقاء موتاها ﴿وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ أي وحق لها أن تسمع أمره. وٱختلف في جواب «إذا» فقال الفراء: «أذِنت». والواو زائدة، وكذلك «وأَلْقَتْ». ٱبن الأنباري: قال بعض المفسرين: جواب «إذا السماء ٱنشقت» «أَذِنت»، وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط؛ لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع «حتى ـ إذا» كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] ومع «لما» كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣] معناه «ناديناهُ» والواو لا تقحم مع غير هذين. وقيل: الجواب فاء مضمرة كأنه قال: «إذا السماء ٱنشقت» فيا أيها الإنسان إنك كادح. وقيل: جوابها ما دل عليه «فمُلاقِيهِ» أي إذا السماء ٱنشقت لاقى الإنسان كدحه. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ «إذا السماء ٱنشقت». قاله المبرد. وعنه أيضاً: الجواب «فأما من أوتِي كِتابه بِيمينِهِ» وهو قول الكسائي؛ أي إذا السماء ٱنشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح ما قيل فيه وأحسنه. قيل: هو بمعنى ٱذكر ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾. وقيل: الجواب محذوف لعلم المخاطبين به؛ أي إذا كانت هذه الأشياء علم المكذِّبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم. وقيل: تقدّم منهم سؤال عن وقت القيامة، فقيل لهم: إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة، فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها. والقرآن كالآية الواحدة في دلالة البعض على البعض. وعن الحسن: إن قوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ قسم. والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ المراد بالإنسان الجنس أي يابن آدم. وكذا روى سعيد عن قتادة: يا بن آدم، إن كَدْحَك لضعيف، فمن ٱستطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوّة إلا بالله. وقيل: هو مُعَيَّن[1]؛ قال مقاتل: يعني الأسود بن عبد الأسد. ويقال: يعني أُبَيَّ بن خَلَف. ويقال: يعني جميع الكفار؛ أيها الكافر إنك كادح. والكدح في كلام العرب: العمل والكسب؛ قال ٱبن مقبل:

وما الدهرُ إلا تارتانِ فمِنهما أَموت وأُخرى أبتغِي العيش أكدح

قال آخر:

ومَضَتْ بشاشةُ كل عيشٍ صالِحٍ وبَقِيتُ أَكدح لِلحياةِ وأَنصِب

أي أعمل. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: «إنك كادِح» أي راجع «إلى ربك كدحاً» أي رجوعاً لا محالة ﴿فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أي مُلاقٍ ربك. وقيل: مُلاقٍ عملك. القتبيّ «إنك كادح» أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك. والملاقاة بمعنى اللقاء أي تلقى ربك بعملك. وقيل: أي تلاقي كتاب عملك؛ لأن العمل قد ٱنقضى ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ وهو المؤمن ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ لا مناقشة فيه. كذا روي عن رسول الله ﷺ من حديث عائشة قالت:

[٦٢٨٢] قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عُذِّب» قالت: فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ فقال: «ليس ذاك الحساب، إنما ذلك العَرْضُ، مَنْ نُوقِش الحساب يوم القيامة عذب» أخرجه البخاري ومسلم والترمذيّ. وقال حديث حسن صحيح. ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ أزواجه في الجنة من الحور العين «مسروراً» أي مغتبطاً قرير العين. ويقال إنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد، هو أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة. وقيل: إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا، ليخبرهم بخلاصه وسلامته. والأوّل قول قتادة. أي إلى أهله الذين قد أعدّهم الله له في الجنة.

[٦٢٨٢] مضى تخريجه.

---

(١) الراجح عدم تعيينه. فإن «أل» في «الإنسان» لاستغراق الجنس. فلا يجوز صرفه للواحد إلا بحديث مسند عن صحابي، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة؛ قاله ٱبن عباس. ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر. قال ٱبن عباس: يمدّ يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه مَلَك، فيخلع يمينه، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال قتادة ومقاتل: يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك. ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾ أي بالهلاك فيقول: ياويلاه، يا ثبوراه. ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي ويدخل النار حتى يصلى بحرّها. وقرأ الحرميان وٱبن عامر والكسائي «ويُصْلَى» بضم الياء وفتح الصاد، وتشديد اللام؛ كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحاقة: ٣١] وقوله: ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٤]. الباقون «ويَصْلَى» بفتح الياء مخففاً، فعل لازم غير متعد؛ لقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقوله: ﴿ يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعلى: ١٢] وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المطففين: ١٦]. وقراءة ثالثة رواها أبان عن عاصم وخارجة عن نافع وإسمعيل المكي عن ٱبن كثير «ويُصْلَى» بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففاً؛ كما قرىء «وسَيُصْلَون» بضم الياء، وكذلك في «الغاشية» قد قرىء أيضاً: «تُصْلَى ناراً» وهما لغتان صلى وأصلى؛ كقوله: «نزل. وأنزل» ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ قال ٱبن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧]. قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه. فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾. ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب. يقال: حار يحور إذا رجع؛ قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ ... يحورُ رَماداً بعد إذا هو ساطِعُ

وقال عِكرمة وداود بن أبي هند، يحور كلمة بالحبشية، ومعناها يرجع. ويجور أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة ٱشتقاق؛ ومنه الخبز الحُوارَى؛ لأنه يرجع إلى البياض. وقال ٱبن عباس: ما كنت أدري: ما يحور؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها: حُوري، أي ارجعي إليّ، فالحَوْر في كلام العرب الرجوع؛ ومنه قوله عليه السلام:

[٦٢٨٣] «اللهم إني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر» يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحُور بالضم. وفي المثل «حُورٌ في محَارة» أي نقصان في نقصان. يضرب للرجل إذا كان أمره يُدْبِر؛ قال الشاعر(١):

وأستعجلوا عن خفِيف المضغِ فأزدردُوا والـذم يبقَـى وزاد القـوم فـي حُـوْرِ

والحُور أيضاً: الاسم من قولك: طحَنَتِ الطاحنة فما أحارت شيئاً؛ أي ما ردت شيئاً من الدقيق. والحُور أيضاً: الهلكة؛ قال الراجز(٢):

* فـي بِئرِ لا حُورٍ سَرَى ولا شَعَر *

قال أبو عبيدة: أي بئر حُورٍ، و«لا» زائدة. وروى «بعد الكون»(٣) ومعناه من أنتشار الأمر بعد تمام. وسئِل معمر عن الحَوْر بعد الكون، فقال: هو الكُنْتِيّ. فقال له عبد الرزاق: وما الكُنْتِيّ؟ فقال: الرجل يكون صالحاً ثم يتحول رجل سَوْء. قال أبو عمرو: يقال للرجل إذا شاخ: كنتِيّ، كأنه نسب إلى قوله: كنت في شبابي كذا. قال:

فـأصبحـت كُنتِيـا وأصبحـت عـاجِنـا وشـر خِصـالِ المـرءِ كُنْـتُ وعـاجِـنُ

عجن الرجل: إذا نهض معتمداً على الأرض من الكبر. وقال أبن الأعرابي: الكنتِيّ: هو الذي يقول: كنت شاباً، وكنت شجاعاً، والكانِيّ هو الذي يقول: كان لي مال وكنت أهب، وكان لي خيل وكنت أركب.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليس الأمر كما ظنّ، بل يحور إلينا ويرجع. ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ قبل أن يخلقه، عالماً بأن مرجعه إليه. وقيل: بلَى ليَحُورنّ وليرجعَنّ. ثم أستأنف فقال: «إن ربه كان بِهِ بصِيرا» من يوم خلقه إلى أن بعثه. وقيل: عالماً بما سبق له من الشقاء والسعادة.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾.

[٦٢٨٣] صحيح. أخرجه مسلم ١٣٤٣ والترمذي ٣٤٣٥ والنسائي ٨/ ٢٧٢ وابن ماجه ٣٨٨٨ وأحمد ٥/ ٨٣ من حديث عبد الله بن سرجس.

---

(١) هو سبيع بن الخطيم، ومراده أن الأكل يذهب والذم يبقى.

(٢) هو العجاج.

(٣) عامة نسخ مسلم «الكون» بالنون بدل الراء وهو عند الترمذي بالروايتين وكذا عند غيره. وانظر ما ذكره النووي في الأذكار ص ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي فأقسم و «لا» صلة. ﴿بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ أي بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة. قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم، كثير عددهم، عن مالك: الشَّفَق الحمرة التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبتْ صلاة العشاء. وروى ٱبن وهب قال: أخبرني غير واحد عن عليّ بن أبي طالب ومُعاذ بن جبل وعُبادة بن الصامت وشدّاد بن أوس وأبي هريرة: أن الشفَق الحمرة، وبه قال مالك بن أنس. وذكر غير ٱبن وهب من الصحابة: عمر وٱبن عمر وٱبن مسعود وٱبن عباس وأنَساً وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وٱبن الزبير، من التابعين: سعيد بن جبير، وٱبن المسيب وطاوس، وعبد الله بن دينار، والزهريّ، وقال به من الفقهاء الأوزاعيّ ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحاق. وقيل: هو البياض؛ رُوي ذلك عن ٱبن عباس وأبي هريرة أيضاً وعمر بن عبد العزيز والأوزاعيّ وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه. وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه. ورُوي عن ٱبن عمر أيضاً أنه البياض والاختيار الأوّل؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه؛ ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ: كأنه الشفق وكان أحمر، فهذا شاهد للحمرة؛ وقال الشاعر:

* وأحمر اللون كمحمرّ الشفق *

وقال آخر:

قم يا غلام أعِني غير مرتبكٍ　　على الزمانِ بكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ

ويقال للمَغْرة الشفق. وفي الصحاح[1]: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أوّل الليل إلى قريب من العَتَمة. قال الخليل: الشفق: الحمرة، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، إذا ذهب قيل: غاب الشفق. ثم قيل: أصل الكلمة من رقة الشيء؛ يقال: شيء شَفِق أي لا تماسك له لرقته. وأشفق عليه: أي رق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رِقة القلب، وكذلك الشَّفَق؛ قال الشاعر[2]:

تهوَى حَياتِي وأهوى موتها شَفَقاً　　والموتُ أكرم نَزَّالٍ على الحُرَمِ

فالشفَق: بقية ضوء الشمس وحمرتها فكأن تلك الرّقة عن ضوء الشمس. وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلاً. وقال الخليل: صعدت منارة الإسكندرية فرمقت

(١) للجوهري.

(٢) هو إسحاق بن خلف، وقيل هو لابن المعلى.

البياض، فرأيته يتردّد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب. وقال ٱبن أبي أويس: رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر قال علماؤنا: فلما لم يتحدد وقته سقط ٱعتباره. وفي سُنَن أبي داود عن النعمان بن بَشير قال:

[٦٢٨٤] أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة؛ كان النبي ﷺ يصليها لسقوط القمر لثالثة. وهذا تحديد، ثم الحكم معلق بأوّل الاسم. لا يقال: فينقض عليكم بالفجر الأوّل، فإنا نقول الفجر الأوّل لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك؛ لأن النبي ﷺ بين الفجر بقوله وفعله فقال:

[٦٢٨٥] «وليس الفجر أن تقول هكذا ـ فرفع يده إلى فوق ـ ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها» وقد مضى بيانه في آية الصيام من سورة «البقرة»، فلا معنى للإعادة. وقال مجاهد: الشفق: النهار كله ألا تراه قال «والليلِ وما وَسَق». وقال عِكرمة: ما بقي من النهار. والشفق أيضاً: الرديء من الأشياء؛ يقال: عطاء مُشفَّق أي مقلل قال الكُميت:

ملكَ أغَر مِن الملوك تحلَّبتْ ... للسائلين يداه غيرَ مُشفَّقِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ أي جمع وضم ولف، وأصله من سَوْرة السلطان وغضبه؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزح بها، فسكن الخلق إليه ثم ٱبذَعَرُّوا وٱلتفُّوا وٱنقبضوا، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هَوْلِه وحشا، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣] أي بالليل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أي بالنهار على ما تقدم. فالليل يجمع ويضم ما كان منتشراً بالنهار في تَصَرّفه. هذا معنى قول ٱبن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم؛ قال ضابىء بن الحارث البرجُمِيّ:

فإني وإياكُمْ وشوقاً إليكُمْ ... كقابِضِ ماءٍ لم تَسقه أناملُهْ

يقول: ليس في يدهِ من ذلك شيء كما أنه ليس في يد القابض على الماء شيء؛ فإذا جلل الليل الجبال والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له، فقد وَسَقَها. والوسْق: ضمك الشيء بعضه إلى بعض، تقول: وَسَقْتُه أَسِقُه وَسْقاً. ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع: وَسْقٌ، وهو ستون صاعاً. وطعام مُوسَق: أي مجموع، وإبل مُسْتَوْسِقة أي

[٦٢٨٤] أخرجه أبو داود ٤١٩ من حديث النعمان بن بشير. ومداره علىٰ حبيب بن سالم مولىٰ النعمان. قال في التقريب: لا بأس به.

[٦٢٨٥] مضىٰ تخريجه.

مجتمعة؛ قال الراجز[1]:

إنَّ لَنَا قَلائِصاً حقائِقاً ... مُسْتَوْسقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقاً

وقال عِكرمة: «وما وَسَق» أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوِي، فالوَسْق بمعنى الطَّرْد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر: وسِيقة، قال الشاعر[2]:

* كما قافَ آثارَ الوسِيقةِ قائِفُ *

وعن ابن عباس: «وما وَسَق» أي وما جنّ وستر. وعنه أيضاً: وما حَمَل، وكل شيء حملته فقد وَسَقْته، والعرب تقول: لا أفعله ما وَسَقَتْ عيني الماء، أي حملته. ووسَقَت الناقةُ تَسِق وَسْقاً: أي حملت وأغلقت رحمها على الماء، فهي ناقة واسق، ونوق وِسَاق مثلَ نائِم ونيام، وصاحِب وصِحاب، قال بشر بن أبي خازم:

أَلَظَّ بِهِن يحدوهُنّ حتى ... تبينتِ الحِيالُ مِن الوِساقِ

ومَواسيق أيضاً. وأوسقت البعير: حَمَّلته حملَه، وأوسَقَتِ النخلة: كثر حملها. وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان: حمل من الظلمة. قال مقاتل: أو حمل من الكواكب. القشيريّ: ومعنى حَمَل: ضم وجمع، والليل يجلل بظلمته كل شيء فإذا جللها فقد وسقها. ويكون هذا القَسَم قسماً بجميع المخلوقات، لاشتمال الليل عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾. وقال ابن جُبير: «وما وَسَق» أي وما عمل فيه، يعني التهجد والاستغفار بالأسحار، قال الشاعر:

ويوماً ترانا صالحين وتارةً ... تقومُ بِنا كالواسِق المتلَبِّب

أي كالعامل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ أي تم واجتمع واستوى. قال الحسن: اتسق: أي امتلأ واجتمع. ابن عباس: استوى. قتادة: استدار. الفراء: اتساقه: امتلاؤه واستواؤه ليالِيَ البدر، وهو افتعال من الوسْق الذي هو الجمع، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال: أمر فلان مُتَّسِق: أي مجتمع على الصلاح منتظم. ويقال: اتسق الشيء: إذا تتابع. ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ قرأ أبو عمر وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخَعيّ والشعبيّ وابن كثير وحمزة والكسائي «لَتَركَبَنَّ» بفتح الباء خطاباً للنبي ﷺ، أي لتركَبنَّ يا محمد حالاً بعد حال، قاله ابن عباس.

---

(١) هو العجاج.

(٢) هو الأسود بن يعفر.

الشعبي: لتركَبَنَّ يا محمد سماء بعد سماء، ودرجة بعد درجة، ورُتبة بعد رتبة، في القربة من الله تعالى. ابن مسعود: لتركَبن السماء حالاً بعد حال، يعني حالاتها التي وصفها الله تعالى بها من الانشقاق والطيّ وكونها مرة كالمُهلِ ومرة كالدِّهانِ. وعن إبراهيم عن عبداللّـه[1]: «طبقاً عن طبقٍ» قال: السماء تَقَلَّبُ حالاً بعد حال. قال: تكون وردة كالدهان، وتكون كالمهل؛ وقيل: أي لتركَبَن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً. فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ هو اسم للجنس، ومعناه الناس. وقرأ الباقون «لتركَبُنّ» بضم الباء، خطاباً للناس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، قال: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبيّ ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله. أي لتركبن حالاً بعد حال من شدائد القيامة، أو لتركَبُن سُنَّة من كان قبلكم في التكذيب واختلاق على الأنبياء.

قلت: وكله مراد، وقد جاءت بذلك أحاديث، فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

[٦٢٨٦] «إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل؛ إن الله لا إله غيره إذا أراد خَلْقه قال للملك: اكتب رزقه وأثره وأجله، واكتب شقياً أو سعيداً، ثم يرتفع ذلك الملك، ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذانك الملكان، ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه، فإذا أدخِل حفرته رُدّ الروح في جسده، ثم يرتفع ملك الموت، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائق والآخر شهيد» ثم قال الله عز وجل ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِى غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَـٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ [قٓ: ٢٢] قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾ قال: «حالاً بعد حال» ثم قال النبيّ ﷺ: «إن قُدَّامَكُمْ أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم» فقد اشتمل هذا الحديث على أحوال تعتري الإنسان، من حين يُخْلق إلى حين يُبعث، وكله شدّة بعد شدة، حياة ثم موت، ثم بعث

[٦٢٨٦] تقدم تخريجه، وإسناده ضعيف لضعف جابر الجعفي. وتفسير الآية لهُ شاهد صحيح أخرجه البخاري ٤٩٤٠ بسنده عن ابن عباس قال: «﴿لتركبنّ طبقاً عن طبق﴾: حالاً بعد حال». وانظر الدر ٦/٥٤٩ والطبري ٣٦٧٩٠ حتى ٣٦٨١٩.

(١) في النسخ «الأعلى» والتصويب عن الطبري ٣٦٨١٦.

ثم جزاء، وفي كل حال من هذه شدائد. وقال ﷺ:

[٦٢٨٧] «لتركبُن سَنَن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذارع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ»؟ خرجه البخاريّ. وأما أقوال المفسرين، فقال عكرمة: حالاً بعد حال، فطيما بعد رضيع، وشيخاً بعد شَباب، قال الشاعر:

كـذلِـك المـرءُ إن يُنْسَـأُ لَـهُ أَجـلٌ   يَرْكَب على طَبقٍ مِن بعدِهِ طَبَقُ

وعن مكحول: كلَّ عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه: وقال الحسن: أمراً بعد أمر، رخَاء بعد شدّة، وشدّة بعد رَخاء، وغنًى بعد فقر، وفقراً بعد غنًى، وصحة بعد سُقْم، وسقماً بعد صحة: سعيد بن جبير: منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة: وقيل: منزلة عن منزلة، وطَبَقاً عن طبق، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن كل شيء يجري إلى شكله. ابن زيد: ولتصيرُن من طَبَق الدنيا إلى طَبَق الآخرة: وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموت، ثم البعث، ثم العَرْض، والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد: وقَع في بَناتِ طَبَق، وإحدى بنات طَبَق، ومنه قيل للداهية الشديدة: أم طَبَق، وإحدى بناتِ طَبَق: وأصلها من الحَيّات، إذ يقُال للحية أم طَبَق لتحوِّيها، والطبق في اللغة: الحال كما وصفنا، قال الأقرع بن حابس التميميّ:

إني امرؤ قد حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ   وسـاقنـي طَبَـقٌ منـه إلـى طَبَـقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم، وإثبات الصانع، قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغداً على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه، وقيل لأبي بكر الورَّاق: ما الدليل على أن لهذا العالم صانعاً؟ فقال: تحويل الحالات، وعجز القوة، وضعف الأركان، وقهر النية، ونسخ العزيمة، ويقال: أتانا طَبَقٌ من الناس وطبق من الجراد: أي جماعة: وقول العباس في مدح النبي ﷺ:

تَنَقَّـل مِـن صـالـبٍ إلـى رَحِـمٍ   إذا مضَـى عـالَـمٌ بـدا طَبَـقُ

أي قرن من الناس. يكون طباقَ الأرض أي ملأها. والطَّبَق أيضاً: عظم رقيق يفصل بين الفَقارين. ويقال: مضى طبق من الليل، وطَبَق من النهار: أي معظم منه. والطبق: واحد الأطباق، فهو مشترك. وقرىء «لتركبِن» بكسر الباء، على خطاب النفس و «لَيَرْكَبَن»

[٦٢٨٧] تقدم تخريجه.

بالياء على ليركبن الإنسان. و «عن طبقٍ» في محل نصب على أنه صفة لـ «طبقاً» أي طبقاً مجاوزاً لطبق. أو حال من الضمير في «لتركبن» أي لتركبن طبقاً مجاوِزين لطبق، أو مجاوزاً أو مجاوزة على حسب القراءة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات. وهذا ٱستفهام إنكار. وقيل: تعجب أي ٱعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ أي لا يُصلُّون. وفي الصحيح:

[٦٢٨٨] إن أبا هريرة قرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ فسجد فيها، فلما ٱنصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. وقد قال مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى لا يُذْعِنون ولا يطيعون في العمل بواجباته. ٱبن العربي: والصحيح أنها منه، وهي رواية المَدَنيين عنه، وقد ٱعتضد فيها القرآن والسنة. قال ٱبن العربيّ: لما أَمَمْت بالناس تركت قراءتها؛ لأني إن سجدت أنكروه، وإن تركتها كان تقصيراً[1] مني، فٱجتنبتها إلا إذا صليت وحدي. وهذا تحقيق وعدِ الصادق بأن يكون المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؛ وقد قال ﷺ لعائشة:

[٦٢٨٩] «لولا حِدْثان قومِك بالكفر لهدمتُ البيت، ولرددته على قواعد إبراهيم».

ولقد كان شيخنا أبو بكر الفِهْريّ يرفع يديه عند الركوع، وعند الرفع منه، وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشِّيعة، فحضر عندي يوماً في مَحْرَس ٱبن الشَّواء بالثغر ـ موضع تدريسي ـ عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المَحْرس المذكور، فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعداً على طاقات البحر، أتنسم الريح من شدة الحر، ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة، ويتطلع على مراكب تَحْت[2] المِيناء، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقيّ كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وٱرموا به إلى البحر، فلا يراكم أحد. فطار قلبي من بين جوانحي وقلت: سبحان الله هذا

[٦٢٨٨] صحيح. أخرجه البخاري ١٠٧٤ من حديث أبي هريرة مع اختلاف في ألفاظه.

[٦٢٨٩] تقدم تخريجه.

---

(١) هذا من الفقه في الدين.

(٢) في الأصل «تخت» والمثبت عن «الأحكام» ٤/ ٣٧٠.

الطُرطُوشيّ فقيه الوقت. فقالوا لي: وَلِمَ يرفع يديه؟ فقلت: كذلك كان النبي ﷺ يفعل، وهذا مذهب مالك، في رواية أهل المدينة عنه. وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته، وقمت معه إلى المسكَن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره، وسألني فأعلمته، فضحك وقال: ومن أين لي أن أُقتل على سنةٍ؟ فقلت له: ولا يحل لك هذا، فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك. فقال: دع هذا الكلام، وخذ في غيره.

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ ۝٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾ محمداً ﷺ وما جاء به. وقال مقاتل: نزلتْ في بني عمرو بن عُمَير وكانوا أربعة، فأسلم ٱثنان منهم. وقيل: هي في جميع الكفار. ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب. كذا رَوى الضحاك عن ٱبن عباس. وقال مجاهد: يكتمُون من أفعالهم. ٱبن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة؛ مأخوذ من الوِعاء الذي يَجْمع ما فيه؛ يقال: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوِعاء؛ قال الشاعر:

الخيـر أبقـى وإن طـال الزمـانُ بـِهِ والشرُّ أَخبث ما أوعيت مِن زادِ

ووعاه أي حفظه؛ تقول: وَعَيْتُ الحديث أعِيهِ وَعياً، وأُذُنٌ واعِية. وقد تقدم. ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾ أي مُوجع في جهنم على تكذيبهم. أي ٱجعل ذلك بمنزلة البشارة. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ٱستثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذين صَـدَّقـوا بشهـادة أن لا إلـه إلا الله وأنّ محمـداً رسـول الله، وعملـوا الصـالحـات، أي أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لَهُمۡ أَجۡرٌ ﴾ أي ثواب ﴿ غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ ۝٢٥﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع؛ يقال: مَنَنْتُ الحبل: إذا قطعته. وقد تقدم. وسأل نافع بن الأزرق ٱبن عباس عن قوله «لهم أجر غير ممنونٍ» فقال: غير مقطوع. فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم قد عرفه أخو يُشْكَرَ حيث يقول:

فتـرى خَلْفَهُـنَّ مِـن سُـرْعـةِ الـرجْـ ـــع مَنِينـــاً كـــأنَّـــهُ أَهبـــاءُ

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها. وكل ضعيف منين وممنون. وقيل: ﴿ غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ ۝٢٥﴾ لا يُمنّ عليهم به. وذكر ناس من أهل العلم أن قوله «إلا الذِين آمنوا وعمِلوا الصالِحاتِ» ليس ٱستثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا. وقد مضى في «البقرة» القول فيه والحمد لله. تمت سورة الإنشقاق.

سورة البروج

مكية باتفاق. وهي ثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾.

قسم أقسم الله به جل وعز. وفي «البروج» أقوال أربعة: أحدها ـ ذات النجوم؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك. الثاني ـ القُصُور، قاله ٱبن عباس وعِكرمة ومجاهد أيضاً. قال عِكرمة: هي قُصور في السماء. مجاهد: البُروج فيها الحرس. الثالث ـ ذات الخَلْق الحسن؛ قاله المِنهال بن عمرو. الرابع ـ ذات المنازل؛ قاله أبو عبيدة ويحيى بن سلام. وهي ٱثنا عشر بُرْجاً، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم؛ فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستسِرّ[1] ليلتين؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهراً. وهي: الحَمَل، والثَّوْرُ، والجَوزاء، والسَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، والمِيزان، والعَقْرب، والقَوسُ والجَدْي، والدلو، والحُوت. والبروج في كلام العرب: القصور؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ أي الموعود به. وهو قَسَم آخر، وهو يوم القيامة؛ من غير ٱختلاف بين أهل التأويل. قال ٱبن عباس: وُعِد أهلُ السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ ٱختلف فيهما؛ فقال عليّ وٱبن عباس وٱبن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم: الشاهد يوم الجمعة، والمشهودُ يوم عرفة. وهو قول الحسن. ورواه أبو هُريرة مرفوعاً قال:

(١) سرر الشهر: آخر ليلة منه، وهو مشتق من قولهم: استسر القمر أي خفي ليلة السرار، فربما كان ليلة وربما ليلتين.

[٦٢٩٠] قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة. . .» خرّجه أبو عيسى الترمذيّ في جامعه، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عُبيدة، وموسى بن عبيدة يُضَعَّف في الحديث، ضَعَّفه يحيى بن سعيد وغيره. وقد رَوَى شُعبة وسفيان الثوريّ وغير واحد من الأئمة عنه. قال القشَيريّ فيومُ الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه.

قلت: وكذلك سائر الأيام والليالي؛ فكل يوم شاهد، وكذا كل ليلة؛ ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قُرّة عن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ ﷺ قال:

[٦٢٩١] «ليس من يوم يأتي على العبد إلا يُنادَى فيه: يآ بن آدم، أنا خَلْق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غداً، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليل مثلَ ذلك». حديث غريب من حديث معاوية، تفرّد به عنه زيد العمِّيّ، ولا أعلمه مرفوعاً عن النبيّ ﷺ إلا بهذا الإسناد. وحكى القُشَيريّ عن ٱبن عمر وٱبن الزُّبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد: التَّروِيَة، والمشهود: يوم عَرَفة. وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر. وقاله النخعيّ. وعن عليّ أيضاً: المشهود يوم عرفة. وقال ٱبن عباس والحسين بن عليّ رضي الله عنهما: المشهود يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

قلت: وعلى هذا ٱختلفت أقوال العلماء في الشاهد، فقيل: الله تعالى؛ عن ٱبن عباس والحسن وسعيد بن جُبير؛ بيانه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ . وقيل: محمد ﷺ؛ عن ٱبن عباس أيضاً والحسين بن

[٦٢٩٠] أخرجه الترمذي ٣٣٣٩ والطبري ٣٦٨٣٢ و ٣٦٨٣٣ و ٣٦٨٣٩ من حديث أبي هريرة بأتم منه، ومداره علىٰ موسىٰ بن عبيدة الربذي وهو واهٍ، وقد ضعفه الترمذي به وتابعه علي بن زيد عند الحاكم ٢/ ٥١٩ وعلي هذا ضعيف قال الحاكم: وخالفه يونس بن عبيد فرواه موقوفاً وصحح الحاكم الموقوف، وقال: هو علىٰ شرطهما وسكت الذهبي، والحديث ضعيف بهذا التمام ولصدره شاهد أخرجه الطبري ٣٦٨٤٠ من حديث أبي مالك الأشعري، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش واه وورد موقوفاً ومقطوعاً عن جماعة من الصحابة والتابعين فصدر الحديث حسن إن شاء الله والغرابة في باقي ألفاظه، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٥.

[٦٢٩١] مضىٰ تخريجه.

عليّ؛ وقرأ ابن عباس ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]، وقرأ الحسين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

قلت: وأقرأ أنا ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: الأنبياء يَشْهَدون على أممهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء: ٤١]. وقيل: آدم. وقيل: عيسى ابن مريم؛ لقوله: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمشهود: أمته. وعن ابن عباس أيضاً ومحمد بن كعب: الشاهد الإنسان؛ دليله: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٤]. مقاتل: أعضاؤه؛ بيانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤]. الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمّة، والمشهود سائر الأمم؛ بيانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: الشاهد: الحفَظَة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الليالي والأيام. وقد بيناه.

قلت: وقد يشهد المالُ على صاحبه، والأرضُ بما عُمل عليها؛ ففي صحيح مسلم عن النبيّ ﷺ:

[٦٢٩٢] «إن هذا المال خَضِر حُلْو، ونِعم صاحبُ المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ـ أو[١] كما قال رسول الله ﷺ ـ وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يَشْبَع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة». وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال:

[٦٢٩٣] قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾ [الزلزلة: ٤] قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها». قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلْق، شهدوا لله عزّ وجلّ

[٦٢٩٢] صحيح. أخرجه البخاري ١٤٦٥ و٦٤٢٧ ومسلم ١٠٥٢ والطيالسي ٢١٨٠ وعبد الرزاق ٦٤٢٧ وأحمد ٣/٩١ والنسائي ٥/٩٠ وابن حبان ٣٢٢٥ من حديث أبي سعيد وهو عجز حديث وفي الباب أحاديث كثيرة.

[٦٢٩٣] يأتي في سورة الزلزلة.

---

(١) الشك من أحد رواة الحديث، ووقع الشك أيضاً في رواية البخاري.

بالوحدانية. والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى. وقيل: المشهود يومُ الجمعة؛ كما رَوَى أبو الدّرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

[٦٢٩٣ م] «أكثِروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة...» وذكر الحديث. خرّجه ٱبن ماجه وغيره.

قلت: فعلى هذا يوم عرفة مشهود، لأن الملائكة تشهده، وتنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم النحر إن شاء الله. وقال أبو بكر العطار: الشاهد الحجر الأسود؛ يشهد لمن لمسه بصدق وإخلاص ويقين. والمشهود الحاجّ. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهود محمد ﷺ؛ بيانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ ـ إلى قوله تعالى: ـ ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ أي لعن. قال ٱبن عباس: كل شيء في القرآن «قُتل» فهو لُعِن. وهذا جواب القسم ـ في قول الفرّاء ـ واللام فيه مضمرة، كقوله: «والشمس وضحاها ثم قال قد أفلح من زكاها»: أي لقد أفلح. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي قتل أصحاب الأخدود والسماءِ ذات البُروج؛ قاله أبو حاتم السجستانيّ. ٱبن الأنباريّ: وهذا غَلَط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد؛ على معنى قام زيد والله. وقال قوم: جواب القسم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢] وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما. وقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ [البروج: ١٠]. وقيل: جواب القسم محذوف، أي والسماء ذات البروج لَتُبْعَثُنَّ. وهذا ٱختيار ٱبن الأنباريّ. والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد. ومنه الخدّ لمجاري الدموع، والمخدّة؛ لأن الخدّ يوضع عليها. ويقال: تخدّد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من جراح، قال طَرَفة:

وجهٌ كأنّ الشمسَ حلتْ رداءها ... عليه نَقيُّ اللونِ لم يَتَخدّدِ

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ «النار» بدل من «الأخدود» بدل الاشتمال. و «الوقود» بفتح

[٦٢٩٣م] أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧ من حديث أبي الدرداء وقال البوصيري في الزوائد: هذا حديث صحيح إلا أنه منقطع في موضعين عبادة بن نسي روايته عن أبي الدرداء مرسلة. وزيد بن أيمن عن عبادة مرسلة أيضاً قاله البخاري اهـ فالخبر واهٍ لكن لبعضه شواهد. والله أعلم.

الواو قراءة العامة، وهو الحَطَب. وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر؛ أي ذات الاتقاد والالتهاب. وقيل: ذات الوُقود بأبدان الناس. وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو السَّمال العدويّ وابن السميفع «النار ذات» بالرفع فيهما؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود. ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ أي الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، وكانوا بنجرانَ في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ. وقد اختلفت الرواة في حديثهم. والمعنى متقارب. ففي صحيح مسلم عن صُهَيب:

[٦٢٩٤] أن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر؛ فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه؛ فكان في طريقه إذا سَلَك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه؛ فإذا أتى الساحر ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحرَ فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني؛ أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى؛ فإن ابتليت فلا تدلَّ عليّ. وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفِي الله؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك: مَنْ ردّ عليك بصرك؟ قال ربيِّ. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد[1] بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! قال: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب؛ فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك. فأبىٰ فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسِه فشقه حتى وقع شِقاه. ثم جيء بِجلِيس المِلِكِ فقيل له: ارجع عن دينك؛ فأبى فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه، فشقه به حتى وقع شِقاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذِروته فإن

[٦٢٩٤] صحيح. أخرجه مسلم ٣٠٠٥ والترمذي ٧٣٣٧ من حديث صهيب مطولاً.

(١) عند مسلم «قد».

رجع عن دينه وإلا فأطرحوه؛ فذهبوا به فصعِدوا به الجبل فقال: اللهم آكفِنِيهم بما شِئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملِك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانِيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: آذهبوا به فآحملوه في قُرْقور[1]، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فآقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم آكفنيهم بما شئت؛ فآنكفأت بهم السفينة، فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبني على جِذع، ثم خذ سهماً من كنانتي[2]، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بآسم الله رب الغلام، ثم آرمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناسَ في صعيد واحد، وصلبه على جِذْع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بآسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتي الملِك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد واللّهِ نزل بك حَذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود في أفواه السِّكك، فخدّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها ـ أو قيل له آقتحم ـ ففعلوا؛ حتى جاءت آمرأة ومعها صبيّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: «يا أُمَّه آصبِرِي فإنك على الحق». خرجه الترمذي بمعناه. وفيه: «وكان على طريق الغلام راهب في صومعة» قال معمر[3]: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين. وفيه: «أن الدابة التي حَبَستِ الناس كانت أَسداً، وأن الغلام دُفن ـ قال ـ فيذكر أنه أُخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتِل». وقال: حديث حسن غريب. ورواه الضحاك عن آبن عباس قال: كان مَلِك بنَجْران، وفي رعِيته رجل له فتى، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب، فدخل في دين الراهب؛ فأقبل يوماً فإذا حيّة عظيمة قطعت على الناس طريقهم، فأخذ حجراً فقال بآسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلها. وذكر نحو ما تقدم. وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك: لا إله إلا إله عبد الله بن ثامر؛ وكان آسمَ الغلام، فغضب الملك، وأمر فخُدّت أخاديد، وجُمع فيها حطب ونار، وعَرَض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن

(١) القرقور: السفينة الصغيرة.
(٢) الكنانة: جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها، أو من خشب لا جلود فيها.
(٣) أحد رجال الإسناد.

ثبت على دينه قذفه في النار. وجيء بأمرأة مُرْضع فقيل لها أرجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدك ـ قال ـ فأشفقت وهمّت بالرجوع، فقال لها الصبيّ المُرْضَع: يا أمي، أثبتي على ما أنت عليه، فإنما هي غميضة؛ فألقَوها وأبنها. وروى أبو صالح[1] عن أبن عباس أن النار أرتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذِراعاً فأحرقتهم. وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تُبّع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه. حكاه الماورديّ، وحكى الثعلبيّ عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذُوا رجالاً ونساء، فخدّوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها. وقيل لهم: تكفرون أو تُقْذَفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ وقاله عَطِية العوفِيّ. ورُوي نحو هذا عن أبن عباس. وقال عليّ رضي الله عنه: إن ملكاً سَكِر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رعِيته فلم يقبلوا، فأشارت إليه أن يخطُب بأن الله ـ عز وجل ـ أحل نكاح الأخوات، فلم يُسمع منه. فأشارت إليه أن يخدّلهم الأخدود، ويلقي فيه كل من عصاه. ففعل. قال: وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوس، وكانوا أهل كتاب. ورُوي عن عليّ أيضاً: أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبياً بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فأتبعه ناس، فخدّ لهم قومهم أخدوداً، فمن أتبع النبيّ رمي فيها، فجيء بأمرأة لها بُنَيّ رضيع فجزِعت، فقال لها: يا أمّاه، أمضي ولا تجزعي. وقال أيوب عن عِكرمة قال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ قال: كانوا من قومك من السجِستان. وقال الكلبيّ: هم نصارى نجران، أخذوا بها قوماً مؤمنين، فخدّوا لهم سبعة أخاديد، طول كل أخدود أربعون ذراعاً، وعرضه أثنا عشر ذراعاً. ثم طرح فيه النفط والحطب، ثم عرضوهم عليها؛ فمن أبى قذفوه فيها. وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقُسْطنطينية زمان قُسْطَنطين. وقال[2] مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة؛ واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أمّا الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نُواس. فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة، والآخر بنجران، آجر أحدهما نفسه، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل؛ فرأت أبنة المستأجِر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباها فأسلم. وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وأمرأة، بعد ما رفع عيسى، فخدّ لهم يوسف بن ذي نُواس بن تُبّع الحِميرِيّ أخدوداً،

(١) أبو صالح غير حجة، روىٰ عن ابن عباس تفسيراً موضوعاً.

(٢) لا حجة بقول مقاتل فقد صح عن رسول الله ﷺ خلافهُ.

وأوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار، وقال: من رجع عن دين عيسى لم يقذف. وإن ٱمرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها ٱبنها: يا أمّاه، إني أرى أمامك ناراً لا تُطْفَأ، فقَذَفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله وٱبنها في الجنة. فقُذِف في يوم واحد سبعة وسبعون إنساناً. وقال ٱبن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام، يقال له قيميون، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحاً في القرى، لا يُعْرَف بقرية إلا مضى عنها، وكان بَنَّاء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القُرَظيّ: وكان أهل نَجْرانَ أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون، بنىٰ بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامرُ عبدَ الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم، فوحّد الله وعبده، وجعل يسأله عن ٱسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه، فكتمه إياه وقال: يا بن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن ٱبنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخِل عليه بتعليم ٱسم الله الأعظم، عمد إلى قِداح[1] فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى ٱسماً يعلمه إلا كتبه في قِدْح، لكل اسم قِدْح؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحاً قِدْحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بِقدحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرَّه شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم ٱسم الله الأعظم الذي كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يٱبن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.
فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضُرٌّ إلا قال: يا عبد الله، أتوحِّد الله وتدخل في ديني، فأدعوَ الله لك فيعافِيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحِّد الله ويسلم، فيدعو الله له فيُشْفَى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فٱتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رُفِع شأنه إلى ملكهم، فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلنّ بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح عن رأسه، فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجرانَ، بحار لا يلقَى فيها شي إلا هلك، فيلقَى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه

(١) القِدح: السهم قبل أن ينصل ويراش.

قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحِّد الله وتؤمن بما آمنت به؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليّ وقتلتني. فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانَه، وٱجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحُكْمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نُواس اليهوديّ بجنوده من حِمْير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فٱختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود؛ فحرَّق بالنار وقتل بالسيف، ومَثَّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفاً. وقال وهب بن منبه: ٱثني عشر ألفاً. وقال الكلبيّ: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً. قال وهب: ثم لما غَلَب أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق. قال ٱبن إسحاق: وذو نُواس هذا ٱسمه زُرْعة بن تُبّان أسعد الحميريّ، وكان أيضاً يسمى يوسف، وكان له غدائر من شعرٍ تَنُوسُ، أي تضطرب، فسمي ذا نُواس؛ وكان فعل هذا بأهل نجران، فأفلت منهم رجل ٱسمه دَوْسٌ ذو ثَعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر؛ ألقى نفسه فيه؛ وفيه يقول عمرو بن معدي كرب:

أَتُوعِدني كأنك ذو رُعَيْنٍ ... بأنعم عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائِنْ كان قبلَك من نَعِيم ... ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ ... عظيم قاهرِ الجبروت قاسِ
أزال الدهرُ مُلْكَهم فأضحى ... يُنَقَّل من أناس في أناس

وذو رُعين: ملك من ملوك حمير. ورُعَين حصن له وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير بن سَبَأ.

مسألة: قال علماؤنا: أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وَحّد قبلهم من الشدائد، يُؤنِّسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسّوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صِغر سنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشِر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم. ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا، حَسْب ما تقدم بيانه في سورة «النحل».

قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه

أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان: ١٧] : وروى أبو سعيد الخُدرِيّ أن النبي ﷺ قال:

[٦٢٩٥] «إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر»: خرجه الترمذيّ وقال: حديث حسن غريب، ورَوَى ابن سنجر (محمد بن سنجر) عن أميمة مولاة النبي ﷺ قالت:

[٦٢٩٦] «كنت أوضىء النبي ﷺ، فأتاه رجل، قال: أوصني: فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعت أو حُرِّقْت بالنار...» الحديث: قال علماؤنا: ولقد امتُحِن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصَّلْب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك: ويكفيك قصة عاصم وخُبيب وأصحابهما وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك، وقد مضى في «النحل» أن هذا إجماع ممن قوي في ذلك، فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى، وقيل: معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين، أي إنهم قُتلوا بالنار فصبروا، وقيل: هو إخبار عن أولئك الظالمين، فإنه رُوِي: أن الله قبض أرواح الذين ألقوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود، وقيل: إن المؤمنين نَجَوا، وأحرقت النار الذين قعدوا، ذكره النحاس، ومعنى «عليها» أي عندها وعلى بمعنى عند، وقيل: «عليها» على ما يدنو منها من حافات الأخدود، كما قال:

* وباتَ علـى النارِ النَّـدى والمحلَّقُ *[١]

العامل في «إذ»: «قُتِل»، أي لعنوا في ذلك الوقت: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ

[٦٢٩٥] مضىٰ تخريجه، وهو قوي بشواهده.

[٦٢٩٦] أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/١٩٠ من حديث أميمة مولاة النبي ﷺ، وذكره الهيثمي في المجمع ٢٠/٢١٧ وقال: وفيه يزيد بن سنان الرهاوي، وثقه البخاري وغيره، والأكثر على تضعيفه، وبقية رجاله ثقات اهـ.
وللحديث شواهد انظر المجمع ٢١٦/٤.

(١) البيت لأعشى قيس وصدره: * تشب لمقرورين يصطليانها *.

﴿شُهُودٌ ⑦﴾ أي حضور: يعني الكفار، كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبى ألقوه في النار وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد في ذلك، وقيل: «على» بمعنى مع، أي وهم: مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑧ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ⑨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وقرأ أبو حَيْوة «نقِموا» بالكسر، والفصيح هو الفتح، وقد مضى في «براءة» القول فيه: أي ما نَقَم الملِك وأصحابه من الذين حَرَّقهم: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ أي إلا أن يصدّقوا: ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب المنيع: ﴿ٱلْحَمِيدِ ⑧﴾ أي المحمود في كل حال. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ لا شريك له فيهما ولا نديد ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ⑨﴾ أي عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ⑪﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي حَرَّقوهم بالنار. والعرب تقول: فَتن فلانٌ الدرهمَ والدينارَ، إذا أدخله الكور، لينظر جودته. ودينار مفتون. ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي فضة محترقة. ويقال للحرّة فتين، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار، وذلك لسوادها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ أي من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات والبينات على يد الغلام. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ⑩﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدم عن ابن عباس. وقيل: «ولهم عذاب الحريق» أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين. وقيل: لهم عذاب، وعذاب جهنم الحريق. والحريق: اسم من أسماء جهنم؛ كالسَّعير. والنار دركات وأنواع ولها أسماء. وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم، ثم يعذّبون بعذاب الحريق. فالأول عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله؛ أي صدقوا به وبرسله. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي بساتين. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ⑪﴾ أي العظيم، الذي لا فوز يشبهه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ أي أخذه الجبابرة والظلّمة، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢]. وقد تقدم. قال المبرد «إن بطش ربك» جواب القسم. المعنى: والسماء ذات البروج إن بطش ربك، وما بينهما معترِض مؤكِّد للقسم. وكذلك قال التِّرمذي الحكيم في نوادر الأصول: إن القسم واقع عما ذكر صفته بالشدة: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ يعني الخَلْق ـ عن أكثر العلماء ـ يخلُقهم ابتداء، ثم يعيدهم عند البعث. وروى عكرمة قال: عَجِب الكفار من إحياء الله جلّ ثناؤه الأموات، وقال ابن عباس: يبدىء لهم عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده عليهم في الآخرة. وهذا اختيار الطبريّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ أي السُّور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ﴿ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ أي المحب لأوليائه. ورَوَى الضحاك عن ابن عباس قال: كما يودّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة. وعنه أيضاً «الودود» أي المتودد إلى أوليائه بالمغفرة، وقال مجاهد الوادّ لأوليائه، فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: الرحيم، وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحاق القاضي: أن الودود هو الذي لا ولد له، وأنشد قول الشاعر:

وأركبُ في الروع عُرْيانةً ... ذلولَ الجَناح لقاحاً ودُوداً

أي لا ولد لها تحِن إليه، ويكون معنى الآية: إنه يغفر لعباده وليس له ولد يغفر لهم من أجله، ليكون بالمغفرة متفضلاً من غير جزاء. وقيل: الودود بمعنى المودود، كركوب وحلُوب، أي يوده عباده الصالحون ويحبونه ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما «المجيد» بالخفض، نعتاً للعرش. وقيل: لـ«ـربك»؛ أي إن بطش ربك المجيد لشديد، ولم يمتنع الفصل، لأنه جارٍ مجرى الصفة في التشديد. الباقون بالرفع نعتا لـ«ـذو» وهو الله تعالى. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه المنعوت بذلك، وإن كان قد وُصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون». تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخُ والعفار[1]؛ أي تناهيا فيه، حتى يُقْتَبَس منهما. ومعنى ذو العرش: أي ذو المُلك والسلطان؛ كما يقال: فلان على سرير ملكه؛ وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثُل عرشه: أي ذهب سلطانه. وقد مضى

(١) تقدم شرح هذه الجملة مراراً. والمرخ والعفار شجر سريع الاحتراق.

بيان هذا في «الأعراف» وخاصة في «كتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى». ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ أي لا يمتنع عليه شيء يريده. الزمخشريّ: «فَعّال» خبر ابتداء محذوف. وإنما قيل: «فعّال» لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة. وقال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة. وقال الطبريّ: رفع «فعال» وهي نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب «الغفور الودود». وعن أبي السّفر[1] قال: دخل ناس من أصحاب النبيّ ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني! قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم؛ يؤنّسه بذلك ويسليه. ثم بينهم فقال. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ وهما في موضع جر على البدل من «الجنود». المعنى: إنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك. ﴿فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ لك؛ كدأب من قبلهم. وإنما خص فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين. وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك؛ فدلّ بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي يقدر على أن يُنْزل بهم ما أنزل بفرعون. والمحاط به كالمحصور. وقيل: أي والله عالم بهم فهو يجازيهم. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ أي متناهٍ في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل «مجيد»: أي غير مخلوق. ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي مكتوب في لوح. وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أمّ الكتاب؛ ومنه انتُسخ القرآن والكتب. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اللوح من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَك يقال له ماطِرْيون[2]، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله عزّ وجلّ فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة؛ ليس منها نظرة

(١) هو سعيد بن يحمد الهمداني.

(٢) في روح المعاني «ساطربون» وهذا الأثر في الدر ٦/٥٥٧ بدون تسمية الملك، وهو من الإسرائيليات بكل حال والله تعالىٰ أعلم.

إلا وهو يفعل ما يشاء؛ يرفع وضيعا، ويضع رفيعاً»، ويغني فقيراً، ويفقر غنياً؛ يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء؛ لا إله إلا هو. وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل[1]. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. وقيل: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم؛ وهو أم الكتاب. وقال ابن عباس: أوّل شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ «إني أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولي، منِ استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صدِّيقاً وبعثته مع الصدّيقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبِر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ إلهاً سواي». وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه يتوعده؛ فكتب إليه ابن الحنفية: «بلغني أن لله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ، يُعِز ويذلّ، ويبتلي ويُفْرح، ويفعل ما يريد؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشتغل بها ولا تتفرغ». وقال بعض المفسرين: اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرءونه. وقرأ ابن السَّمَيْفع وأبو حَيْوة «قرآن مجيد» على الإضافة؛ أي قرآن ربٍّ مجيد. وقرأ نافع «في لوحٍ محفوظ» بالرفع نعتاً للقرآن؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. الباقون (بالجر) نعتاً للوح. والقرّاء متفقون على فتح اللام من «لوح» إلا ما روي عن يحيى بن يعمَر؛ فإنه قرآن «لُوحٍ» بضم اللام؛ أي إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف. قال الزمخشريّ: واللوح الهواء؛ يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح. وفي الصحاح: لاحَ الشيء يلوح لَوْحاً أي لَمَحَ. ولاحهُ السفر: غيره. ولاح لوحاً ولواحاً: عطِش، والتاح مثله. واللوح: الكتِف، وكل عظم عريض. واللوح: الذي يكتب فيه. واللوح (بالضم): الهواء بين السماء والأرض. والحمد لله.

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبيّ،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون، وأوّله:

«سورة (الطارق)»

---

(١) هذا الأثر ونحوه من الإسرائيليات.